د. الحسينى الحسينى معدّى
الأساطير العربية
أساطير العالم
كنوز
للنشر والتوزيع

سلسلة أساطير العالم

الأساطير العربية

سلسلة أساطير العالم
الأساطير العربية

المؤلف
د/ الحسينى الحسينى معدى

الإشراف العام
ياسر رمضان

الناشر
كنوز
للنشر والتوزيع
37 ش قصر النيل ـ القاهرة تليفون: 0127717795

التنفيذ الفنى

فور إتش للكمبيوتر

٠١٠٦٦٧٤٣٣٥

رقم الإيداع: ٢٢٨٢٩/ ٢٠٠٩

الترقيم الدولى: 977-5307-82-k

سلسلة أساطير العالم

الأساطير العربية

تأليف

د. الحسينى الحسينى معدّى

كنوز

للنشر والتوزيع

مقدمـــة

تعتبر الأساطير قديماً وحديثاً مصدراً خصيباً من مصادر دراسة الشعوب والمجتمعات وتحليل رؤيتها للكون والمجتمع الإنسانى ومعرفة مواقفها من القضايا الجوهرية التى شغلتها أو ماتزال تشغلها على اختلاف الأقطار والأمصار.

وبناء على ما ذكرنا يمكن للمرء أن يقدر مدى ما يمكن أن توفره دراسة أساطير العرب عن «الجاهلية» من فوائد علمية عن صميم حياة العرب قبل الإسلام، بل عن حياة الشعوب العربية فى مراحل من تطورها لاحقة، لأن أشكال الفكر الأسطورى ليست قضية تهم إنسان المجتمعات العتيقة فقط وإنما هى تهمنا نحن أيضاً، ونحن نقصد بأساطير العرب عن الجاهلية فى آن واحد مختلف الأساطير التى كانت سائدة فى الجاهلية وتلك التى استمرت فى ظل الإسلام مشكلة وجزءاً من الوعى ورؤية العالم والتى كانت أو تكونت للعرب المسلمين أو ورثوها عن ماضيهم السابق للإسلام، ومهما يكن من أمر فكلها قد وصلتنا فى مدونات إسلامية بعد تناقلها مشافهة، مما يجعلنا نتوقع أنها ستكون فى شكل طبقات رسوبية من عهود متتالية كما هو الشأن فى علم طبقات الأرض، ولما كانت الأسطورة تتنزل منزلة تجعلها ذات صلة بأوجه عديدة من نشاط الفكر البشرى كان لموضوعنا هذا بالضرورة صلة مباشرة بمواضيع أخرى:

- فهو يتصل بتاريخ العرب القدامى فى الفترة التى يطلقون عليها فترة «الجاهلية».

- كما أن له صلة لا شك فيها بعقائد تلك الشعوب ولاسيما بالأديان الشرقية القديمة التى نشأت فى تلك البقعة من العالم.

ـ وكما له علاقة أيضاً بتاريخ الأدب العربى بالمعنى العام لكلمة «أدب»[1].

ولجميع ما ذكرنا من الاعتبارات رأينا أن نهتم بالأساطير التى وصلتنا عن الجاهلية موضوعاً لهذا الكتاب واخترنا له من العناوين «الأساطير العربية»، ويدل على أن كتابنا لا يتناول الأساطير الجاهلية فحسب؛ وإنما يتناول أيضاً المادة الأسطورية التى وصلتنا عن العرب القدامى فى المدونات الإسلامية، وأتركك عزيزى القارئ.. لتستمتع بقراءة مجموعة من الأساطير العربية عسى أن تجد فيها المتعة الذهنية والخيال الإنسانى المحبب إلى النفس.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمى على نعمه وتوفيقه.

د. الحسينى الحسينى معدى

(١) محمد عجينة: موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، جزءان، العربية للنشر والتوزيع، تونس، دار الفارابى، بيروت ـ لبنان، ١٩٩٤.

أشهر الآلهة العربية القديمة

اللات

هى آلهة العرب الكبرى ورأس الثالوث الإلهى المؤنث الذى يتألف من اللات والعزى ومناة، ونحن لا ندرى بالفعل ما إذا كان عرب الشمال قد جاؤوا بعبادة اللات من عرب الشام أو العكس؛ لأن اللات لدى عرب الحجاز تبدى شبهاً كبيراً باللات التى عرفها الصفويون والأنباط، ولاسيما فيما يتعلق بصخرتها البيضاء المربعة التى كانت تتصدر بيتها فى الطائف، والذى كانت سدانته لبنى ثقيف، وهى تشبه الصخرة البيضاء التى نصبها النبطيون لها فى معبدها بالبتراء، وكان بنو ثقيف يسترون بيت اللات فى الطائف ويخصصون له حجبة وكسوة ويضاهون به كعبة مكة، ولكن عبادة اللات لم تقتصر على ثقيف وحدها، وإنما كانت قريش أيضا وسائر العرب تعظمها، ودخل اسمها فى الكثير من الأسماء العربية مثل زيد اللات وتيم اللات وعمرو اللات، وبيتها القديم يقع اليوم فى باطن الأرض تحت منارة مسجد الطائف اليسرى، وفق الروايات القديمة، وكان الرسول ﷺ قد أمر بهدم بيت اللات بعد دخوله مكة المكرمة، فأرسل إليه سفيان والمغيرة بن شعبة لهدمه، وعندما قدما إلى الطائف أراد المغيرة أن يقدم أبا سفيان عليه فى هدمها، فقال له أبوسفيان: ادخل أنت على قومك، فدخل المغيرة وكان من بنى ثقيف وحطم الصخرة وجمع ما عليها من حلى، فقد كانت اللات من أغنى آلهة العرب، يأتيها الحجاج من كل حدب وصوب فينحرون لها ويقدسونها ويهدون إليها الحلى والثياب النفيسة.

اختلف الأقدمون فى أصل الاسم ومصدره، ولكنهم لم يجدوا له اشتقاقاً عربياً فروجوا خرافات ساذجة وغير مقنعة، وهم معذورون فى ذلك لأن الاسم من أصل كنعانى قديم كما أسلفنا، وهو فى صيغته الأصلية «إيلة» أو «إيلات»

وهى صيغة التأنيث من الاسم إيل، وهذا ما أدركه الطبرى بحسه الصائب والسليم عندما قال: إن اسم اللات هو مؤنث لفظ الجلالة الله.

تختلف المصادر بشأن وظائف هذه الإلهة ورمزها الكوكبى؛ فبينما يقول هيرودوتس فى تاريخه: إن العرب يعبدون الزهرة السماوية ويدعونها الإلات، فإن بعض الباحثين المحدثين يرى فيها إلهة الشمس، لاسيما وأن خصائصها الشمسية واضحة كل الوضوح لدى عرب الجنوب، فهم يدعونها «ذات حميم» أى التى تصدر الحمم واللهب، والرأى الثانى أقرب إلى الصواب، فإذا كانت اللات هى الشمس، فإن العزى هى نجمة الصباح ومناة هى نجمة المساء.

العزى

كانت أعظم الأصنام عند قريش، على رأى ابن الكلبى، فكانوا يزورونها ويهدمون لها ويتقربون عندها بالذبح وقد بلغنا - والقول لابن الكلبى هنا - أن رسول الله ﷺ ذكرها يوماً فقال: «لقد أهديت للعزى شاة عفراء، وأنا على دين قومى»، وكان لها بيت يقع إلى الشمال من مكة، بواد من نخلة الشامية يقال لها حراض، بإزاء الغمير عن يمين المصعد إلى العراق من مكة، وتختلف المصادر القديمة فى هيئة صنمها وفيما إذا كان على هيئة حجر غير منحوت، أو على هيئة إنسان، أو أنها عبدت فى ثلاث شجرات من أشجار السمار، فقد قال ابن حبيب فى كتابه «المحبر»: إنها صنم كبقية الأصنام، بينما أورد الطبرى فى تفسيره أنها كانت على هيئة حجر أبيض، وقال ابن الكلبى: إنها كانت شيطانة تأتى ثلاث سمرات ببطن نخلة، فلما افتتح النبى ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد فقطع السمرات، فإذا بحبشة نافشة شعرها، واضعة يديها على عاتقها، تصرف بأنيابها وخلفها سادنها يحثها على قتل خالد، ولكن خالداً ضربها ففلق رأسها ثم قتل سادنها وهدم بيتها، ولكننا نرجح أن هذه الإلهة قد مثلت بحجر شأنها شأن اللات، وأن الشجيرات فى بيتها كانت شجرات مقدسة ترمز إلى وظيفة الإلهة الإخصابية، وربما كانت مجرد جذوع أشجار مقطوعة ومزروعة عند الحجر.

أما بخصوص الاسم فلا نجد له اشتقاقاً إلا من المصدر عز، ومنه العز، والعزيز أو الأعز، والعزى اشتهرت بحبها للذبائح والقرابين التى كانت دماؤها تراق على حجرها نفسه، وتترك لتسيل إلى فجوة قريبة تدعى الغبغب، ويروى شاعر سورى سريانى يدعى إسحاق الأنطاكى أن المنذر ملك عرب الحيرة قد ضحى لها بابن الحارث ملك غسان وقد وقع بيده أسيراً، كما ضحى لها بأربعمائة راهبة أسرى كن متنسكات فى بعض أديرة العراق، أما رمزها الكوكبى فهو نجمة الصبح الذى يروى الكاتب الكلاسيكى نيلوس (٤١٠م) أن بعض القبائل العربية كانت تقدم له القرابين بصورة وحشية لحظة شروقه، ونعرف من كتب السيرة أن قريش كانت تحمل معها العزى فى حروبها لتنصرهم على أعدائهم، فهى والحالة هذه آلهة محاربة شأنها شأن بقية الإلهات اللواتى يرمز إليهن كوكب الزهرة، وعلى الرغم من أن البعض يعتقد بأن قريشاً كانت تحمل حجر العزى أو تمثالها، إلا أن الأغلب (على ما نعرفه من الشعوب التى عاشت على عتبة المدينة) هو أن قريشاً كانت تحمل شارة للعزى خفيفة الحمل والتنقل بها لا ندرى شكلها، ومثل هذه الشارات كانت معروفة لدى المصريين والسومريين فى العصور السابقة لفجر السلالات.

مناة

يقول ابن الكلبى: إن مناة كانت أقدم أصنام العرب، وقد كانت العرب تسمى عبد مناة وزيد مناة، وكان الصنم منصوباً على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد بين المدينة ومكة، وكانت المدينة ومكة وما قارب من المواضع يعظمونه ويذبحون ويهدون له، ولم يكن أحد أشد إعظاماً له من الأوس والخزرج، ولكن الطبرى فى تفسيره يقول: إن مناة هى صخرة تراق عليها الدماء، وفى عام الفتح أرسل النبى ﷺ علياً إليها فهدمها وأخذ كل ما كان لها.

وعلى الرغم من أن الطبرى يقول فى أصل الاسم: إنها سميت بمناة لأن دماء النسائك والمذابح كانت تمنى عندها، إلا أن الأصح فى رأينا هو أن الاسم مشتق من المنية وهى الموت، فمناة باعتبارها نجمة المساء كانت تمثل العتم

والظلمة والعالم الأسفل، وقد ورد فى الأخبار أن عباد صنم العزى قد بنوا له بيتاً وكان له سدنة يقومون عليه، وكانوا لايرون تماماً لحجهم إلى مكة إلا إذا أتوه بعد قضاء المناسك، فحلقوا رؤوسهم لديه وأحلوا إحرامهم.

هذا هو كل ما استطعنا جمعه عن هذه الإلهات العربيات الثلاث اللواتى ورد ذكرهن فى القرآن الكريم: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ (النجم: ١٩-٢١) ويبدو مما قدمناه سلفاً بخصوص هذا الثالوث المؤنث، أنهن كن على رأس معبودات العرب، وأنهن فى عقيدة الجاهلين كن بنات الله - على حذر عمهم -، على ما نستشف من الآية الكريمة أعلاه، وعلى ما تواتر لنا من أخبار ديانة العرب.

هبل

يقول ابن الكلبى فى كتاب الأصنام: وكانت لقريش أصنام فى جوف الكعبة وحولها، وكان أعظمها هبل، وكان فيما بلغنى من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى، أدركته قريش كذلك، فجعلوا له يداً من ذهب، وجاء فى تاريخ اليعقوبى أن هبل كان أول صنم بمكة، وجاء فى كتاب أخبار مكة للأزرقى، وفى سيرة ابن هشام، أن عمرو بن لحى قد جاء بهبل من موآب ونصبه فى جوف الكعبة على بئر يقال له الأخشف، وأمر الناس بعبادته، فكان أول صنم فى مكة، وفى بعض الأخبار الأخرى ورد أن صنم هبل نصب أحياناً فوق الكعبة، ويبدو أن له علاقة بمعرفة الغيب - ح تصورهم - لأن الكلبى يخبرنا بأن أهل قريش إذا أرادوا الإقدام على أمر ضربوا بالقداح أمام هبل مستخيرينه بالأمر، وعنده ضرب عبدالمطلب جد الرسول ﷺ على ابنه عبدالله حينما أراد ذبحه وفاء للنذر، كما تقول بعض أخبار السيرة.

عن شهرة هبل الواسعة، لا توجد لدينا فكرة واضحة عن خصائصه ووظائفه؛ ولكن نصب تمثاله على بئر فى جوف الكعبة ربما يدل على علاقته بالماء وبمظاهر الخصب بشكل عام، على رأى بعض الباحثين.

ومما يلفت الانتباه بشأن هبل هو أن اسمه لا اشتقاق له فى اللغة العربية، وهذا ما دعى الباحث جرجى زيدان فى كتابه «العرب قبل الإسلام» إلى ترجيح الأصل الكنعانى للاسم، والقول بأن الأصل فيه هو «بعل» الذى يعنى السيد أو الرب، وهو يُسبق فى بعض اللهجات الكنعانية، ومنها لهجة موآب الذى يفترض قدومه منها، بأداة التعريف وهى الهاء ليغدو «هبعل»، ولكن العرب أسقطوا العين، مثلما أسقطها البابليون والتدمريون من اسم «بعل»، ولفظوا الاسم «هبل»، ولكن إذا كان اسم «بعل» فى اللهجات الكنعانية هو لقب وليس اسم علم، وكان الإله الذى يعنونه هو «هدد» إله المطر والعاصفة، فمن هو الإله الكامن وراء لقب «هبل»؟ سنحاول الإجابة على هذا التساؤل فى موضوع لاحق من هذا البحث إن شاء الله.

أساف ونائلة

يقول ابن الكلبى: إن أسافاً ونائلة يافعان من جرهم قدما مكة حجاجاً، وكان يتعشقها فى أرض اليمن، فدخلا الكعبة فوجدا غفلة من الناس وخلوة فى البيت، ففسقا فيه فمسخا حجرين، ثم أخرجا فوضعا عند الكعبة ليتعظ بهما الناس، فلم طال مكثهما وعبدت الأصنام عُبداً معها، وكان أحدهما بلصق الكعبة والآخر فى موضع زمزم، فنقلت قريش الذى كان بلصق الكعبة إلى الآخر، فكانوا ينحرون عندهما، وقد عبدتهما قريش وخزاعة ومن حج البيت من العرب.

إن كل ما نستطيع استنتاجه من هذه الخرافة المتأخرة هو وجود تمثالين لثنائى إلهى عند بئر زمزم، لا نعرف عنهما شيئاً ولربما كانا فى الأصل مجرد نصبين حجريين حل محلهما فيما بعد صنمان مثلما حصل للصفا والمروة.

الصفا والمروة

يروى الأزرقى فى كتاب «أخبار مكة» أن الصفا والمروة كانا اسمين لرجل وامرأة أثما فى الكعبة فمسخهما الله تعالى حجرين، فوضعوا كلاً منهما على المكان المسمى باسمه، ثم أتى عمرو بن لحى ونصب على الصفا صنماً يقال له

«نهيك مجاور الريح»، ونصب على الصفا صنما يقال له «مطعم الطير»، وهذه القصة، مثل قصة أساف ونائلة، عبارة عن حكاية تبريرية متأخرة تفسر بشكل ساذج وجود هذين الصنمين اللذين لم يتواتر للرواة أخبار دقيقة بشأنهما، ولكن الحكاية تحتوى على دلالات واضحة على أسبقية عبادة الأحجار على عبادة الأصنام فى دين العرب، فإلى جانب الرواية الصريحة عن وجود حجرين معبودين فى الموقعين المعروفين إلى اليوم بالصفا والمروة، فإن كلمة «الصفا» فى القواميس العربية مشتقة من «الصفا» ومن «الصفوان» وتعنى الحجر العريض الأملس، بينما تعنى «المروة» الصخرة البيضاء.

ذو الشرى

لا يتخذ هذا الإله الذى كان رئيساً لمجمع الآلهة النبطية دوراً مهماً فى عبادات عرب الشمال، وقد خصه ابن الكلبى بسطرين فقط عندما قال فى: «وكان لبنى الحارث بن يشكر بن مبشر، من الأزد، صنم يقال له ذو الشرى»، ثم يورد بعد ذلك بيتين من الشعر ورد فيهما ذكره، ونرجح أنه كان - فى تصورهم - إلهاً عربياً مهماً فى العصور القديمة، ثم فقد مكانته فى عصور ما بعد الميلاد، ويبدو من اسمه أنه كان إلهاً لمكان يدعى «الشرى»، وهو مكان لا نستطيع اليوم تحديده بدقة، لأن المواضع التى اتخذت اسم الشرى كثيرة فى بلاد العرب وقد عبدته قبيلة دوس أيضاً.

ذو الخلصة

وهو أيضاً من ألهة الأماكن، وكان كما يقول ابن الكلبى: صخرة بيضاء منقوش عليها كهيئة التاج، وكانت بموضع تبالة بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة، وورد فى أخبار مكة أنه كان فى قرية ثروق قرب اليمن، أما القبائل التى عبدته فكانت خثعم وبجيلة وأزد السراة ودوس، ومن قاربهم من بطون العرب من هوازن، وقد ورد فى الأخبار أن صخرته قد أقيمت فى بيت يحجون إليه ويقدمون عنده القرابين ويستقسمون بالأزلام، ويبدو أنه كان

مشهوراً بين العرب القاطنين إلى الجنوب من مكة حتى اليمن، فكانوا يعظمونه ويحلفون عنده ويوقعون العهود، فلما فتح رسول الله ﷺ مكة وأسلمت العرب قدم عليه جرير بن عبدالله مسلماً، فقال له: ياجرير، ألا تكفينى ذا الخلصة؟ فقال بلى، فوجهه إليه، فخرج إليه وقتل من سدنته مائتين، وأكثر القتل فى خثعم، وهدم بنيان ذى الخلصة وأضرم فيه النار، ويبدو أن طقوس هذا الإله كانت تشتمل على رقصات مجونية حول حجره، لأن الكلبى يقول: «وبلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لا تذهب الدنيا حتى تصطلك أليات (= أرداف) نساء دوس على ذى الخلصة، يعبدونه كما كانوا يعبدونه».

ولعل ما قيل فى السيرة عن هدم بيت ذى الخلصة، ومن أن جرير بن عبدو الله قد قتل مائتين من سدنته، فيه شىء من الصحة، فلقد كان بيت ذى الخلصة من أرفع بيوت العرب، وكان يدعى بالكعبة اليمانية، وبكعبة اليمامة، كما دعى بالكعبة الشامية، ولكن الحديث الذى أورده ابن الكلبى ربما يشير إلى حجر آخر لذى الخلصة، نصب أسفل مكة على ما يرويه الأزرقى ويدعوه بالخلصة، ويقول بأن أهل مكة كانوا يعظمونه ويلبسونه القلائد ويهدون إليه الحنطة والشعير ويصبون عليه اللبن، كما يتحدث الأزرقى أيضا عن شجرة الخلصة المقدسة، وقد قال ياقوت الحموى فى معجم البلدان: إن الخلصة من قرى مكة بوادى «مر الظهران» وقد لاحظ صاحب قاموس تاج العروس هذه المسألة، وقال: إن الذى يظهر من سياق الحديث أن الصنم المذكور فيه غير الذى هدمه جرير، لأن دوساً من الأزد، أما خثعم وبجيلة فمن بنى قيس.

ذات أنواط

يقول ابن إسحاق فى السيرة: «كانت لكفار قريش، ومن سواهم من العرب، شجرة عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط، يأتونها كل سنة فيعلقون أسلحتهم عليها ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوماً» ويتابع ابن إسحاق فيقول: إنه فى يوم معركة حنين رأى الرسول (ﷺ) وأصحابه شجرة خضراء عظيمة، فقال له من معه: يارسول ﷺ الله اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط، فقال ﷺ:

الله أكبر، قلتم كما قال قوم موسى له: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة.

ويبدو أن «ذات أنواط» هذه (والتسمية راجعة إلى ما كان يعلق عليها من سلاح وحلى وقلائد) ليست شجرة بعينها، بل إن كل شجرة وارفة كبيرة يمكن أن تكون «ذات أنواط»، وتكون موضع عبادة باعتبارها رمزاً لألوهة الخصب التى ربما كانت اللات أو العزى.

مناف

يقول ابن الكلبى: «وكان لهم أيضاً مناف، فيه كانت تسمى قريش «عبد مناف» ولا أدرى أين كان، ولا من نصبه.

سعد

وكان صخرة طويلة، - على رأى ابن الكلبى -، منصوبة بساحل جدة، وكانت تعبده كنانة، وقضاعة، وكانت دماء القرابين تراق على هذه الصخرة، حتى أن الإبل كانت تنفر منها وتبتعد إذا دنى أصحابها.

ذو الكفين

وكان لقبيلة دوس، على رأى ابن الكلبى، ثم لبنى منهب بن دوس، فلما أسلموا بعث النبى (ﷺ) الطفيل بن عمرو الدوسى فأحرقه، ويبدو أنه كان تمثالاً عظيم الكفين، أو حجراً فيه نتوءان على هيئة كفين.

ذو الرجل

ورد فى معجم تاج العروس أنه صنم حجازى، ولم يذكر القبائل التى كانت تتعبد له، وهو إما صنم بارز الرجل، أو حجر فيه نتوء على هيئة الرجل، ولعل مثل هذه الأصنام أو الأحجار المقدسة، التى تسمى بصفة تميز شكلها الخارجى، لا ترمز إلى آلهة مستقلة، وإنما إلى آلهة معروفة باسم آخر غلب عليها أسماء راجعة إلى شكل رمزها المادى المميز.

الفلس

قال ابن الكلبى: «كان لطى صنم يقال له الفلس، وكان أنفاً أحمر فى وسط جبلهم الذى يقال له أجا، أسود كأنه تمثال إنسان، وكانوا يعبدونه ويهدون إليه ويعترون عنده عتائرهم، ولا يأتيه خائف إلا أمن عنده، ولا يطرد أحد طريدة فيلجأ بها إليه إلا تركت له.. فلم يزل الفلس يعبد حتى ظهرت دعوة النبى (ﷺ) فبعث إليه على بن أبى طالب فهدمه، وأخذ سيفين كان الحارث بن أبى شمر الغسانى، ملك غسان، قلده إياهما؛ فقدم بهما على النبى (ﷺ) فتقلد أحدهما، ثم دفعه إلى على بن أبى طالب، فهو سيفه الذى كان يتقلده».

ود

وهو مع سواع ويغوث ونسر، من آلهة قوم نوح على ما ورد فى القرآن الكريم، والتى استمرت عبادتها لدى عرب الشمال وعرب الجنوب.

يقول ابن الكلبى: إن عمرو بن لحى جاء بالأصنام إلى شط جده ودعا العرب إلى عبادتها، فأجابه عوف بن عذره بن قضاعة، فدفع إليه وداً، فحمله إلى وادى القرى، فأقره بدومة الجندل، وسمى ابنه عبد ود. فكان أول من سمى به، ثم سمت العرب به بعده، وجعل عوف ولده عامراً سادنا له، فلم تزل بنوه يسدنونه حتى جاء الإسلام، فبعث الرسول (ﷺ) خالد بن الوليد لهدمه، فقاتله بنو عبد ود وبنو عامر الأجدار، فقاتلهم حتى قتلهم، وهدم الصنم، ثم يقول ابن الكلبى فى وصفه نقلاً عن شاهد عيان: إنه كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال، عليه حلتان مئتزر بواحدة ومرتد بأخرى، وسيف تقلده، وقوس تنكبه، وبين يديه حربة وجعبة فيها نبال، وورد فى أخبار أخرى أن الجاهلين كانوا يلبسونه الحلل الثمينة، ويعلقون عليه القلائد ويزينونه بالجواهر النادرة، إسوة بالأصنام الكبرى كاللات والعزى.

والاسم «ود» فى العربية يتضمن معنى الحب، وعليه فربما كان هذا الإله مختصاً بأمور الحب والعشق، ولعل فى أبيات شعر للنابغة الذبيانى إشارة إلى

هذه الإله عندما ألقى تحية ود على إحدى النساء اللواتى دعونه إلى اللهو، ورفض الدعوة:

قــالت أراك أخــا رحل وراحلة تغشي متالف لن ينظرنك الهرما

حــيــاك ود فــإنا لا يحل لنا لهو النساء وإن الدين قد عزما

من هنا، فإن بعض الباحثين يرى شبهاً بين تمثال ود كما وصفه ابن الكلبى وبين بعض الأعمال النحتية الإغريقية التى تمثل إله الحب إيروس.

سواع ويغوث ويعوق ونسر

يقول ابن الكلبى فى هؤلاء: وأجابت عمرو بن لحى مضر بن نزار، فدفع إلى رجل من هذيل سواعاً، فكان بأرض يقال لها رهاط من بطن نخلة، يعبده من يليه من مضر.

وأجابه مُذحج، فدفع إلى أنعم بن عمر المرادى يغوث، وكان بأكمة باليمن يقال لها مُذحج، تعبده مذحج ومن والاها.

وأجابته همدان، فدفع إلى مالك بن مرثد بن همدان يعوق، فكان بقرية من أرض اليمن يقال لها خيوان، تعبده همدان ومن والاها.

وأجابته حمير فدفع إلى رجل من ذى رُعين يقال له معد يكرب نسراً، فكان بموضع من أرض سبأ يقال له بلخع، تعبده حمير ومن والاها، ولم يزل يعبدونه حتى هودهم ذو نواس.

وقال الزمخشرى فى «الكشاف»: إن الصنم يغوث كان على صورة الأسد، ويعوق كان على صورة الفرس، ونسراً على صورة نسر طائر.

غزالا مكة

يقول الأزرقى فى «أخبار مكة» وابن هشام فى «السيرة»: إن عبدالمطلب لما أعاد حفر وتنظيف بئر زمزم وجد تمثالى غزالين من ذهب، ووجد فى البئر أيضاً أسيافاً ودروعاً، ولما طالبت قريش بها ضربوا بالقداح أمام هبل، فخرج

قدحا الغزالين للكعبة، وقدحا الأسياف والدروع لعبدالمطلب الذى زين بالجميع باب الكعبة، ولتفسير وجود الغزالين فى موضعهما تقول القصة: إن عمرو بن الحارس الجرهمى، بعد أن نفت خزاعة جرهما عن مكة، خرج بغزالى الكعبة وحفر فى موضع بئر زمزم ثم دفن الغزالين مع ما دفن، وبقى الكنز مدفوناً إلى أيام عبدالمطلب.

على الرغم من الإيجاز فى وصف الغزالين، فإنى أرجح أن يكونا مرسومين على صفيحة بأسلوب النحت البارز وهما يقصدان شجرة لم يذكرها الرواة هى شجرة الحياة، وهذا التكوين التشكيلى فى بئر زمزم، فأرجح أن يكون من قبيل حجر الأساس الذى وضع له عندما حفر البئر أول مرة، أو فى إحدى عمليات التنظيف والتوسيع اللاحقة، وذلك للإيحاء إلى النبع بدوام التدفق.

اليعبوب

يقول ابن الكلبى: إنه صنم لجديلة، وكان لهم صنم أخذته منهم بنو أسد، فتبدلوا اليعبوب بعده، وربما كان هذا الصنم على هيئة الفرس؛ لأن اليعبوب فى اللغة يعنى الفرس السريع، أو الجواد السهل فى عدوه، وبه سموا أفراساً مشهورة، على ما ورد فى كتاب أنساب الخيل لابن الكلبى.

باجر

وهو صنم كان للأزد ومن جاورهم من طىء وقضاعة.

نهم

وهو صنم اختصت بعبادته قبيلة مزنية وهى من القبائل التى تنزل حول مكة، وكانوا يتقربون إليه بالذبائح ويحلفون به توثيقاً لعهودهم.

سعير

كان معبوداً لقبيلة عنزة، وهى من القبائل التى تنزل بالحجاز ونجد حتى بادية الشام، ويستنتج بعض الباحثين وجود صلة بين اسمه وبين الشمس ذات السعير.

الأقيصر

وكان فى مشارف الشام صنم لقضاعة ولخم وجزام وغطفان صنم يقال له الأقيصر، - على حد قول ابن الكلبى -، ويبدو أن أنصاباً حجرية عديدة كانت ترمز إليه فى الأماكن البعيدة عن مقر عبادته الرئيسى، على ما نفهم من بيت عشر لزهير بن أبى سلمى يذكر القسم بأنصاب الأقيصر، ويورد جواد على فى «المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام» أبياتاً أخرى تدل على إراقة دماء القرابين على أنصاب الأقيصر.

الشارق

ورد فى القاموس المحيط أنه صنم عبده الجاهليون، ومن المرجح فى رأينا أنه يدل على نجمة الصبح.

شمس

صنم قديم كان لبنى تميم، وكان له بيت، وكانت تعبده بنو أُد كلها، ويبدو أنه من أصنام الحجاز، وقد سميت به العرب عبد شمس، وكان على ما يدل عليه اسمه رمزاً للألوهة الشمسية.

قزح

صنم زُعم أنه كان بقرب مكة، وقد يكون له علاقة بالمزدلفة، وكان العرب يعتقدون أن له صلة بالرعد والعواصف، فهو والحالة هذه نظير الإله بعل الكنعانى، وربما كان لقوس قزح الذى يظهر بعد سقوط المطر وانقشاع الغيوم صلة بهذا الإله، وربما تصور العرب أنه قوسه الذى يرمى به السهام، ولعل مما يؤكد صلة قزح بالمطر وخصب الأرض أن العرب كانوا يوقدون النار على مزدلفة، وكانوا يقصدون منها نزول الغيث.

قيس

زعم أنه كان اسماً لصنم قديم، نُسيت عبادته، ولم يبق منها سوى بقية فى أسماء الأعلام مثل عبدالقيس وامرئ القيس.

يا ليل

ذُكر أنه صنم، ولم يرد شيء عن القبيلة التي تعبدت له أو موضعه، ويبدو أنه كان اسماً لصنم قديم نسيت عبادته، ولم يبق منها سوى أثر في أسماء الأعلام مثل «عبد يا ليل»، ولعل في افتتاح بعض الألحان العربية اليوم بصيغة «يا ليل ياعين» بقية من تراتيل عربية دينية موغلة في القدم.

العبادات النجمية

عبد العرب القوى السماوية المتمثلة بالشمس والقمر والكواكب السيارة وبعض نجوم السماء المميزة، ربما كان لبعض المؤلهات - التي أوردناها آنفا - صلة ببعض الأجرام السماوية، ولكن شُح المعلومات لا يساعدنا على البت في هذه المسألة، لربما كانت «اللات» هي الشمس و«العزى» هي نجمة الصباح، و«مناة» هي نجمة المساء، «وود» هو القمر.

الله رب الكعبة

كان للعرب بيوت عبادة تعظمها وتحج إليها، دعوها بيوتاً أو كعبات، ويبدو أن الكعبة لا تفترق عن البيت إلا من حيث شكلها المكعب، وقد تكون زيارة هذه البيوت، وأداء المناسك فيها أو حولها دورية في مناسبات معينة أو غير دورية.

وتتشابه المناسك في خطوطها الرئيسة، فهناك العتر عند البيت (أي ذبح القرابين)، وتقديم النذور والهدايا، والطواف حول البيت وهو سمة خاصة من سمات العبادات السامية الغربية، وكان لكل بيت إلهه الخاص الذي يعبد فيه، وله سدنة متفرعون وحجاب وخدم، وربما ستر البيت بكسوة كما هو حال كعبة مكة وكعبات أخرى غيرها، ويبدو أن الآلهة التي أسكنت بيوتاً هي آلهة أعلى من غيرها مرتبة، وعبادتها أكثر شمولاً من غيرها أيضاً، وجميعها بُنيت في المناطق الحضرية التي كانت الأعراب يؤمونها للتبادل التجاري وأداء الشعائر الدينية في الوقت نفسه.

يقول الهمذاني في «الإكليل»: وقد كان للعرب بيوت تحجها منها اللات، وذو

الخلصة، وكعبة نجران، وكعبة شداد الإيادى، وكعبة غلطان وفى كتابه «صفر جزيرة العرب» يقول: «مواضع العبادة مكة، وإيلياء بأعلى نخلة، وذو الخلصة بناحية تبالة، وكعبة نجران، ورئام فى بلد همذان، وكنيسة الباغوتة بالحيرة» ويقول ابن هشام فى «السيرة»: و«كانت العرب قد اتخذت طواغيت وهى بيروت تعظمها كتعظيم الكعبة له سدنة وحجاب، وتهدى لها كما تهدى للكعبة.. منها العزى ومناة ورضاء»، ومن مصادر أخرى نعرف عن كعبة سنداد فى أرض بين الكوفة والبصرة، وكعبة نجران وكانت لبنى الحارث، وبيت رضى وكان بيتا لبنى ربيعة، وبيت اللات فى الطائف وبيت الشمس الذى لبنى تميم.

وكان بناء بيت للإله يعتمد على أهميته من ناحية وعلى ثروة الجماعة التى تعبده، وفى هذا يقول ابن الكلبى: «واشتهرت العرب فى عبادة الأصنام، فمنهم من اتخذ بيتاً، ومنهم من اتخذ صنماً، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت، نصب حجراً ثم طاف به كطوافه بالبيت، وسموها الأنصاب» وبما أن كثيراً من البيوت والكعبات قد سُميت بأسماء مواقعها، فإننا لا نعرف على وجه اليقين أسماء الآلهة التى أقيمت بها.

من بين جميع كعبات العرب، وجميع أحجارهم المقدسة التى رمزت لآلهتهم فى هيئة غير مشخصة، كانت كعبة مكة بتاريخها العريق وحجرها الأسود، مهوى أفئدة كل العرب، يحجون إليها كل عام ويفون بنذورهم ويذبحون ذبائحهم، ويمارسون طقوساً مشتركة، وهذا يدل على شىء واحد، وهو أن العرب على الرغم من تعدد ألهتهم، وإعلاء كل قبيلة لشأن إله أو أكثر تخصه بالعبادة، فإن عبادة مشتركة واحدة جمعت بينهم، وإله مشترك واحد آمنوا به على جانب إيمانهم بآلهتهم المحلية، هو إله كعبة مكة، وإن حجر الكعبة الأسود لم يكن فى أصله إلا نصباً حجرياً يرمز إلى الله الكعبة فى هيئة غير مشخصة تنزهه عن التشبيه فى صورة كائن حى فمن هو رب الحكمة القديم.

لقد أحجم الباحثون المسلمون منذ صدر الإسلام عن بحث مسألة شيوع عبادة الله فى جزيرة العرب قبل الإسلام، حفاظاً على صورة الله فى الإسلام

من اختلاط بصورة الله فى الجاهلية، ولكن البحث الحديث عليه أن يتجاوز هذا الموقف القديم، اقتداء بالقرآن الكريم الذى قدم لنا أوضح بيان عن معرفة الجاهلين لله وإعلائهم لشأنه واعتقادهم بأنه رب العالمين وخالق السماوات والأرض، وذلك رغم شركهم به وعبادتهم لآلهة من صنعهم، من هنا، سوف نعتمد فى استجلاء عقيدة الجاهلين فى الله اعتماداً على أخبار متواترة وصلتنا ولم تلق ما تستحق من عناية ودراسة، وعلى نصوص من الشعر الجاهلى، وعلى آيات بينات من الذكر الحكيم.

هنالك أخبار متواترة عن قدم عبادة الله فى جزيرة العرب، فقد أورد الأزرقى فى «أخبار مكة» رواية تكررت مع بعض التنويعات فى «معجم البلدان» لياقوت الحموى، و«السيرة» لابن هشام، مفادها أن قريشاً لما أعادت بناء الكعبة قبل البعثة المحمدية بسنوات قليلة، نقضت أحجارها حتى وصلت إلى أساس إبراهيم، فوجدوا كتابة بالسريانية تقول: «أنا الله رب مكة الحرام. وضعتها يوم وضعت الشمس والقمر».

وقد بقى رب الكعبة إلهاً لكل العرب إلى أن بعث الله نبيه ﷺ بدين التوحيد، فكان حج العرب جميعاً إلى مكة، وتفضيلها على كل البيوت والكعبات، تعبيراً عن اعتقادهم فى إله يعلو على كل الآلهة، وتكريماً لبيته المقدس الذى قال القرآن الكريم ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٩٠) لهذا كان أهل مكة، على ما يرويه الأزرقى، يدعون أنفسهم بأهل الله، وذلك لمجاورتهم بيته.

ولدينا حادثة وردت فى سيرة ابن هشام، تدل على أن الله الذى بشر به محمد (ﷺ) ليس إلا صورة منزهة عن الشرك لإله الجاهلية، فقد ورد عن ابن عباس فى خبر قدوم واحد من أشراف العرب (وهو ضمام بن ثعلبة) على الرسول (ﷺ) وسؤاله إياه عن الإسلام، فكان مما سأله إياه: «أنشدك الله، إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك، أألله بعثك إلينا رسولاً؟ قال ﷺ: «اللهم نعم».

وكان الجاهليون يقسمون بالكعبة باعتبارها بيت الله، ويحرصون على عدم الحنث بمثل هذا القسم المعظم، يقول زهير بن أبى سلمى:

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله ... رجال بنوه من قريش وجرهم

ويقول عبدالله بن الزعبرى:

فإن أحلف وبيت الله لا أحلف على إثم

وعندما توجه أبرهة الأشرم ملك الحبشة إلى مكة بجيش جرار لاحتلالها وسار على رأس جيشه راكباً فيلاً ضخماً لإرهاب أهلها، ترك وجهاء مكة الدفاع عن مدينتهم وكعبتها إلى الله رب الكعبة، وذهب عبدالمطلب جد الرسول الأعظم ﷺ، وإلى أبرهة وهو فى الطريق إلى مكة، يطلب إبلاً له كان جنود أبرهة قد سرقوها، وعندما عجب أبرهة من قدوم واحد من أبرز زعماء مكة ليطلب إبله بدلاً من سؤاله الرجوع عن هدم الكعبة، قال له عبدالمطلب: «إنى أنا رب الإبل، ولكن للبيت رب يحميه» وعندما رجع عبدالمطلب من لقائه أبرهة، أخذ بحلقة باب الكعبة وراح ينشد:

لا هم إن العبد يمـ ... ـنع رحله فامنع حلالك

لا يغلبن صليبهم ... ومجالهم غدْوا محالك

إن كنت تاركهم وقبـ ... ـلتنا فأمر بما بدا لك

فلما ارتد أبرهة خائباً عن مكة بعد أن تفشى بين جنوده مرض خطير، هلل أهل مكة لتدخل الله وحمايته بيته، وفى هذا يقول عبدالله بن الزعبرى:

ستون ألفاً لم يؤوبوا أرضهم ... ولم يعش بعد الإياب سقيمها

كانت بها عاد وجرهم قبلهم ... والله من فوق العباد يقيمها

وقد أورد القرآن خبر حملة أبرهة على البيت الحرام ودفاع رب الكعبة عن بيته، وذلك فى سورة الفيل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ

كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥)﴾ فإذا كان الجاهليون قد آمنوا بحماية الله لبيته الحرام، ثم جاء القرآن الكريم ليؤكد أن من حمى الكعبة هو إله محمد (ﷺ) فإن النص القرآنى نفسه يعقد صلة وثيقة بين مفهوم «الله» فى الجاهلية ومفهومه الإسلامى، ويؤكد أن صورة الله الإسلامية هى صورة الله فى الجاهلية بعد أن أزال عنها الإسلام ما تراكم عليها من رواسب الشرك والجهل.

رأى الجاهليون أن الله هو رب الأرباب جميعاً، يعلو عليها ومقدرته أعظم من مقدرتها، فها هو أوس بن حجر يقسم باللات والعزى وبالله الأعظم منهما ومن غيرهما من الآلهة.

وباللات والعزى ومن دان دينها ... وبالله إن الله منهن أعظم

وهو رب السماء الذى ينزل المطر وفى هذا يقول أوس بن حجر:

ألم تر أن الله أنزل مزنه ... وعفر الظباء في الكناس تقمع

ويقول النابغة الذبيانى حينما مرض النعمان بن المنذر:

ألكنى إلى النعمان حيث لقيته ... فأهدى له الله الغيوث البواكر

ولهذا كان الجاهليون فى أحوال تأخر المطر، يأتون بجمع من الأبقار، ويربطون الحطب إلى أذنابها ثم يوقدون فيها النار ويدفعونها صعداً فى جبل وعر، حتى إذا وصلت قمته التهبت أجسادها وتم تقديمها محرقة لله علة يأتى بالمطر، وفى هذا يقول أحد الشعراء:

أجاعل أنت بيقوراً مسلعة ... ذريعة لك بين الله والمطر

وإذا كان الجاهليون يعبدون آلهة أخرى، فما ذلك إلا ليتقربوا بها إلى الله سيدها، ولهذا كانت قريش تقول: إذا أهلت للطواف بالكعبة: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك» وتقول وهى تطوف بالكعبة: «واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، فإنهن الغرانيق العلى وإن

شفاعتهن لترجى»، ويقول ابن الكلبى: إن اللات والعزى ومناة كن بنات الله فى اعتقاد الجاهليين، وهن يشفعن إليه.

ومما يدل على إيمان الجاهليين بأن الله هو خالق السماء والأرض وما بينهما، قولهم فى أيمانهم: ولا ورب الشمس والقمر، لا ورب البيت والحجر، لا ورازق الأنام، لا ورب النور والظلام، وبالذى خلق الأرض ومدها، ولا الذى دحا الأرض، لا وسامكها، لا وباسطها، لا وماهدها، لا والذى سمك السماء، ويذكر باعث بن صريم، الله خالق السماء، بقوله:

إني ومن سمك السماء مكانها والبدر ليلة نصفها وهلالها

كما كانوا يحلفون بالله خالق مظاهر الطبيعة، فيقولون: لا ومنشئ السحاب، ولا مجرى السحاب، لا ومجرى الرياح وهنالك ما يشير إلى خلق الله للإنسان فى بعض أشعارهم، كقول الأعشى:

وعلمت أن النفس تلقى حتفها ما كان خالقها المليك قضى لها

والله يثيب المحسنين، وإن كان من غير الواضح لديهم أن الثواب يناله الإنسان فى الآخرة، يقول عروة بن الورد فى ممدوحه:

جزى الله خيراً كلما ذكر اسمه أبا مالك إن ذلك الحى اصعدوا

وكذلك زهير بن أبى سلمى:

رأى الله بالإحسان ما فعلا بكم فأبلاهما خير البلاء الذى يبلو

والله يعاقب على الشر أيضاً، وإن كان من غير الواضح أن عقابه يأتى فى الدار الآخرة، يقول النابغة فى بنى عبس:

جزى الله عبساً فى المواطن كلها جزاء الكلاب العاويات، وقد فعل

ويعاقب على جحد الإحسان والنعمة يقول عنترة:

فلا تكفر النعمى واثن بفضلها ولا تأمنن ما يحدث الله فى غد

والله بيده مقاليد أمور الدنيا جميعاً، يقول ذو الإصبع العدوانى:

إن الذى يقبض الدنيا ويبسطها إن كان أغناك عنى سوف يغنينى

وظواهر الطبيعة منقادة لله انقياد الكائنات الحية، يقول المثقب العبدى:

ولو علم الله الجبال عصينه لجاء بأمراس الجبال يقودها

ويقول عروة بن الورد:

فسر فى بلاد الله والتمس الغنى تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا

ومشيئة الله غير المفهومة تعلو على مشيئة العبد، يقول قيس بن الحطيم:

يحب المرء أن يلقى مناه ويأبى الله إلا ما يشاء

وهو ملاذ الإنسان الوحيد، يقول النابغة فى اعتذار للملك النعمان:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

يقف بعض الباحثين موقف الشك من هذه الأشعار الجاهلية التى يرد فيها ذكر الله وصفاته وأعماله، وذلك ضناً على صورة الإله الإسلامى من الاختلاط بصورة الإله الجاهلى، وهم يقولون بأن اسم الله فى هذه النصوص قد حل محل اسم اللات القديم، بعد أن لعبت بها يد المحررين الإسلاميين، وهذا موقف غريب بالفعل؛ لأنه يتناقض مع النص القرآنى نفسه، الذى أكد فى عشرات الآيات على أن الجاهليين قد عرفوا الله وعبدوه وكإله أعلى خالق للسماء والأرض والكائنات الحية، نقرأ فى (سورة العنكبوت: ٦١) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ وأيضاً: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (لقمان: ٢٥) وأيضاً: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (الزخرف: ٩) وكما خلق الله السماوات والأرض فهو فى اعتقادهم خالق الإنسان، ومُنزل المطر، والأرض ومن عليها منقادة له: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ

لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ (الزخرف :٨٧) وأيضاً: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ (المؤمنون: ٨٦-٨٩) وأيضاً: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ (العنكبوت: ٦٣).

ولكن عبادة الجاهلين لله لم تكن توحيدية خالصة بل شابها الشرك: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ (يوسف: ١٠٦) وأيضاً: ﴿ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ (غافر: ١٢) وأيضاً، ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ﴾ سورة (النجم: ١٩-٢٠) وما عبادة هؤلاء وغيرهم من الآلهة إلا طمعاً في شفاعتهم لدى الله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ (الزمر: ٩) وأيضاً: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ (يونس: ١٨).

عند هذه النقطة، تواجه الباحث فى ديانة العرب قبل الإسلام مشكلة يتوجب عليه حلها، تتعلق بهوية الإله هبل، ذلك إن كل الأخبار المتواترة عنه، والتى أوردنا أهمها أنفاً تدل على أنه المعبود الرئيسى لدى قريش، وأنه أعظم أصنام الكعبة وربها - فى اعتقادهم الخاطئ -، فهل نحن هنا أمام تناقض فعلى بخصوص هوية رب الكعبة أم تناقض ظاهرى؟

لقد وقفنا إلى جانب جرجى زيدان فى تفسير اسم هبل وأصله، وقلنا بأن الأصل فى التسمية هو هبعل، أى البعل، ولكن كلمة «البعل» لدى السوريين الذين استورد العرب منهم صنم هبل، لم تكن اسم علم لإله العاصفة وإنما لقباً يعنى «السيد» أو «الرب»، أما اسمه القديم فهو «هدد» الذى بقى مستخدماً على الرغم من طغيان لقب البعل عليه، وعندما جاء العرب بصنم هبل من بلاد الشام

لم يقصدوا إلى استيراد إله جديد، بل إلى استيراد صورة منحوتة لإله الكعبة القديم أطلقوا عليها لقب هبل، ونصبوها فى جوف الكعبة عندما دخل التصوير إلى عبادتهم، وتعايشت العبادة التصويرية مع العبادة غير التصويرية، وبذلك جمعت قريش، أو من كان قبلها فى مكة، بين عبادة تصويرية لإله الكعبة رمزت إليه بتمثال وعبادة لا تصويرية بقيت ترمز للإله نفسه بالحجر الأسود القديم.

مناسك الحج الجاهلى

الحج فى اللغة هو القدوم والقصد عموماً، فنقول حج المكان أى زاره، ثم شاعت الكلمة للدلالة على زيارة الأماكن المقدسة من دون غيرها، فحج البيت الحرام هو زيارته وتأدية الشعائر الدينية السنوية عنده، فعلى اختلاف القبائل العربية فى شعائرها، كان لها شعائر سنوية مشتركة يؤديها الجميع فى مكة تلبية لنداء الإله المشترك الذى يجمعهم ويؤلف بينهم، ففى شهر ذى الحجة (وهو ثالث الأشهر الحرم الأربعة التى يحرم فيها الحرب والاقتتال، وتمنح الأمن والسلام للحجاج) تتقاطر القبائل العربية من كل فج عميق إلى جبل عرفة، بعد المرور بالأسواق التى كانت تقام فى مواسم الحج بين الطائف ومكة، وهى عكاظ ومجنة وذو المجاز، حيث يتبادلون البضائع التجارية ويتناشدون الأشعار.

تبتدئ المناسك الرسمية فى اليوم التاسع من ذى الحجة، حيث ينتقل الحجيج التجار من سوق ذى المجاز إلى عرفة، أما بقية الحجيج ممن لا شأن لهم بالتجارة وأسواقها، فأنهم يخرجون من ديارهم متى شاؤوا، على أن يكونوا مجتمعين فى اليوم التاسع على عرفة لبدء مناسك الحج، محرمين متزينين بزى الحج الذى لا تصنفه المصادر القديمة، ويغلب أن يكون زى الإحرام الإسلامى نفسه، ويكون ابتداء الحج بالوقوف على عرفة فى أصيل اليوم الأول من المناسك، وهى شعيرة من أهم شعائر الحج، حيث تقف القبائل كل فى موقف معين لها لا تتجاوزه إلى موقف قبيلة أخرى، ملبين ومتعبدين ومتوجهين إلى الله بأدعيتهم على ذلك الجبل الذى دعوه بجبل الإل، وهى تسمية قديمة ربما تعنى جبل إيل.

عندما تميل الشمس إلى الغروب، وقبل غياب أشعتها الأخيرة، يفيضون إلى المزدلفة، وهو موضع قريب يقع بين عرفة ومنى، وقيل إنه سمى بالمزدلفة لأنهم يزدلفون إلى الله، أى يتقربون فى المزدلفة يقضون ليلتهم متعبدين، بينما نيران قزح تلتهب، منتظرين شروق الشمس من وراء جبل ثبير، فإذا أشرقت الشمس اندفعوا سريعاً إلى وادى منى حيث يباشرون ذبح الماشية التى جاؤوا بها، وقيل إن منى سُمى بذلك لكثرة ما يمنى به من الدماء ثم يحلقون شعورهم أو يقصرونها، ويتوجهون إلى رمى الجمار الثلاث بالحصى وعددها على الأغلب سبع حصوات، فإذا انتهى الحجاج من الرمى انتهت مناسكهم وعاد فريق منهم إلى موطنه، بينما بقى فريق آخر لأداء شعيرة الطواف حول الكعبة.

والطواف سبع مرات، كانوا خلالها يصفرون بأفواههم لحناً خاصاً ويصفقون بأيديهم تصفيقاً إيقاعياً، وهم يلبون كل قبيلة على طريقتها، إلا أن التلبية الأكثر شيوعاً كانت تقول: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك هو لك تملكه وما ملك» وأخرى تقول: «لبيك إن الحمد لك الملك، لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك» أما لماذا تنص هذه التلبية على شريك واحد لا على عدة شركاء، وما هوية هذا الشريك، فإن التلبية القديمة لا تقول شيئاً، ولكنى أرجح أن يكون المقصود هو هبل، الوجه الآخر لرب الكعبة - مع زعمهم الخاطئ -.

إلى جانب الحج السنوى فى شهر ذى الحجة كانت العرب تقصد مكة أيضاً لأداء شريعة العمرة، وفيها أيضاً يحرمون، ويطوفون بالبيت، ويسعون بين الصفا والمروة، وهو السعى الذى لا يقوم به الحجاج، وعلى الرغم من أن العمرة تجوز فى أى شهر من شهور السنة، إلا أن غالب اعتمارهم فى رجب وهو آخر الأشهر الحرم، فيه يكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم عند الاعتمار، وللطواف بالبيت، سواء فى الحج أو العمرة، يبدأ الطائف بالحجر الأسود فيمسحه بيده أو يقبله، ثم ينطلق عن يمينه ويطوف سبع مرات وهو يلبى سبع مرات، فإذا ختم طوافه استلم الحجر مرة أخرى وخرج.

الأساطير الفلكية

لقد كان للأساطير الفلكية المتعلقة بالكواكب والنجوم دور كبير فى حياة العرب رغم قلتها، جاء فى الجزء الأول من كتاب: «إخوان الصفاء»، عن أوائل ساعات الأيام: «أعلم أن الليل والنهار وساعاتهما مقسومة بين الكواكب السيارة، فأول ساعة من يوم الأحد للشمس، وأول ساعة من يوم الاثنين للقمر، وأول ساعة من يوم الثلاثاء للمريخ، وأول ساعة من يوم الأربعاء لعطارد، وأول ساعة من يوم الخميس للمشترى، وأول ساعة من يوم الجمعة للزهرة، وأول ساعة من يوم السبت لزحل».

وكانت العرب تسمى الأيام فى الجاهلية على النحو التالى: «الأحد أول، والاثنين أهون، والثلاثاء جبار، والأربعاء دبار، والخميس مؤنس، والجمعة عروبة، والسبت شبار» وقال شاعرهم:

أؤمل أن أعيش وأن يومى ... بأول أو بأهون أو جبار

أو المردى دبار فإن أفته ... فمؤنس أو عروبة أو شبار

ولقد حظى القمر بأسطورة طريفة خلعت عليه صورة إنسانية تقربها بعض الشىء من الأساطير اليونانية، وفى هذه الأسطورة يخبر القمر عن أحواله التى يكون عليها إبان الشهر من تغير فى ضوئه وذلك على طريقة المسألة والجواب، فتقول:

قيل للقمر: ما أنت ابن ليلة؟

قال: رضاع سخيلة، حل أهلها برميلة.

قيل: فما أنت لليلتين؟

قال: حديث أمتين، ذواتى إفك ومين.

قيل: فما أنت لثلاث؟

قال: حديث فتيات، يجتمعن من شتات.

وقيل: قليل الثبات.

قيل: فما أنت لأربع؟

قال: غنمة رتع، غير جائع ولا مرضع.

قيل: فما أنت لخمس؟

قال: حديث وأنس.

قيل: فما أنت لست؟

قال: سر وبت.

قيل: فما أنت لسبع؟

قال: تصغر فى الشفع، وقيل: دلجة الضبع.

قيل: فما أنت لثمان؟

قال: قمر أصبحان، وقيل: رغيف اقتسمه أخوان.

قيل: فما أنت تسع؟

قال: تلتقط فى الجع.

قيل: فما أنت لعشر؟

قال: محق للفجر.

قيل: فما أنت لإحدى عشرة؟

قال: أرى مساء وأرى بكرة.

قيل: فما أنت لاثنتى عشرة؟

قال: موفق السير فى البدو والحضر.

قيل: فما أنت لثلاث عشرة؟

قال: قمر باهر، يغشى عين الناظر.

قيل: فما أنت لأربع عشرة؟

قال: مقتبل الشباب، أضىء بين السحاب.

قيل: فما أنت لخمس عشرة؟

قال: تم التمام، وتقدمت الأيام.

قيل:فما أنت لست عشرة؟

قال: ناقص الخلق: فى الغرب والشرق.

قيل: فما أنت لسبع عشرة؟

قال: ركب الفقير الفقر.

قيل: فما أنت لثمانى عشرة؟

قال: قليل البقاء سريع الفناء.

قيل: فما أنت لتسع عشرة؟

قال: بطىء الطلوع من الخشوع.

قيل: فما أنت لعشرين؟

قال: أطلع سحرة، وأرى بكرة.

قيل: فما أنت لإحدى وعشرين؟

قال: لا أطيل السرى، إلا ريثما أرى.

قيل: فما أنت لاثنتين وعشرين؟

قال: مسفع خطب، وليث حرب.

قيل: فما أنت لثلاث وعشرين؟

قال: كالقبس، أطلع فى الغلس.

قيل: فما أنت لأربع وعشرين؟

قال: أطلع فى قسمة، ولا أجلى ظلمة.

قيل: فما أنت لخمس وعشرين؟

قال: أنا فى تلك الليالى، لا قمر ولا هلال.

قيل: فما أنت لست وعشرين؟

قال: دنا الأجل، وانقطع الأمل.

قيل: فما أنت لسبع وعشرين؟

قال: دنا ما دنا، فليس فى من سنا.

قيل: فما أنت لثمان وعشرين؟

قال: أطلع بكراً، ولا أرى ظهراً.

قيل: فما أنت لتسع وعشرين؟

قال: أسبق شعاع الشمس، ولا أطيل الجلس.

قيل: فما أنت لثلاثين؟

قال: هلال مستقبل، سريع الأقل.

■ ■ ■

ملكة سبأ

﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾

ملكة سبأ فى الأساطير الحبشية

جاء ذكر ملكة سبأ فى الكتاب الحبشى «متحفا نجست» (متحف الملوك) أنها كانت ملكاً لسبأ التى تقع بالقرب من مدينة أكسوم وأن مملكتها شملت كلا شاطئى البحر الأحمر، شاطئ أريتريا وشاطئ اليمن، وأن الذى وحد هذين الشاطئين هو جدها الملك عنجبوس الذى خلفه فى الحكم ابنه تيواسا والد ماكدا التى صارت بعده ملكة على سبأ.

أما قصة سفر الملوك الحبشى «كبرا نجست» ـ الفصول ٢١ ـ ٢٨ فتختلف عن قصتى التوراة والقرآن، فقد كان التاجر المتجول «تمارين» بديلا للهدهد وواسطة بين الملكة وملك أورشليم (بيت المقدس) سليمان، وهذه هى قصة:

كان تمارين التاجر الأثير لدى ملكة سبأ، وكان يرأس قوافل جمال تتكون عادة من ٥٢٠ جملاً ويملك ثلاثاً وسبعين سفينة، ويحمل البضائع إلى أورشليم ويبيعها هناك، وفى إحدى المرات وهو فى أورشليم يعلم أن سليمان يرغب فى تشييد معبد لله وإنه قد أرسل الرسل إلى الشرق والغرب والشمال والجنوب طالباً من تجار البلدان أن يرسلوا إليه بما يساعده فى البناء مقابل ذهب وفضة يدفعها لهم، ويخبر التجار سليمان عن التاجر تمارين وبضائعه النفيسة فيبعث إليه برسالة يطلب منه أن يحضر له من بلاد العرب ذهباً أحمر وخشباً أسود لا تنخره السوس، ويحضر تمارين لسليمان ما أراده فيغدق عليه المال، ويدرك تمارين بثاقب فكره حكمة سليمان وعظمته وثراءه الواسع فيعود إلى بلاده ويخبر الملكة بما رآه من سليمان فترغب الملكة فى زيارته بنفسها لترى وجهه وتسمع حكمته وتضمه وتطلب منه الولاء لها، ثم تخاطب شعبها قائلة «إننى متيمة بالحب للحكمة، فالحكمة أثمن من الذهب والفضة وهى عماد المملكة» وبعد خطابها الرنان تجهز نفسها للسفر فى قافلة تتألف من ٧٩٧ رجلا محملا ومن

عدد لا يحصى من البغال والحمير، وتصل إلى أورشليم وتقدم لسليمان هداياها النفيسة التى كان يرغب فى الحصول عليها فيحتفى بالملكة احتفاءً عظيماً وتسأله الملكة أسئلة كثيرة يجيب عليها كلها.

وبعد أن تقضى الملكة ستة أشهر فى ضيافة سليمان تعلن عن رغبتها فى العودة إلى مملكتها ويرغب سليمان فى الاستحواذ عليها ويقيم لها وليمة وداع فخمة ويأمر الطباخين بإضافة كميات من التوابل الحارة فى اللحم، وبعد العشاء يدعو الملكة لقضاء الليل فى غرفته، وتقبل الملكة الدعوة، لكنها تشترط عليه أن لا يأخذها بالقوة، ويقسم سليمان أن لا يفعل ذلك إلا إذا وعدت هى بأن لا تأخذ شيئاً من غرفته بدون علم منه، وكان سليمان قد رتب لها سريراً فى طرف الغرفة ووضع بجانبه إبريقا مليئاً بالماء، ثم يصعد سليمان إلى سريره ويتظاهر بالنوم، ولا يمضى وقت طويل حتى تستيقظ من نومها وهى تشعر بعطش شديد من تناول التوابل الحارة فتمد يدها نحو الإبريق فيقبض سليمان على يدها ويقول لها إنها قد حنثت بوعدها بأن لا تأخذ شيئاً من غرفته بدون علمه. وتدرك أنها قد فعلت ذلك حقاً وتستسلم له وتعتنق ديانة إسرائيل.

النور الربانى فى بطن الملكة

وتستمر الـ«كبرا نجست» الحبشية فى سرد بقية القصة قائلة:

وفى تلك الليلة يحلم الملك بنور ربانى متألق على هيئة شمس ساطعة تهبط من السماء ويضىء إسرائيل، وبعد فترة من الزمن يخبو النور فجأة ويتجه نحو أثيوبيا ويسطع هناك إلى الأبد؛ لأن إرادة الله شاءت أن يبقى النور الربانى فى أثيوبيا، ويدرك الملك أن الملكة ستنجب ولداً فيقدم لها خاتماً ويقول لها: «خذى هذا الخاتم حتى يذكرك بى، وإذا حدث وأنجبت لى ولداً فإن هذا الخاتم سيكون إشارة منه لى، وإذا كان ذكراً فيجب أن تبعثى بى وإلى، وسلام الله عليك».

وتعود الملكة وتصل إلى بلاد «بالوادى سرياً» وبعد تسعة أشهر وخمسة أيام

من اجتماعها بالملك تضع مولوداً ذكراً يقال إنها سمته «منليك» التى تعنى ابن الملك أو ابن الحكيم، وتسلم الملكة مولودها إلى وصيفة خاصة بكل فخر واعتزاز لتعتنى به، وعندما يبلغ الولد الحادية والعشرين من عمره ترسل به إلى والده فيستقبله بكل حفاوة وتكريم، عندما يرى الخاتم فى إصبعه، ويطلب منه والده البقاء فى أورشليم «حيث يوجد بيت الله ووعاء القربان المقدس لشريعة الله وحيث يسكن الله»، ولكن بعد أن يقضى الولد زمناً فى رعاية أبيه يرغب فى العودة إلى بلاده فيعينه سليمان ملكاً ويجمع نبلاء المملكة ويأمرهم بأن يرسلوا أبكر أبنائهم لمرافقة ولده ليؤسسوا مستوطنة لإسرائيل، وقبل أن يغادر الشبان أورشليم يتآمر منليك معهم على سرقة تابوت العهد المقدس الذى بناه نبى الله موسى ويحملونه معهم إلى أثيوبيا التى يحولونها إلى «صهيون الثانية».

هكذا تجعل «كيرا نجست» من ملكة سبأ السلف القومى لشعب الحبشة وملوكها وتجعل شعار سليمان «أسد يهوذا المنتصر» شعاراً للحبشة.

والاعتقاد السائد فى الحبشة أن تابوت العهد المقدس لايزال موجوداً فى كنيسة أكسوم، إلا أن رجال الكنيسة لا يسمحون لأى شخص مهما كان مقامه بأن يشاهده غير قسيس واحد يجرى اختياره من قبل الرهبان لحراسة التابوت طول حياته، وعند وفاة الحارس يختارون حارساً آخر من قسيس شمال الحبشة معروفاً بالفضيلة والاستقامة تكون من بين أعماله حرق البخور عند التابوت وتنظيف المعبد، ولا يسمح له بمغادرة حوش الكنيسة طول حياته، ويكون هو الوحيد المسموح له بمشاهدة التابوت، وفى وقت الأزمات أو الحروب ينقل التابوت إلى مكان آمن، وقد نقل التابوت حينما قام الإمام الصومالى أحمد جراى بغزو الحبشة فى القرن السادس عشر الميلادى، وكان الشخص الوحيد الذى ذكر أنه رأى التابوت هو القس ديموثيوس الذى ذهب إلى الحبشة برفقة رئيس الأساقفة ايزاك سفير البطريارك الأرمنى لدى ملك الحبشة تيودروس الثانى، وقد أنكر ديموثيوس أن يكون التابوت هذا هو تابوت العهد المقدس لنبى الله موسى.

والواقع أن أحداً لا يعرف أين هو التابوت الحقيقى ولو أنه من المعتقد أن

التابوت قد ضاع أثناء الاحتلال البابلى فى عام ٥٠٦ق.م ربما قبل ذلك.

وثمة أسطورة عن ملكة سبأ فى تجرينيا (فى أريتريا) تقول إن فتاة تجرينية اسمها اتى ازيب (أى ملكة الجنوب) كانت لها ساقا حمار وأنها تسمع بحكمة النبى سليمان وقوته الروحية فتقرر الذهاب إلى أورشليم لتحصل منه على الشفاء وتسافر مع وصيفة لها متنكرتين فى زى الجمال وعندما تقفان أمام سليمان يساوره الشك فيهما، وفى الليل يضع قربة جلدية مملوءة بالعسل فى غرفته التى استضافهما فيها ويتظاهر بالنوم، وعندما تظنان أنه نائم تلحسان من العسل فيعرف هويتهما ويأخذهما بقوة.

وكانت لهذه القصة ذيول سياسية، وربما كانت من تصنيف أسرة أرادت أن تحكم الحبشة مدعية أنها أيضاً من سلالة سليمان وهى أسرة «زجوى» الملكية التى تقول: إن سليمان نام مع وصيفة الملكة قبل أن ينام مع الملكة وأن الاثنتين وضعتا مولودين فى يوم واحد بعد عودتهما إلى بلادهما، وقد سمعت الملكة ولدها «منليك» وسمت الوصيفة ولدها «زجوى» ولهذا فإن أسرة زجوى لها الحق الأول فى العرش الأثيوبى.

وعارض عدد من رهبان الكنيسة الأثيوبية قيام أسرة «زجوى» وأعلنوا قرارهم أن المملكة قد أعطيت لإناس لا ينتمون إلى قبيلة إسرائيل.

وفى محاولة من ملوك أسرة «زجوى» لرفض قرار الرهبان المؤيدين للأسرة المالكة المناوئة نشروا أسطورتين إحداهما حول حياة ملكة سبأ ووصيفتها التى ذكرناها والثانية تعتمد على التوراة ليؤكدوا أنهم فعلاً من قبيلة إسرائيل، وتقول القصة: إن أسرة «زجوى» من سلالة نبى الله موسى وأن موسى عندما كان فى مصر اندلعت الحرب بين مصر والحبشة بسبب قيام الحبشة بتحويل مياه نهر النيل وبناء سد على نهر تيكيزى، ويدعو فرعون نبلاء مملكته لاستشارتهم فيشيرون عليه بتعيين موسى قائداً للحملة ضد الأحباش، وكان غرضهم من ذلك التخلص من موسى، ويقود موسى جيشاً مئتى ألف مقاتل ويهزم الأحباش ويهدم

السد ويعقد معاهدة مع ملك الحبشة يتعهد فيها الملك بأن لا يحول مياه نهر النيل، وأن موسى بعد هذه الحملة يقتل مصرياً ويضطر إلى الفرار من مصر مع قومه إلى مديام.

وإذا رجعنا إلى الترجمة الحبشية الحبشية للتوراة التى توافق النص المذكور فى الترجمة اليونانية السبعينية للتوراة التى قام بها اثنان وسبعون عالماً يهودياً فى اثنين وسبعين يوماً نرى فى سفر الملوك الأول (١٠ ـ ١) أن الملكة قدمت إلى سليمان لتمتحنه بأسئلة صعبة «بحكمة» ويظهر أن الكلمة الأخيرة «بحكمة» أضيفت عمداً من قبل المترجمين الأحباش ليضفوا على الملكة صفة الحكمة وليس على الملك.

ملكة سبأ وعبادة الثعبان

من بين الأساطير الحبشية أن أهل الحبشة كانوا يعبدون الثعبان «أروى» وأنهم كانوا يقدمون له فى كل عام فتاة عذراء يضحون بها له، وأن الاختيار وقع فى أحد الأعوام على القناة «ماكدا» لكنها قبل أن يقذفوا بها إلى الثعبان يأتى رجل غريب ينقذها ثم يتزوجها، وبعد ذلك تصير ملكة على سبأ.

ويرى البعض أن الثعبان إنما كان رمزاً لملكة سبأ، بينما كان الآله «محرم» رمزاً لحكمة سليمان ويظهر أن مخترعى قصة ملكة سبأ والثعبان ومخترعى القصة السابقة للملكة وساقى الحمار المكسوتين بالشعر كانوا متأثرين بأسطورة الجنية «ليليت» التى تقمصت جسد ثعبان والتى تظهر فى الليل عارية يكسوها الشعر وهى بساقى حمار.

ومن مكتشفات البعثة الألمانية للتنقيب عن آثار اكسوم فى ١٩٠٦ أن جزءاً من الأريتريين والأحباش الشماليين كانوا يعبدون الثعبان «اروى» وأيضاً الجن والأرواح (الزار) سواء كانت للخير أم للشر، وكانت حسب اعتقادهم تكمن فى الأشجار وعيون الماء والأشياء، وبالإضافة إلى اعتقادهم بآلهة جنوب الجزيرة العربية حدث تطور فى العبادة الوثنية فقد أدخلت عبادة الإله الأرض (أرض)

والإله البحر (البحر) وإله الحرب الأعظم (محرم) والواقع أن الثعبان «أروى» كان رمزاً للأنهار والسيول التى تغرق القرى والمزارع وتهلك الماشية فى بعض المواسم والتى سيطر عليها العرب الجنوبيون بتشييدهم السدود والقنوات والسواقى والخزانات التى كبحت جماحها والتى لاتزال بقاياها موجودة فى جنوب الجزيرة العربية واريتريا والحبشة، وقد عثر علماء الآثار على لوحات عديدة فى أنحاء من جنوب الجزيرة العربية حفر عليها رسم الثعبان الذى كان يرمز إلى إله الفجر «سحر» وكان للمعينيين صنم يمثل الثعبان «نهمس طب» أى الثعبان الطيب.

وبهذه المناسبة أذكر أن الكلمة «أروى» بالعربية تعنى المعْزة الجبلية الرشيقة، وبالعبرانية «أريه» وتعنى الأسد، وبالاكادية «أرو» وتعنى طائر العقاب، وبالجعزية والتجرينية «أروه» وتعنى الثعبان.

ملكة سبأ عربية

وبينما لا نجد فى التوراة والقرآن أية إشارة عن زواج ملكة سبأ وسليمان ولا عن أية علاقات عاطفية بينهما، نجد الكتاب الحبشى المقدس (كبرا نجست) وغيره من المصادر الحبشية تذكر بوضوح وصراحة العلاقة الجنسية بينهما، وكان ذلك لغرض سياسى كما يظهر لتأكيد تسلسل ملوك الحبشة من ملكة سبأ ونبى الله سليمان، وينكر المسؤولون الأحباش وحتى المثقفين منهم أن ملكة سبأ التى حكمتها ملكة سبأ يمنية كما يقول التاريخ والكتب السماوية، بل يرون أن سبأ المنية امتداد لسبأ الحبشية، وقد جاء فى المادة ٢ من دستور أثيوبيا المعدل فى سنة ١٩٥٥ أن المنزلة الرفيعة الامبراطورية ستستمر إلى الأبد فى أسرة هيلاسلاسى الأول سليل الملك سهل سيلاسى الذى يتصل بدون انقطاع بالسلالة الحاكمة لـ«منليك» الأول ابن الملكة الاثيوبية ملكة سبأ وسليمان ملك أورشليم.

ويؤكد الدكتور سرجيو هبلى سيلاسى الأستاذ فى جامعة أديس ابابا فى كتابه «تاريخ أثيوبيا فى العصور القديمة والوسطى حتى عام ١٢٧٠» الاعتقاد الراسخ فى أثيوبيا فى الأسرة المالكة التى بدأت بالملك «منليك» الأول لاتزال

مستمرة (إلى حين الاطاحة بالامبراطور هيلاسيلاسى).

ويقول أيضاً: «توجد لدينا فى أثيوبيا مناطق أثرية عديدة تتعلق حسب التقاليد بملكة سبأ مثل (جلوو ماكدا) و(خزات) وقبر ملكة سبأ وقبر منليك الأول والمعبد الذى يضم ما يعتقد الأحباش أنه تابوت العهد المقدس، ويقع جولو ماكدا بين جبلين هما دونجولو فى الشمال وفوكودا فى الجنوب، وأن القصص الشعبية تذكر أن هذا المكان الذى ولدت فيه ملكة سبأ.

وعندما يريد أن يؤكد أن ملكة سبأ غير عربية يقول: إن الكلمة «صرح» التى وردت فى الآية ٤٤ من سورة النمل حبشية وإن استعمالها يثبت أن الأسطورة مستقاة من نموذج أصلى أجنبى.

والواقع أن سرجيو هبلى سيلاسى يقول هذا على الرغم من أنه كعالم آثار وتاريخ يعرف أن اللغة الحبشية نفسها عربية يمنية هى لغة الخط المسند وأن الخط الحبشى هو الخط المسند الأصلى مع تغييرات فى الأشكال وحروف العلة.

وحتى لو فرضنا أن الكلمة «صرح» ليست عربية الأصل فليس معنى ذلك أن ملكة سبأ ليست عربية بل أجنبية؛ لأن القرآن الكريم ذكر من بعض اللغات الأجنبية كلمات كانت متداولة فى شمال الجزيرة العربية حينذاك، ومع ذلك فإن الكلمة «صرح» عربية جنوبية قديمة انتقلت إلى الحبشة مع المهاجرين من جنوب الجزيرة العربية الذى نقلوا معهم وخط المسند.

الجدير بالذكر أن اسم الأستاذ الحبشى (سرجيو هبلى سيلاسى) عربى الأصل، فالكلمة «سرجيو» مشتقة من الفعل «سرج» و«سرج» وتعنى ضوءاً ونوراً وتعنى أيضاً جميل الوجه، و«هبلى سيلاسى» تعنى «حبل الثلاثى» أى الحبل الذى يربط الثلاثى المقدس عند المسيحيين وهم (الله والابن والروح القدس) وأن اسم امبراطور الحبشة السابق «هيلا سيلاسى» هو فى الأصل «هيل الثلاثى» أى قوة أو ثروة الثلاثى المقدس، كما يحتمل أن الاسم الحبشى لملكة سبأ، وهو «ماكدا» تحريف لكلمة «ماجدة» و«مجيدة» وهى الكلمة التى ربما كانت صفة لملكة سبأ.

ملكة سبأ فى الأدب الانجليزى

كثيراً ما يرى قارئ الأدب الانجليزى أن شعراء الانجليز وأدباءهم يضفون صفة الجمال الباهر والجلال والحكمة والعظمة على ملكة سبأ، فقد ذكرها شاعر بريطانيا وليم شكسبير فى قصته الشعرية «الملك هنرى الثامن» على لسان كرامر فى المنظر الرابع من الفصل الخامس، «لم تكن سبأ فى حاجة إلى الحكمة والعفة أكثر مما ستكون عليه هذه النفس الطاهرة».

كما ذكرها الشاعر الانجليزى رديارد كبلنج بأبيات منها:

أبداً لم توجد ملكة مثل بلقيس

من هناك حتى نهاية الدنيا الواسعة

لكن بلقيس كانت تتكلم مع الفراشات

كما تتكلم أنت مع صديق

وأبداً لم يوجد ملك كسليمان

منذ بدء تكوين العالم

لكن سليمان كان يتكلم مع الفراشات

كما يتكلم إنسان مع إنسان

لقد كانت هى ملكة سبأ

وكان الاثنان يتكلمان مع الفراشات

عندما كانا يتجولان.

ومن أغنية عاطفية للشاعر الانجليزى جورج ويتر الذى عاش من ١٥٨٨ حتى ١٦٦٧م قال:

أحـبـبت فـتـاة، كـانت رائعة الجـمـال

أروع جـمـال يمكن أن يشـاهده إنسـان

حـقـاً لقـد كـانت نادرة المثـال

إنهـا صـورة أخـرى من ملكة سـبـأ

ومن أغنية عاطفية للشاعر آبر كرومى:

تربعت بلقـيس على عـرشـهـا المرمـوى

وهـبـطت عـلى الـدنـيـا الـظـلال

قـال: ألا يوجـد رجل، ألا يوجـد أحـد

يحـرك جـمـالى فـيـه رغـبـة الحب الـبـهـيج

تـزدهـر فـيـه روح من أرواح اللـه

حتى يمكن أن تلتقى حياة كل ما المنعزلتان

ألا يوجـد رجل، ألا يـوجـد أحـد

قـالت: إنـى راحلة إلى سـلـيـمـان

كما ذكرها الشاعر بيتس فى قصيدتين «سليمان وملكة سبأ» و«سليمان والساحرة».

■ ■ ■

أولاد الجن

ويعتقد أن بعض القبائل ينحدر من آباء من الإنس وأمهات من الجن مثل جرهم وثمود وطسم وجديس والعمالقة وغيرها من القبائل المنقرضة، ويتحدث البعض عن إمكانية زواج نساء الجن بذكور الانس وتحريم زواج ذكور الجن بنساء الانس ويذكر الأستاذ شوقى عبدالحكيم فى كتابه «أساطير وفولكلور العالم العربى» أن مراحل استبدال الأمهات السماويات بأنثيات من الجن يبدو واضحاً فى نسب بلقيس ملكة سبأ وأمها الجنية المشهورة «رواحة بنت مسكن»، وهو اسم ما يزال يتواتر على الشفاه فى خرافات الجن المصرية، ومنها جنية جبل ضهر (وادى ضهر بصنعاء) باليمن والجنية التى انحدر منها الملك الحميرى الصعب بن ذى مراثد الحميرى والصعب ذو القرنين».

يذكر شوقى عبدالحكيم أيضاً: ««أن معتقداتنا هذه ترجع بكاملها منحدرة من المتعربة البائدين (الألف السنة الرابعة ق.م) وبشكل خاص سكان الجنوب (اليمن) القحطانيين نظراً إلى يسر اتصالاتهم المبكرة بالفرس المجوس فى إيران والتى يرجعها البعض إلى ما قبل «الألف سنة الثالثة ق.م» حين أخضع الملوك القحطانيون الفرس ومنهم ملوكها أمثال الضحاك بين مرداس وذو الاذعار، فقد لعب موقع اليمن وقربها من البحر الأحمر جغرافياً على خط الاتصال بالهند وفارس دوره فى جلب هذه الأفكار والمعتقدات الخرافية عن الجان ثم تسربها فيما بعد إلى بقية شعوب العالم العربى ومنه عبرت إلى أوروبا».

ليليت والريح الأحمر

هنا يجدر أن نعود إلى موضوع أساطير الأولين الذى ذكرنا فيه النمرود أو البطل المتجول كلكامش، ونضيف أنه أثناء تجواله التقى بالجنية «ليليت» التى تقمصت جسد حية رقطاء واتخذت لها مسكناً فى شجرة الصفصاف التى

غرستها الآلهة البابلية «أنانا» فى حديقتها على شاطئ نهر الفرات، ولما وجد «كلكامش» أن «ليليت» ترفض الخروج من الشجرة قطعها وذبح الحية، لكن «ليليت» غادرت جسم الحية قبل ذبحها واتخذت لها مسكناً فى الأمكنة المهجورة والخرائب.

وتذكر الترجمة الارامية للتوراة أن «ليليت» ملكة الزمرد هجمت على أيوب واستولت على مواشيه، وبما أننا نعلم أن الزمرد من الحجارة الكريمة وأن ليليت تتقمص جسد الثعبان يجدر أن نشير إلى الاعتقاد بظهور ثعبان يحمل جوهرة على رأسه لتنير له الطريق، وأن بعض الناس يتربص به وعندما يضع الجوهرة عن رأسه يغطيها المتربص بروث البقر فيهر الثعبان أو يموت فيستولى المتربص على الجوهرة.

والكلمة «ليليت» بابلية أشورية تعنى «أنثى الشيطان» وتعنى «الريح» وتحولت الكلمة إلى «ليل» و«ليلى»، ويعتقد أن الموال «ياليل ياعين» يشير إلى الجنية ليل أو ليلى أو ليليت، ومما يذكر أن حفلات «الليوة» التى يحييها الجبرت النازحون إلى جنوب الجزيرة العربية من أريتريا والحبشة[1] يرددون فى أهازيجهم كلمات مثل «هيا ياليوة هيا» عندما يرقصون ويغنون على أنغام العود التقليدى المعروف بالسمسمية وقرع الطبل المعروف بالطنبرة[2] وربما أن الكلمة «ليوة» تشير إلى ليليت، ومما يذكر أن الصومال فى حفلاتهم ورقصاتهم يقولون «هاى لولاى هاى».

ونلاحظ أن الاسم الآخر للجنية هو «ريح» والمعروف أن بعض الناس عندما يصابون بأمراض معينة مثل الفالج والشلل الجزئى ويعجز الطب عن شفائها يقال إن فلانا أصيب بالريح، ويصفه البعض بأنه ريح أحمر وجن أحمر ويستعملون له أدوية سحرية وتعاويذ وطلاسم.

وتروى قصص عن ليليت وظهورها وغيرها من الجن فى الليل لإغراء

(١) الجبرت من القبائل العربية اليمنية التى هاجرت إلى أريتريا والحبشة منذ أيام معين وسبأ وحمير والمهرى وامتزجت بالقبائل الإفريقية الموجودة هناك.

(٢) استعارت بعض اللغات الأوروبية كلمة «طنبرة» لتعنى طبلاً ويطلقون عليه اسم تانبورين.

الشبان لمضاجعتها ثم تمتص دماءهم أو تذهب بعقولهم[1] والاعتقاد السائد أن من وقع فى حبائل الجنية وعشقها وعشقته لا يستطيع أن يتزوج بأنسية، وأنه إذا أرغم على الزواج بأنسية فمصيره المحتوم الانتحار أو الموت أو الجنون، وأذكر هنا أن شاباً تزوج إحدى قريباته مرغماً؛ لأنه كما قيل عنه كان متزوجاً بجنية وأنه بعد زواجه بأسبوع دعاها إلى الغرفة ويده قابضة على رصاصة، وظل ينظر إلى زوجته عدة دقائق دون أن يكلمها ثم فجأة طلب منها أن تحضر له فنجان شاى، وعندما غادرت الغرفة أغلق الباب خلفها، وبعد لحظات سمعت طلقة بندقية الصيد، ولما أسرعت إلى الغرفة وجدت الباب مغلقاً من الداخل فصرخت وأقبل الجيران وكسروا الباب ووجدوا الزوج جثة هامدة غارقة فى الدماء ويده قابضة على الرصاصة، وحلل البعض الحادثة أنه كان ينوى أن يقتل زوجته ثم ينتحر لكنه غير فكره وأخرجها من الغرفة لتحضر له كوبا من الشاى ثم أطلق رصاصة بندقية الصيد على بطنه.

وليليت فى المعتقدات القديمة عدوة للأطفال والنساء والحوامل ولهذا فإن الناس فى جنوب الجزيرة العربية استعملوا ولايزالون يستعملون منفرات لإبعادها عن هؤلاء فقد جرت العادة أن تتبع المرأة الحامل إجراءات لحماية نفسها ومولودها من الجن ومن العين أيضاً، فعندما تجد أن مواليدها يموتون بعد ولادتهم بساعات أو بأيام تستعمل حرزاً تعلقه حول رقبتها أو تشده حول خصرها، وعندما تلد يختار أحد الأقارب اسماً للمولود، وبعد ساعات تبيعه أمه لإحدى قريباتها بمبلغ قد لا يتعدى ثلاثة دراهم ويضع حبات من التمر.

وبالطبع لا يعنى هذا الإجراء البيع بالمعنى المتعارف عليه، إلا أن القريبة التى «اشترت» المولود تعمل على تربيته والانفاق عليه من التسول وهى لا تذهب بالطفل إلى الأسواق والشوارع للتسول علناً، بل تذهب إلى الأقارب والأصدقاء الذين يعرفون الغرض ويدفعون لها ما تشترى به محتاجات الطفل من الحليب والملابس، وفى الأيام المقررة لزيارة الأولياء تذهب به بملابس من الخيش

(١) فى اللاتينية أن سقوبة Succuba هى الشيطانة التى تضاجع الرجال أثناء نومهم.

وأكياس الدقيق والرز وتتسول به، وعندما يبلغ السنة السابعة من عمره تجمع ما تبقى من فلوس التسول وتذهب به إلى مقام أحد الأولياء وتسلم النذر، وغالبا ما تستعمل تلك الفلوس فى إقامة حفلة عشاء أو غذاء للفقراء والمساكين وأبناء السبيل إما فى مسجد أو فى المنزل، وعلى الرغم من أن أهل عدن ليسوا من أتباع المذهب الشيعى إلا أن كثيرين يقدمون نذورهم للإمام جعفر الصادق رضي الله عنه فى مسجد الجماعة الاثنا عشرية الجعفرية فى مدينة عدن، ويقال إن الطفل منذور للإمامين الحسن والحسين وللإمام جعفر الصادق، ويطلقون عليه صفة «ابن محرم» نسبة إلى شهر محرم، وفى العشرة الأيام الأولى من الشهر يلبسون الطفل ملابس خضراء ويغسل له أهله إحدى قدميه، وبعد ذلك يعاد إلى أمه.

استخدام السحر والجن

الاعتقاد بمس الجن للناس منتشر وفى القرآن الكريم جاء على لسان أيوب عليه السلام: «﴿رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ (سورة ص: ٤١) وفى سورة البقرة: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ (البقرة: ٢٧٥).

ويذكر الأستاذ محمد فريد وجدى فى كتابه «الإسلام فى عصر العلم» إن فكرة استيلاء الجن على جسم الإنسان والتأثير عليه بالمرض شائعة من مبدأ الخليقة، فقد كان الناس عموماً ينسبون الأمراض أيا كانت إلى الأرواح الشريرة وكان لهم فى ذلك طرائق عجيبة وأعمال غريبة لم تزل منتشرة فى كل البلاد المتوحشة، وقد كانت هذه الفكرة آخذة فى التناقص شيئاً فشيئاً حتى كادت تنتهى إلى الصفر خصوصاً فى العالم العلمى، لكنها قد حيت الآن حياة قوية، وصار يستطيع المنتصر لها أن يقيم على صدق قوله ألف دليل محسوس وسبحان مغير الأحوال».

ويقول أيضاً: إن الأستاذين ريتشارد هودسن وجيمس هيزلوب اللذين درسا الاسبرتزم (علم الروح) بواسطة مدام بيبر مدة اثنى عشر عاماً نشرا نتيجة

أبحاثهما فى كتاب إن عدداً من المجانين الذين يحبسون فى البيمارستانات ليسوا مصابين بأمراض عقلية بل مملوكين لأرواح قد استولت عليهم واستخدمتهم».

ويعتقد كثير من العامة أنه إذا أصيب أحد بمس فيجب استدعاء «شيخ» اشتهر بمعالجة المس فيقوم هذا بضرب المصاب باللطم والركل وبكتابة حرز السبعة العهود وغيره.

ويعتقد أن لبعض الناس مقدرة تجعلهم يستخدمون الجن، وكثيراً ما نسمع عن بعض هؤلاء الذين اشتهروا بأعمال فيها منفعة للناس أو إضرار بهم، والطائفة الأولى تمتنع عن استعمال الوسائل الضارة؛ لأنهم كما يقال عنهم يقسمون اليمين قبل امتلاكهم للجن أن لا يلحقوا إضراراً بأحد وأن لا يجنوا من وراء عملهم هذا فوائد شخصية إلا فى حدود معقولة، وقد عرف عنهم مداواة الناس من الأمراض المستعصية على الطب الحديث مثل الجنون والصراع والتشنج والشلل الجزئى وأمراض أخرى، ويقوم بعض هؤلاء بمداواة الناس بواسطة المص، فيضع الواحد فمه على موضع الألم ويمص.. ويحدث أنه فى بعض الأحيان يلفظ المعالج من فمه دماً أو عظماً أو رماداً أو شعراً ويكون هذا دليلاً على ابتعاد المرض عن المصاب، كما يقوم هؤلاء بمداواة الناس بإعطائهم أدوية خاصة يعدونها بأنفسهم من أعشاب معينة وبكتابة الحروز والطلاسم.

وهؤلاء يعتبرون استخدام المقدرة للإضرار بالناس من أعمال السحر الأسود الذى تحاربه جميع الأديان.

وجاء فى القرآن الكريم: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ﴾ (البقرة: ١٠٢).

ومن بين أمثلة أعمال السحر الأسود أن يطلب شخص من الساحر أن يقضى على خصم له بالموت أو بالجنون أو بإقعاده عن الحركة فيقوم الساحر بتشويه عنزة أو فرخة بتكسير عظامها وفقء عينيها بطريقة قاسية مؤلمة وبكتابة طلاسم ثم يقذف بها فى البحر أو فى بقعة نائية أو بدفنها فى مكان غير مأهول، أو يقوم بصنع دمية يغرز فيها الدبابيس أو يحرقها فيصاب الخصم بما أراده له الشخص الذى استخدم الساحر، ويسمى مثل هذا العمل «رزع» وقد يذهب أهل المصاب إلى واحد ممن يستخدمون الجن فى أعمال الخير ويطلبون منه أن يعمل على رفع الضرر عن قريبهم، ويحدث أحياناً أن ينجح هؤلاء فى رفع الضرر بكتابة حروز فيها ذكر الله.

والتنبؤ بالغيب والتنجيم منتشران، وبعض الناس لا يبدأ فى عمل ما إلا بعد أن يستشير أحد هؤلاء، والبعض لا يسافر إلا بعد أن يتأكد أن النتائج ستكون فى مصلحته.

العين

نصادف كثيراً من الأطفال الذين يحملون أسماء غريبة، الغرض منها حمايتهم من العين مثل عبد وعبيد وجارية وخادم وشوعى (قبيح) وكدافة (زبالة) وخيبة وناقص، وأسماء حيوانات مثل كلب وكليب وبقرة وثور وحمار وذئب وجحش وبغل.

وكثيراً ما يربطون للطفل حول عنقه أو خصره فى كيس من الفضة أو الجلد قطعة صغيرة من الحديد أو الرصاص أو سن القط أو سن الضبع أو حبة السودة أو أبر أو دبابيس.

وحتى وقت قريب كانوا يحلقون للطفل شعر رأسه إلا جزءاً صغيراً فوق الجبهة أو قمة الرأس، ويعتقد أن مثل هذا الطفل قد بيع إلى ولى الله العيدروس أو الإمام المهدى أو الولى سفيان أو الولى عمر بن على أو غيرهم.

ويحدث أنه إذا أصيب أحد بالعين الشريرة وعرف أهل المصاب صاحب

العين يحاولون أن يأخذوا قطعة صغيرة من ملابسه أو شيئاً من شعره يبخرون به المصاب.

ويستعمل بعض الناس صورة كف أو نعال أو حدوة حصان، والمعروف أن الحصان كان يمثل الإلهة الشمس حين كان الأجداد يعبدون الأفلاك السيارة، والعين فى اليمن الأعلى تسمى «روع» والشخص صاحب العين يسمى مراع.

ويقال إن بعض أصحاب العين يستطيعون أن يفتتوا الصخر بمجرد نظرة واحدة سريعة.

شيطان الشعر

يعتقد العرب بأن لكل شاعر شيطاناً يلهمه الشعر، ويقول بعضهم إن «الهوجل» شيطان الشعر الجيد وأن «الهوبر» شيطان الشعر الردىء ومن الأسماء «تابع»، و«رئى».

وفى الحجاز وجنوب الجزيرة العربية يسمونه «هاجس» أو «هاجسة» و«حليلة».

ويقال: إن الشاعر العالم الأديب الأمير أحمد فضل بن على العبدلى كانت له حليلة وأنه كان يستيقظ من نومه فى الليل وينادى أحد أفراد المنزل ويملى عليه قصيدة أو أبياتاً من الشعر وأنه فى الصباح لم يكن يدرى شيئاً مما قاله فى الليل.

ويعتز رجال القبائل بشعرائهم، وكلما زاد عدد الشعراء فى القبيلة كلما ارتفع مركزها، وكثيراً ما نرى شاعرين من قبيلتين متباعدتين يتبادلان الرسائل بالشعر الحمينى، ويتحدى الواحد منهما الآخر بحل الألغاز التى تتضمنها قصائده أو بقول قصيدة تتضمن هجاءً أو تفاخراً أو حكماً وأمثالاً.

■ ■ ■

المدن والمناطق الأسطورية

يتعرض الرحالة كـ«ابن جبير» و«ابن بطوطة» لوصف ما يشاهدونه فى رحلاتهم لحياة الشعوب، طرق معيشتهم - عاداتهم وتقاليدهم - موقفهم من واقعهم السياسى والاجتماعى والفكرى، ثم يسجلون تجاربهم ومشاهداتهم الواقعية، متعدين منطق العقل ويقتربون من الخيال الشعبى، فهو الانغماس فى عالم الأساطير الممتع خاصة فى وصفهم التفصيلى لمدن قد يكون لها وجود فعلى ملموس أو مدن لا وجود لها فى عالم الواقع.. ومنها:

ارم ذات العماد

وهى المدينة التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم، والتى لم يخلق مثلها فى البلاد وقد كان ذلك كافياً لإطلاق خيال الرواة والقصاصين فنسجوا من خيالهم أسطورة، أحداثها منسوبة إلى صحابى جليل هو عبدالله بن قلابة روى فيها - بالتفصيل - ما رآه، وما حدث له، فيقول:

إنه: «خرج فى طلب إبل له شردت، فبينما هو فى صحارى بلاد اليمن وأرض سبأ إذ وقع على مدينة عظيمة بوسطها حصن عظيم، وحوله قصور شاهقة فى الجو، فلما دنا منها ظن أن بها سكاناً أو أناساً يسألهم عن إبله، فإذا هى قفر ليس بها إنس ولا حسيس، قال: فنزلت عن ناقتى، وعقلتها ثم استللت سيفى ودخلت المدينة، ودنوت من الحصن فإذا ببابين عظيمين لم ير فى الدنيا مثلهما فى العظم والارتفاع، وفيهما نجوم مرصعة من ياقوت أبيض وأصفر يضىء بها ما بين الحصن والمدينة، فلما رأيت ذلك تعجبت منه، وتعاظمنى الأمر، فدخلت الحصن وأنا مرعوب ذاهب اللب، وإذا الحصن كمدينة فى السعة، وبه قصور شاهقة، وكل قصر منها معقود على عمد من زبرجد وياقوت، وفوق كل قصر منها غرف وفوق الغرف غرف أيضاً، كلها مبنية بالذهب والفضة، مرصعة

باليواقيات الملونة والزبرجد واللؤلؤ، ومصاريع تلك القصور كمصاريع الحصن فى الحسن والترصيع، وقد فرشت أراضيها باللؤلؤ الكبار، وبنادق المسك والعنبر والزعفران، فلما عاينت ما عاينت من ذلك ولم أر مخلوقا كدت أن أصعق، فنظرت من أعالى الطرف فإذا بأشجار على حافات أنهار تخرق أزقتها وشوارعها، منها ما أثمرت، ومنها ما لم تثمر، وحافات الأنهار مبنية بلبن من فضة وذهب، فقلت: لا شك أن هذه الجنة الموعود بها فى الآخرة، فحملت تلك البنادق واللؤلؤ ما أمكن، وعدت إلى بلادى..».

ولكى يضفى الراوى على ما سبق جواً من الصدق المغلف بالحقيقة ذكر أن هذا الخبر كان فى عهد معاوية بن أبى سفيان الذى عرف من كعب الأحبار أنها مدينة ارم ذات العماد والتى بناها شداد بن عاد الأكبر، فلما طلب معاوية من كعب تاريخ بنائها اندفع كعب فى سرد سبب ذلك بقوله:

«.. فمات شديد بن عاد فملك شداد الملك بعده على الانفراد، وكان مولعاً بقراءة الكتب القديمة، وكلما مر به ذكر الجنة وما فيها من القصور والأشجار والثمار وغيرها مما فى الجنة، دعته نفسه أن يبنى مثلها فى الدنيا عتوا على الله عز وجل، فأمر على ابتنائها ووضع مائة ملك، تحت يد كل ملك ألف قهرمان.. وتستمر الرواية، وتبنى المدينة فى «.. ثلاثمائة سنة جداً من غير تعطيل أبداً، وكان شداد قد عمر من العمر تسعمائة سنة..» وبعد أن تم بناؤها أراد شداد أن يراها «.. سار شداد بمن معه من الأحشاد مسروراً ببلوغ المراد، حتى إذا بقى بينه وبين «ارم ذات العماد» مرحلة واحدة، أرسل الله عليه وعلى من معه من الأمة الكافرة الجاحدة صيحة من سماء قدرته فأهلكتهم جميعا، ومحا الله آثار طرقها ومحجتها فهى فى مكانها حتى الساعة على هيئتها..».

وهكذا نرى أنفسنا - من خلال الوصف - أمام مدينة من مدن ألف ليلة «.. مبنية من ذهب وفضة، عمدها من زبرجد وياقوت، حصباؤها لؤلؤ وبنادق مسك وعنبر وزعفران..».

ولعل تبادل التأثر والتأثير بين كتب التراث القديم وألف ليلة واضح فيما سبق.

وإذا حاولنا التحقق من تاريخ هذا اللقاء بين كعب الأحبار ومعاوية بن أبى سفيان، فإن كعباً مات (بحمص فى عهد عثمان بن عفان سنة اثنتين وثلاث أو أربع وثلاثين)، وكان موت معاوية بن أبى سفيان سنة ٦٠هـ تقريباً، ومعنى ذلك أن هذا اللقاء لم يحدث تاريخياء وإنما هو موقف من وضع الرواة والقصاصين لإضفاء الحقيقة على ما يرونه.

القسطنطينية

تناول رواة الاخبار وصف مدينة القسطنطينية، ولكن يهمنا تلك الجزئية التى وردت فى هذا الوصف، والتى نشم من خلالها عبق ألف ليلة، وتركز هذه الجزئية على منارة المدينة.

«.. عليها قبر قسطنطين بانى القسطنطينية وهو راكب، وقوائم الفرس محكمة بالرصاص ما عدا يده اليمنى فهو موقوفة فى الجو، وقد فتح كفه يشير نحو بلاد المسلمين، ويده اليسى فيها كرة، وهذه المنارة ترى على مسافة يوم فى البحر ونصف يوم فى البر، ويقولون إن فى يده طلسماً يمنع العدو..».

ويجانب الخبر - فى معظمه - الواقع والحقيقة، ولكننا نتوقف عند عبارة: (ويقولون إن فى يده طلسماً يمنع العدو..) فهى تدل على ما أحاط هذه المدينة من أخبار وأساطير وأوصاف ينعكس بعضها على ما ورد فى مدن ألف ليلة البحرية الواقعة فى المحيط وغيره.

أرض يأجوج ومأجوج

لا يحدد ابن الوردى أرض يأجوج ومأجوج تحديداً جغرافياً ملموساً، وإنما ندرك من وصفه أنها مجاورة لبلاد التبت، وتميز به.. الجبل الذى يحيط بهم يسمى فزنان، وهو جبل قائم الجنبات لا يصعد عليه أحد، وبه ثلوج منعقدة لا تتحل عنه أبداً، وبأعلاه ضباب لايزول أبداً، وهو ماد من بحر الظلمات.. وخلف

هذا الجبل من بلاد يأجوج ومأجوج عدد لا يحصى، وفى هذا الجبل حيات وأفاعى عظام جدا ..».

وتروى الاخبار المروية عن وجودهم التاريخى فيقال: «.. إن يأجوج ومأجوج كانا أخوين شقيقين تناسلا، وكانت لهم غارات على من جاورهم قبل وصول ذى القرنين إليهم، فأخلوا كثيراً من البلاد وأهلكوا غزيراً من العباد..».

وقد أشار القرآن الكريم إلى وصول ذى القرنين إليهم، وبناء سده العظيم ليحول بينهم وبين غيرهم من الشعوب المحيطة بهم، وقد بالغ ابن الوردى فى وصفه لباب هذا السد ومدى ضخامته وسمكه الحديدى، وهو بين جبلين عظيمين وقد بنى ذو القرنين هذا السد العظيم ليوقف إفسادهم لمن حولهم من الشعوب الأخرى، وانتشار الخراب فيمن حولهم.

فقد توقف كل من القزوينى وابن الوردى عند التكوين الجسدى ليأجوج ومأجوج فوصفوهم وصفا خرافيا فى قولهما: أنهم «.. قصار القدود لا يتجاوز أحدهم ثلاثة أشبار، ووجوههم فى غاية الاستدارة، وعليهم شعور مثل الزغب، وآذانهم مستديرة مسترخية، تلحق أذن الرجل منهم طرف منكبيه، وألوانهم بيض وحمر، وكلامهم صفير، وفيهم زنا فاحش..»، ويغلف ابن الوردى رواياته الأسطورية عن يأجوج ومأجوج بما فيها من أخبار توحى بحقائق تاريخية، فيروى ما يريد على لسان أحد الرحالة فى العصر العباسى وهو سلام الترجمان الذى كان عارفاً بألسن كثيرة حتى قيل إنه كان يعرف أربعين لغة، ويجارى فيها أنه رأى هذا السد عيانا وذلك أن أمير المؤمنين الواثق بالله من خلفاء بنى العباس بعثه إليه ليراه ويتحقق من كيفيته، ويخبره بصفته عن حقيقته.

ونفذ سلام الترجمان ما طلب منه، واستغرقت الرحلة ذهابا وإيابا «سنتين وأربعة أشهر».

ويقول سلام الترجمان فى فقرة من رحلته: «.. سألت من هناك: هل رأيتم قط أحداً منهم، فأخبروا أنهم رأوا منهم عدداً كثيراً فوق شرفات السد فهبت

بهم ريح عاصفة فرمت منهم ثلاثة، كل واحد منهم طوله دون ثلاثة أشبار، ولهم مخاليب موضع الأظفار وأنياب وأضراس كالسباع وإذا أكلوا بها يسمع لأكلهم حركة قوية، ولهم أذنان عظيمتان يفترشون الواحدة ويلتحفون الأخرى..».

المحيطات والبحار والجزر

حظى المحيط بروايات خرافية وأخبار أسطورية، وردت على ألسنة البحارة الذين تعرضوا لمخاطره، وواجهوا الموت المحقق بين أمواجه العاتية، وثوراته المفاجئة، ومن ثم عرف بينهم ـ قديماً ـ بالبحر الأعظم.

ومن هذه الأخبار الأسطورية والروايات الخرافية أن «.. فى هذا البحر عرش إبليس – لعنه الله –، وفيه مدائن تطفو على وجه الماء، وفيها أهلها من الجن، فى مقاله الربع الخراب من الأرض، وبه حصون، وفيه قصور على وجه الماء طافية ثم تغيب وتظهر فيه الصور العجيبة، والأشكال الغريبة ثم تغيب فى الماء، وفيه الأصنام التى وضعها أبرهة ذو المنار الحميرى قائمة على وجه البحر، وهى ثلاثة أصنام أحدها أخضر وهو يومئ بيده كأنه يخاطب من ركب البحر يأمره بالرجوع، والصنم الثانى أحمر كأنه يشير إلى نفسه ويخاطب من ركب هذا البحر أن يقف عنده ولا يجاوزه، والصنم الثالث أبيض كأنه يومئ بإصبعه إلى البحر من جاء وجاوز هذا المكان هلك، وعلى صدر كل صنم مكتوب بالأسود هذا ما وضعه أبرهة ذو المنار الحميرى لسيدته الشمس تقريباً إليها..».

ويشير الخبر السابق عن هذا البحر إلى:

تصورات الرحالة عنه، وما حاكه خيالهم من اختلاق الروايات والأخبار الأسطورية كعرش إبليس ومدائن الجن، والحصون والقصور التى تظهر وتختفى.. إلخ.

تذكرنا الأصنام الثلاثة التى وضعها أبرهة ذو المنار فى البحر بالتماثيل النحاسية العجيبة التى كان رحالة ألف ليلة ـ ومنهم سندباد البحرى ـ يذكرونها فى رحلاتهم.

كانت دولة حمير وملوكها ـ ومنهم أبرهة ذو المنار ـ يعبدون الشمس كإله تنتشر عبادته فى اليمن القديمة حتى حدود الشام.

وإذا كانت كتب الرحالة والمستكشفين الجغرافيين قد أتت، من خلال الخيال الشعبى بالأعاجيب والأساطير فإننا نلمح إلى مواقف كثيرة تبادلت التأثير والتأثر مع حكايات ألف ليلة وظهر ذلك جلياً فى تصوير هؤلاء الرحالة وذكرهم لسكان الجزر التى مروا بها أو تخلفوا فيها فى المحيطات والبحار، بل أننا نجد مسميات هذه الجزر الواردة توحى بما سبق مثل (جزيرة السعالى) و(جزيرة التنين) و(جزيرة واق واق) و(جزيرة سرنديب) وغيرها.

وفى بحر فارس جزر لا تقل غرابة عن جزر المحيط مثل (جزيرة القاس) و(الطوبران) و(الدهلان) وغيرها.

وفى بحر الزنج أو الهند جزيرة (سكسار).

ونتوقف عند بعض الجزر التى ورد اسمها وصفات سكانها بما يتطابق مع ما ورد فى رحلات سندباد البحرى وما ورد فى بعض حكايات ألف ليلة الأخرى ونحن نورد بعضها كنماذج تحقق الهدف منها عن هذه الجزر.

جزيرة واق واق

وهى إحدى جزر المحيط، وترتبط بها عدة جزر أخرى منها (جزيرة البنان) و«.. بها قوم عراة الأبدان، بيض الألوان، حسان الصور، يأوون إلى رؤوس الأشجار، ويتصيدون الناس فيأكلونهم..» وملكة هذه الجزائر امرأة تسمى (دمهرة) وتلبس حلة منسوجة بالذهب، ولها نعلان من ذهب، وليس يمشى فى هذه الجزائر أحد بنعل غيرها، ومتى لبس غيرها نعلا قطعت رجليه، وتركب فى عبيدها وجيوشها بالفيلة والرايات، والطبول والأبواق والجوارى الحسان..».

ويضيف أحد الرحالة.. كشاهد عيان، مشاهد أخرى عنها فيقول: «دخلت على هذه الملكة فرأيتها عريانة على سرير من الذهب، وعلى رأسها تاج من الذهب، وبين يديها أربعة آلاف وصيفة أبكار حسان.

وهن على مذهب المجوس، وهن مكشوفات..».

وفى هذه الجزيرة نوع من الشجر. تحمل ثمراً كالنساء بصور وأجسام وعيون وأيد، وأرجل، وشعور، وأثداء وفروج كفروج النساء، وهن أحسن الوجوه، وهن معلقات بشعورهن يخرجن من غلف كالأجرية الكبار، فإذا أحسن بالهواء والشمس يصحن (وقا واق) حتى تتقطع شعورهن، فإذا انقطعت ماتت وأهل هذه الجزيرة يفهمون هذا الصوت، ويتطيرون منه.

وفى جزيرة أخرى من جزر واق واق نساء يخرجن من الأشجار أعظم منهن قدوداً وأطول منهن شعوراً، وأكمل محاسن، وأحسن إعجازاً وفروجاً.. ولهن رائحة عطرة طيبة، فإذا انقطعت شعورها ووقعت من الشجرة عاشت يوماً أو بعض يوم، وربما جامعها من يقطعها أو يحضر قطعها فيجد لها لذة عظيمة لا توجد فى النساء.

جزيرة الرخ

وتتطابق بعض روايات الرحالة مع حكايات ورحلات السندباد البحرى السبعة فى ألف ليلة، ومنها حكايته مع طائر الرخ الخرافى.

فقد جاء على لسان أحد الرحالة «.. أنه سافر فى بحر الصين، فألقتهم الريح فى جزيرة عظيمة كبيرة واسعة، فخرج إليها أهل السفينة ليأخذوا الماء والحطب ومعهم القوس والحبال والقرب، وهو معهم، فرأوا فى الجزيرة قبة عظيمة بيضاء لماعة براقة أعلى من مائة ذراع، فقصدوها ودنوا منها فإذا هى بيضة الرخ، فجلعوا يضربونها بالقوس والصخور والخشب حتى انشقت عن فرخ كأنه جبل راسخ، فتعلقوا بريشة من جناحه واجتذبوها فنتفت تلك الريشة من أصل جناحه، ولم تكمل خلقه الريشة، فقتلوه، قال: وحملوا ما أمكنهم من لحمه، وقطعوا أصل الريشة من حد القصبة ورحلوا، وكان بعض من دخل الجزيرة قد طبخ من اللحم وأكل، وكان فيهم مشايخ بيض اللحى، فلما أصبح المشايخ وجدوا لحاهم قد اسودت، ولم يشب بعد ذلك أحد من القوم الذين أكلوا فكانوا يقولون

إن العود الذى حركوا به ما فى القدر من لحم فرخ الرخ كان من شجرة الشباب والله أعلم.

قال: فلما طلعت الشمس والقوم فى السفينة، وهى سائرة بهم إذ أقبل الرخ يهوى كالسحابة العظيمة، وفى رجليه قطعة من جبل كالبيت العظيم وأكبر من السفينة، فلما حاذى السفينة من الجو، ألقى ذلك الحجر عليها وعلى من بها، وكانت السفينة مسرعة فى الجرى، فسبقت الحجر، فوقع الحجر فى البحر، وكان لوقوعه هول عظيم فى البحر، وكتب الله لنا السلامة، ونجاها من الهلاك».

جزيرة سكسار

وما ورد من روايات حول جزر واق واق وجزيرة الرخ يدفعنا إلى المقارنة بينها وبين حكايات ألف ليلة فنلاحظ:

١- مسميات الجزير تتفق مع ما أورده ابن الوردى وألف ليلة كجزر واق والرخ

٢- تتفق الروايات بينهما فى التفاصيل وتطور الحدث مع اختلاف بسيط فى بعض الجزئيات أو النهائيات.. فالحكاية التى دارت حول جزيرة الرخ تنتهى رواية ابن الوردى بنجاة البحارة من حجر الرخ الضخم، بينما تنتهى حكاية سندباد بوقوع الحجر فوق السفينة وتحطمها وتعلق سندباد بلوح من ألواحها فنجا بذلك.

٣- يتبادر سؤال مثار حول هذه الحكايات: أيهما أسبق فى تسجيل هذه الروايات والحكايات وإيرادها: ابن الوردى أم القزوينى أم ألف ليلة؟ ويصعب على أى باحث أن يجيب إجابة قاطعة محققة على السؤال السابق لاحتياجه إلى البحث التاريخى المحقق.

وينطبق ما سبق على ما ورد من روايات وحكايات عن سكان جزيرة (سكسار) أو (فى إحدى جزر الزنج أو الهند.. فهم (قوم لا عظام لأرجلهم وسيقانهم».

ثم ينقل ابن الوردى عن ابن اسحق رواية تكشف عن المخاطر التى تعرض لها كل من وقع من الرحالة والمسافرين بين أيدى سكان هذه الجزيرة.

يقول ابن اسحق: «.. لقيت رجلاً فى وجهه خموش كثيرة، فسألته عنها، فقال «.. كنت فى بحر الزنة مع جماعة، فألقتنا الريح إلى جزيرة (سكسار) فلم نستطع أن نخرج منها لشدة الريح، فأتانا قوم وجوههم وجوه الكلاب وأبدانهم أبدان الناس.. فسيق إلينا واحد منهم بعصا كانت معه، ووقف جماعة من ورائنا فساقونا إلى منازلهم، فرأينا فيها جماعة وتحوفاً، وسوقاً وأذرعاً وأضلعاً كثيرة، فأدخلونا بيتاً فيه إنسان ضعيف، وجعلوا يأتونا بأكل كثير وطعام غزير، وفواكه طيبة، فقال لنا ذلك الرجل الضعيف: إنما يطعمونكم لتسمنوا، وكل من سمن أكلوه، فجعلت أقلل أكلى دون أصحابى، وصار كلما سمن واحد ذهبوا به وأكلوه حتى بقيت وحدى وذلك الرجل الضعيف..». ونجح ذلك الرجل فى الهرب منهم، وسار فى الجزيرة - متخفياً - ليل نهار «.. فانتهيت إلى أشجار بها ثمار وفواكه وتحتها رجال حسان الصورة، إلا أنه ليس لسيقانهم عظم، فقلت لا أفهم كلامهم ولا يفهمون كلامى، فلم أشعر إلا وواحد منهم راكب على رقبتى وأكتافى، وطوق برجليه على وأنهضنى، فذهبت به وجعلت أعالجه لأتخلص منه وأطرحه عنى فلم أقدر.. وجعل يخمش وجهى بأظفاره المحددة، فجعلت أدور به على الأشجار وهو يأكل من فواكهها وثمارها، ويطعم أصحابه وهم يضحكون على، فبينما أنا أطوف به بين الأشجار إذ دخلت فى عينيه شوكة من شجرة فانحلت رجلاه عنى فرميته عن رقبتى وسرت فنجانى الله بكرمه، وهذه الخموش منه..».

■ ■ ■

الأساطير الإنسانية

نقصد بالأساطير الإنسانية تلك التى يكون أبطالها من بنى آدم فلا تدخل للجن أو للشياطين أو لأية مخلوقات أخرى بالرمز أو بالتأويل.

ومن هذه الأساطير ما كان أصلها يونانياً أو فارسياً أو هندياً وذلك بحكم الصلات التى كانت بين شبه الجزيرة العربية وبين الأمم الحضارية التى أسلفنا الإشارة إليها، ومع هذا فهناك أساطير إنسانية ذات أصلى عربى خالص، وإن صقلها مؤلفوها بصقال حضارى تظهر فيه رحابة الرؤية وطرافة المعانى ومن هذه الأساطير:

أسطورة الزباء

والزباء امرأة اشتهرت بالدهاء والخبث، كما اشتهرت بالجمال الذى استهوى أمراء شبه الجزيرة العربية، ومن الروايات ما جعلت الزباء عربية ذات نسب عربى أصيل، فقيل إنها ابنة عمرو بن طرب بن حسان بن أذينة بن السميدع بن هوبر، ومن الروايات ما جعلتها رومانية تتكلم العربية.

وكانت الزباء ملكة على الشام والجزيرة (المنطقة المحصورة بين دجلة والفرات) ولثروتها وجمالها وقوة دولتها؛ فقد تقدم لخطبتها كثيرون من أمراء العرب، ومنهم جذيمة الأبرش، ويبدو أنها لم تكن تستريح إليه لأنها كانت تراه خطراً عليها، ولذلك فأنها عزمت على التخلص منه، فكتبت إليه حين عرض عليها الزواج تقول: «إنى فاعلة، ومثلك من يرغب فيه فإذا شئت فاشخص إلى» فجمع جذيمة أصحابه وعرض عليهم الأمر، فأشار البعض عليه بقبول الدعوة بينما حذره البعض منها، وكان منهم صديقه قصير بن سعدى الذى قال له: «الرأى الرجيح عندى أن تكتب إليها فإن كانت صادقة أقبلت إليك، وإلا لم تقع

فى حبائلها»، ولكن جذيمة اتبع هواه وأصر على السير إليها، فقال قصير بن سعد حين رأى إصراره: «لا يطاع لقصير أمر» فصارت مثلاً.

وانطلق جذيمة إلى مدينة الزباء، وعلى مشارفها رأى جندها الكثيف، فساورته المخاوف وقال: «أى قصير، ما الرأى؟ أشر على» فقال قصير: «إن لقيتك الكتائب فحيتك بتحية الملك وانصرفوا أمامك فالمرأة صادقة وإن هم أخذوا بجنبيك ووقفوا دونك فالقوم منعطفون عليك فيما بينهم وبين جنودهم، فاركب العصا» (فرس كانت إلى جانبه) فإنها لا تدرك ولا تسبق» فلما رأى قصير أن الجند قد أحاطوا به ركب هو «العصا» ونجا بنفسه، وأخذ الجنود جذيمة وأدخلوه على الزباء التى استقبلته بسخرية خبيثة، وأمرت جندها فأجلسوه على كرسى كانت قد أعددته له، ثم طعنته بسيفها فقطعت عروق ساقه اليسرى، وظل دمه ينزف وتتلقاه هى فى طست من الذهب، وقالت له فى تهكم - وهو فى سكرات الموت: «أى جذيمة لا تضيعن من دمك شيئاً فإنى إنما بعثت إليك لأنى بلغنى أن دمك شفاء من الخبل» فقال جذيمة: «وما يحزنك من دم أضاعه أهله؟» ومات.

أما قصير فإنه لما ذهب إلى قومه، أورد الخبر على عمرو بن عبدالجن التنوخى، بالحيرة؛ وقال له: «اطلب بثأر ابن عمك وإلا سبتك العرب» فلم يعبأ عمرو بما حدث، فذهب قصير إلى عمرو بن عدى، خال جذيمة فطلب منه مثلما طلب من عمرو بن عبدالجن، فقال عمرو بن عدى: «وكيف لنا بها وهى أمنع من عقاب الجو؟ فقال قصير: «أما إذا أبيت فإنى جادع أنفى وأذنى، ومحتال لقتلها جهدى؛ فأعنى وخلاك ذم» فقال له عمرو: «أنت أبصر وعلىّ معونتك» فجدع أنفه، فقيل: لأمر ما جدع قصير أنفه، وصارت مثلاً.

وأخيراً: تمكن قصير من الدخول على الزباء، فقالت له حين فوجئت به: من أنت؟ فقال: أنا قصير، لا ورب المشارف والمغارب ما كان على وجه الأرض بشر كان أنصح لجذيمة ولا أغش لك منى حتى جدع عمرو بن عدى أنفى وأذنى، فعرفت أنى لا أكون مع أحد هو أثقل عليه منى معك.. فقالت: أى قصير، نقبل

منزلتك، ونصرفك فى بضائعنا فكان أن اتجر بمالها، ولكى يبرهن لها على أمانته وحنكته فى التجارة، وأنه يستطيع أن يكسب من المال ما لا تتوقعه، فإن عمرو بن عدى أمده بالمال الذى يجعلها تثق فيه وفى سداد رأيه.

وفى يوم قال لها: إنه ليس من ملك إلا وهم يتخذون فى مدائنهم أنقاباً (أنفاقا)، تكون لهم عددا (أى يهربون منها عند الهجوم عليها)، فقالت له: أما إنى قد فعلت ذلك.. فقد نقبت سرداباً وبنيته من تحت سريرى هنا، حتى أخرج من تحت الفرات إلى سرير أختى رحيلة.. ثم خرج قصير بعد أن أوهمها بأنه ذاهب ى رحلة تجارية جديدة ثم قصد عمرو بن عدى وأطلعه على سر الزباء، فركب عمرو فى ألف رجل على بعير فى جوالق، فلما أشرفت القافلة على قصر الزباء، سبقها قصير إلى الزباء؛ وقال لها: اصعدى حائط مدينتك وانظرى إلى مالك، وتقدمى إلى بوابك فلا يتعرض لشىء من أموالنا؛ فأنى قد جئت بمال صامت.

ولما كانت تأمنه وتثق فى قوله، فإنها صعدت وفعلت ما أمرها به، فلما شاهدت الجمال وهى تمشى متثاقلة قالت:

ما للجمال مشيها وئيداً   أجنداً يحملن أم حديداً؟

أم صرفاناً بارداً شديداً   أم الرجال جُثَّماً قعوداً؟

ودخلت الجمال المدينة، وكانت سرياً طويلاً؛ مما أضجر حارس البوابة فأخرج سيفه وطعن أحد الجوالق، فسمع منه صوتاً؛ فقال: بشتا.. بشتا وهى باللغة النبطية: فى الجوالق شر.

وخرج الرجال من الجوالق كالمرد يقتلون، ويدمرون، ويحرقون ويسبون، فلما أن رأت الزباء ما حل بها، حاولت الهرب من النفق، فرأت قصيراً على بابه شاهراً سيفه.. فحاولت الرجوع، فأبصرت عمرو بن عدى يهم لطعنها بسيفة، فمصت خاتمها وكان به سم، فماتت لساعتها وقالت وهى تجود بنفسها: بيدى، لا بيد عمرو، وخربت المدينة وأسر من فيها، ثم ترددت أسطورتها فى شعر

الشعراء وكأنها الأطلال التى تحمل أصداءها الغابرة، فمن قول الشاعر المتلمس:

ومن طلب الأوتار مـا حـز أنفـه	قصيـر ورام الموت بالسيف بيهس
نعـامـة لما صـرع القـوم رهطه	تبين في أثوابه كـيف يلبس

ومن قول الشاعر عدى بن زيد التميمى يصف ذلك المصير:

ألا أيـهـا الملـك المـرجى	ألم تسـمع بخطب الأولينا
دعـا بالبـقـة الأمـراء يومـاً	جـذيمة عـام ينجـوهم ثبـينا
وطاوع أمـرهم وعـصـا قـصـيـراً	وكـان يقـول، لو وقع اليـقـينا
لخطبـتـه التي غـدرت وخـانت	وهـن ذوات غـائلة لحـينا

ولعل كتاب «ألف ليلة وليلة» يمثل الأسطورة العربية الإنسانية على أوسع وأشمل وأعمق ما يكون التمثيل، ونقول أوسع وأشمل؛ لأنها تضم من الأساطير ما ابتدعها أصحابها المجهولون ابتداعاً كاملاً، فكانت صدى للمجتمع الإسلامى على اختلاف مواطنه الحضارية الأصلية، وعلى اختلاف شعوبه فى أقاصيصها الشعبية الموغلة فى القدم، وهى أعمق لأنها تضم كل رموز النفس البشرية فى جموحها وتهورها، وفى تعقلها واتزانها، وفى اغترابها وغرابتها.

ففيها أساطير عن الملوك والأمراء والأميرات، تصف حياتهم وأفكارهم ودنياهم.

وفيها أساطير عن الأغنياء والوجهاء، إلى جانب الأولياء والأتقياء، والشطار والأشرار.

وفيها أساطير عن العاملين الكادحين وراء أرزاقهم وهم يعانون الشظف والحرمان.

وفيها أساطير عن الحيوان والشيطان والعفريت والجان.

وذلك فى أسلوب أصح ما يقال فيه بعد التنقيح والتصحيح أنه ساذج فيه

حلاوة محببة وتلقائية ممتعة وفصاحة رصينة.

ومن أهم ما يميز قصص «ألف ليلة وليلة» أو أساطير «ألف ليلة وليلة» أن الروح الإسلامية واضحة فيها غاية الوضوح؛ إذ تتمثل فيها أخلاق الإسلام ومبادئه وقيمه، كما تتمثل فيها روح الإيمان بالله ورسوله ﷺ وكتبه ورسله، يأتى ذلك على ألسنة شخوص الأساطير سواء أكانوا من بنى الإنسان أم من الجان.

ونسوق تمثيلاً متكاملاً لقصص «ألف ليلة وليلة» جزءاً من أسطورة «الملك قمر الزمان ابن الملك شهرمان» وقد جاءت فى كتابها على النسق التالى:

وفى ليلة ١٩٨

قال (شهر زاد): بلغنى أيها الملك السعيد أنه كان فى قديم الزمان ملك يسمى شهرمان صاحب عسكر وخدم وأعوان إلا أنه كبر سنه ورق عظمه ولم يرزق بولد، فتفكر فى نفسه وحزن وقلق وشكا ذلك لبعض وزرائه، قال: إنى أخاف إذا مت أن يضيع الملك، لأنه ليس لى ولد يتولاه بعدى، فقال له ذلك الوزير: لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً، فتوكل على الله أيها الملك وتوضأ وصل ركعتين، ثم جامع زوجتك لعلك تبلغ مطلوبك، فجامع زوجته، فحملت فى تلك الساعة، ولما كملت أشهرها وضعت ولداً ذكراً كأنه البدر السافر فى الليل العاكر، فسماه قمر الزمان وفرح غاية الفرح وزينوا المدينة سبعة أيام وقت الطبول وأقبلت العشائر وحملته المراضع والدايات وتربى فى العز والدلال، حتى صار له من العمر خمس عشرة سنة، وكان فائقاً فى الحسن والجمال والقد والاعتدال وكان أبوه يحبه ولا يقدر أن يفارقه ليلاً ولا نهاراً، فشكا الملك شهرمان لأحد وزرائه فرط محبته وقال: أيها الوزير إنى خائف على ولدى قمر الزمان من طوارق الدهر والحدثان وأريد أن أزوجه فى حياتى، فقال له الوزير: أعلم أيها الملك أن الزواج من مكارم الأخلاق ولا بأس أن تزوج ولدك فى حياتك، فعند ذلك قال الملك شهرمان: علىّ بولدى قمر الزمان، فحضر وأطرف رأسه إلى الأرض حياءً من أبيه، فقال له أبوه: ياقمر الزمان، أعلم أنى أريد أزوجك وأفرح

بك فى حياتى فقال له: أعلم يا أبى أننى ليس لى فى الزواج أرب، وليست نفسى تميل إلى النساء، لأنى وجدت فى مكرهن كتاباً بالروايات وبكيدهن وردت الآيات وقال الشاعر:

فــإن تســألونى فــإننى ... خــبـيـر بأحـوال النسـاء طبـيب

إذا شـاب رأس المرء أو قل مـاله ... فلـيس لـه في ودهـن نصـيـب

ولما فرغ من شعره قال يا أبى: إن الزواج شىء لا أفعله أبداً، فلما سمع السلطات شهرمان من ولده هذا الكلام اغتم غماً شديداً على عدم مطاوعة ولده قمر الزمان، وأدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفى ليلة ١٩٩

قالت (شهر زاد): بلغنى أيها الملك السعيد أن الملك شهرمان لما سمع من ولده هذا الكلام صار الضياء فى وجهه ظلاماً واغتم على عدم مطاوعة ولده قمر الزمان له، ومن محبته له لم يكرر عليه الكلام فى ذلك، ولم يغضبه بل أقبل عليه وأكرمه ولاطفه بكل ما يجلب المحبة إلى القلب، كل ذلك وقمر الزمان يزداد حسناً وجمالاً وظرفاً ودلالاً، فصبر الملك شهرمان على ولده سنة كاملة حتى صار كامل الفصاحة والملاحة وتهتكت فى حسنه الورى، وصار فتنة للعشاق وروضة للمشتاق، عذب الكلام يخجل فى وجهه بدر التمام، صاحب قد واعتدال، وظرف ودلال، كأنه غصن بان أو قضيب خيزران ينوب خده عن شقائق النعمان، وقده عن غصن البان ظريف الشمائل كما قال فيه القائل:

بدا فـقـالوا تبـارك الله ... جل الذي صـاغـه وسـواه

مليك كل الملاح قـاطبـة ... فكلهم أصـبـحـوا رعـاياه

في ريقـه شـهـدة مـذوبة ... وانعـقـد الدر فى ثـناياه

مكمـلاً بالجـمـال منفـرداً ... كل الورى فى جـمـاله تهـواه

قد كتبت الحسن فوق وجنته ... أشـهـد أن لا مليح إلاه

فلما تكاملت سنة أخرى لقمر الزمان ابن الملك شهرمان دعاه والده إليه وقال له: ياولدى أما تسمع منى، فوقع قمر الزمان على الأرض بين يدى أبيه هيبة واستحيا منه، وقال له: يا أبى كيف لا أسمع منك، وقد أمرنى الله بطاعتك وعدم مخالفتك، فقال له الملك شهرمان: اعلم يا ولدى أنى أريد أن أزوجك وأفرح بك فى حياتى وأسلطنك فى مملكتى قبل مماتى، فلما سمع قمر الزمان عن أبيه هذا الكلام أطرق رأسه ساعة، وبعد ذلك رفع رأسه وقال: يا أبى هذا شىء لا أفعله أبداً ولو سقيت كأس الردى وأنا أعلم أن الله فرض على طاعتك فبحق الله عليك لا تكلفنى أمر الزواج ولا تظن أنى أتزوج طول عمرى لأننى قرأت فى كتب المتقدمين والمتأخرين وعرفت ما جرى لهم من المصائب والآفات بسبب فتن النساء ومكرهن غير المتناهى، وما يحدث عنهن من الدواهى، وما أحسن قول الشاعر:

إن النساء وإن ادعين العفة رمم ... تقلبها النسور الحوّم

فى الليل عندك سرها وحديثها ... وغدا لغيرك ساقها والمعصم

كأن الخان تسكنه وتصبح راحلاً ... فيحل بعدك فيه من لا تعلم

فلما سمع الملك شهرمان من ولده قمر الزمان هذا الكلام وفهم الشعر والنظام لم يرد عليه جواباً من فرط محبته له وزاده من إنعامه وإكرامه، وانفض ذلك المجلس من تلك الساعة، وبعد انفضاض ذلك المجلس طلب الملك شهرمان وزيره واختلى به، وقال: أيها الوزير.. وأدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفى ليلة ٢٠٠

قالت (شهر زاد): بلغنى أيها الملك السعيد أن الملك شهرمان قال له: أيها الوزير قل لى ما الذى أفعله فى قضية ولدى قمر الزمان، فأنى استشرتك فى زواجه قبل أن أسلطنه، فأشرت علىَّ بذلك وأشرت علىَّ أيضا أن أذكر له أمر الزواج فذكرته له، فخالفنى فأشر علىَّ الآن بما تراه حسناً، فقال الوزير: الذى

أشير به عليك الآن أيها الملك أن تصبر عليه سنة أخرى، فإذا أردت أن تكلمه بعدها فى أمر الزواج فلا تكلمه سراً ولكن حدثه فى يوم حكومة ويكون الأمراء والوزراء حاضرين وجميع العساكر واقفين، فإذا اجتمع هؤلاء فأرسل إلى ولدك قمر الزمان فى تلك الساعة وأحضره، فإذا حضر فخاطبه فى أمر الزواج بحضرة جميع الأمراء والوزراء والحُجاب والنواب وأرباب الدولة والعساكر وأصحاب الصولة فإنه يستحيى منهم وما يقدر أن يخالفك بحضرتهم، فلما سمع الملك شهرمان من وزيره هذا الكلام فرح فرحاً شديداً واستصوب رأى الوزير فى ذلك وخلع عليه خلعة سنية فطلب الملك من ابنه أمام الوزراء والأمراء والحُجاب والنواب فرفض الابن بأدب الزواج فصبر الملك شهرمان على ولده قمر الزمان سنة.

وأمام إصرار الابن على عدم الزواج يضطر الأب إلى سجنه بأحد أبراج قلعة عتيقة.. وبينما الابن نائم فى فراشه بالبرج تأتيه الجنية ميمونة.. وهنا..

وفى ليلة ٢٠٥

قالت (شهر زاد): بلغنى أيها الملك السعيد أن اسم تلك الجنية ميمونة ابنة الدمرياط أحد ملوك الجان المشهورين، فلما استمر قمر الزمان نائماً إلى ثلث الليل الأول وطلعت تلك العفريتة من البئر الرومانية وقصدت السماء لاستراق السمع، فلما صارت فى أعلى البئر، وأن نوراً مضيئاً فى البرج على خلاف العادة وكانت العفريتة مقيمة فى ذلك المكان مدة مديدة من السنين، فقالت فى نفسها: أنا ما عهدت هنا شيئاً من ذلك، وتعجبت من هذا الأمر غاية العجب، وخطر ببالها أنه لابد لذلك من سبب، ثم قصدت ناحية ذلك النور، فوجدته خارجاً من القاعة فدخلتها ووجدت الخادم نائماً على بابها، ولما دخلت القاعة وجدت سريراً منصوباً وعليه هيئة إنسان نائم وشمعة مضيئة عند رأسه وفانوس مضىء عند رجليه، فتعجبت العفريتة ميمونة من ذلك النور، وتقدمت إليه قليلاً قليلاً وأرخت أجنحتها، ووقفت على السرير وكشفت الملاءة عن وجهه ونظرت إليه واستمرت باهتة فى حسنه وجماله ساعة زمانية، وقد رأت نور وجهه غالباً على نور

الشمعة، وصار وجهه يتلألأ نوراً وقد غارت عيناه واسودت مقلتاه وأحمر خداه وفتر جفناه وتقوس حاجباه، وفاح مسكه العاطر كما قال فيه الشاعر:

قبلته فاسودت المقل التى هى فتنتى واحمرت الوجنات

يا قلب إن زعم العواذل أنه فى الحسن يوجد مثله قل هاتوا

فلما رأته العفريتة ميمونة بنت الدمرياط سبحت الله، وقالت: تبارك الله أحسن الخالقين، وكانت تلك العفريتة من الجن المؤمنين فاستمرت ساعة وهى تنظر إلى وجه قمر الزمان وتوحد الله وتغبطه على حسنه وجماله، وقالت فى نفسها: والله إنى لا أضره ولا أترك أحداً يؤذيه ومن كل سوء أفديه، فإن هذا الوجه المليح لا يستحق إلا النظر إليه والتسبيح، ولكن كيف هان على أهله حتى نسوه فى هذا المكان الخرب، فلو طلع له أحد من مردتنا فى هذه الساعة لأعطبه.

ثم إن هذه العفريتة مالت إليه وقبلته بين عينيه، وبعد ذلك أرخت الملاءة على وجهه وغطته بها وفتحت أجنحتها وطارت ناحية السماء وطلعت من دور القاعة وصعدت، ولم تزل صاعدة فى الجو إلى أن قربت من سماء الدنيا، وإذا بها سمعت خفق أجنة طائرة فى الهواء فقصدت ناحية تلك الأجنحة، فلما قربت من صاحبها وجدته عفريتاً يقال له: «دهنش» فانقضت عليه انقضاض الباشق، فلما أحس بها «دهنش» وعرف أنها ميمونة بنت ملك الجن، خاف منها، وارتعدت فرائصه واستجار بها وقال لها: أقسم عليك بالاسم الأعظم والطلسم الأكرم المنقوش على خاتم سليمان أن ترفقى بى ولا تؤذينى، فلما سمعت ميمونة من «دهنش» هذا الكلام حن قلبها عليه، وقالت له: إنك أقسمت علىّ بقسم عظيم ولكن لا أعتقك حتى تخبرنى من أين مجيئك فى هذه الساعة، فقال لها: أيتها السيدة اعلمى أن مجيئى من آخر بلاد الصين ومن داخل الجزائر، وأخبرك بأعجوبة رأيتها فى هذه الليلة، فإن وجدت كلامى صحيحاً... وأدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفى ليلة ٢٠٦

قالت (شهر زاد): بلغنى أيها الملك السعيد أن الجنى قال للجنية: فإن وجدت كلامى صحيحاً فاتركينى أروح إلى حال سبيلى واكتبى لى بخطك فى هذه الساعة أنى عتيقك، حتى لا يعارضنى أحد من أرهاط الجن الطيارة العلوية والسفلية والغواصة، قالت له ميمونة: فما الذى رأيته فى هذا يا«دهنش»؟ فأخبرنى ولا تكذب على وتريد بكذبك أن تتفلت من يدى، وأنا أقسم بحق النقش المكتوب علىّ فص خاتم سليمان بن داود عليهما السلام إن لم يكن كلامك صحيحاً نتفت ريشك بيدى ومزقت جلدك وكسرت عظمك، فقال لها العفريت «دهنش بن شمهورش الطيار»: إن لم يكن كلامى صحيحاً فافعلى بى ما شئت ياسيدتى، وأدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

وفى ليلة ٢٠٧

قال: بلغنى أيها الملك السعيد أن «دهنشاً» قال: خرجت فى هذه الليلة من الجزائر الداخلة فى بلاد الصين وهى بلاد الخيور صاحب الجزائر والبحور والسبعة قصور، فرأيت لذلك الملك بنتاً لم يخلق فى زمانها أحسن ولا أعرف كيف أصفها لك ويعجز لسانى عن وصفها كما ينبغى، ولكنى أذكر لك شيئاً من صفاتها على سبيل التقريب، أما شعرها فكليالى الهجر وأما وجهها فكأيام الوصال وقد أحسن فى وصفها من قال:

نشرت ثلاث ذوائب من شعرها	فى ليلة فأرت ليالى أربعاً
واستقبلت قمر السماء بوجهها	فأرتنى القمرين فى وقت معاً

ثم صار كل منهما يطنب فى حسن صاحبه ويحتج له، ثم قال العفريت «دهنش» للعفريتة ميمونة (ليلة ٢١١): محبوبتى بدور أحسن من محبوبك.

فقالت له: كذبت يا ملعون بل معشوقى أحسن من معشوقتك، ثم أنهما لم يزالا يعارضان بعضهما فى الكلام، حتى صرخت ميمونة على «دهنش» وأرادت أن تبطش به فذل لها ورقق كلامه، وقال: لا يصعب عليك الحق، فأبطلى قولك

وقولى فإن كلاً منا يشهد لمعشوقه أنه أحسن فتعرض عن كلام كل واحد منا ونطلب من يفصل الحكم بيننا بالإنصاف ونعتمد على قوله، فقالت له ميمونة: وهو كذلك، ثم ضربت الأرض برجلها فطلع لها من الأرض عفريت أعور أجرب عيناه مشقوقتان فى وجهه بالطول وفى رأسه سبعة قرون وله أربع ذوائب من الشعر مسترسلة إلى الأرض، ويداه مثل يدى القطرب له أظفار كأظفار الأسد ورجلان كرجلى الفيل وحوافر كحوافر الحمار، فلما طلع ذلك العفريت ورأى ميمونة قبل الأرض بين يديها وقال لها: ما حاجتك ياسيدتى يابنت الملك؟ فقالت: يا«قشقش»، إنى أريد أن تحكم بينى وبين هذا الملعون «دهنش»، ثم أخبرته بالقصة من أولها إلى آخرها، فعندما نظر العفريت «قشقش» إلى وجه ذلك الصبى ووجه تلك الصبية فرآهما متعانقين وهما نائمان، ومعصم كل منهما تحت عنق الآخر، وهما فى الحسن والجمال متشابهان وفى الملاحة متساويات، فنظر وتعجب المارد «قشقش» من حسنهما وجمالهما، والتفت إلى «ميمونة» و«دهنش»، وقال لهما: والله ما فيهما أحد أحسن من الآخر، ولا دون الآخر بل هما أشبه الناس ببعضهما فى الحسن والجمال والبهجة والكمال ولا يفرق بينهما إلا بالتذكير والتأنيث، وعندى حكم آخر وهو أن ننبه كل واحد منهما من غير علم الآخر، وكل من التهب على رفيقه فهو دونه فى الحسن والجمال، فقالت «ميمونة»: نعم هذا الرأى الذى قلته فأنا رضيته، وقال «دهنش»: وأنا أيضا رضيته، فعند ذلك انقلب «دهنش» فى صورة برغوث ولدغ قمر الزمان، وأدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح..

وعلى هذا الغرار تتطور الأحداث حتى يقع الشاب والشابة كل منهما فى هوى الآخر وتنشأ قصة حب.. وتتطور الأحداث.. وتمتد الأسطورة.

تمثل أسطورة «قمر الزمان ابن الملك شهرمان» جانباً من جوانب الأساطير أحدث صبغة وأوسع خيالاً وأكثر رمزية فى المعانى الاجتماعية والأخلاقية، وأدق تفصيلاً فى المسميات من حيث الزمان والمكان والشخوص المشتركة فيها فالطبيعة الاجتماعية التى تعيشها الطبقة الحاكمة ومن يظاهرونها من رجال

البلاط والنبلاء هى طبيعة الترف والنعيم والرخاء الساجى، فلا مشقة فى تدبير سياسة الدولة والحكم ورعاية مصالح الطبقات الكادحة.. ولا فصل فى شكاوى تقدم بها صاحبها انتصافاً من ظلوم أجحف بحقه، فهو لا يرعى حقاً ولا يعرف عدلاً ولا يقر بعرف، ولا دراسة اقتصادية تجارية أو زراعية أو صناعية تؤرق الملكة أو تؤرق الناس وتنذرهم بالبؤس والشقاء والحرمان.

لا شىء من ذلك كله، إنما هو بيت ملك ألقت إليه الدنيا بمقاليدها وأسلم إليه الزمان أمره فأخلد الناس إليه إخلاد الأمن والأمان، أو إخلاد الخوف من البطش فآثروا سلامة التسليم والإدغان، فالملك خائف مرتاع على ملكه لا فى حاضره فحسب، بل وفى غده ومستقبله، ولذلك فهو يعرض على ابنه الوحيد «قمر الزمان» أن يتزوج عله ينجب له من الأحفاد ما يحفظ به المُلك فى بيته، وسواء أكان ذلك عن أنانية أم كان عن طبيعة الفطرة البشرية التى تنشد الخلود، وذلك ما تؤكده الأسطورة فى كل أطوارها ومراحلها؛ فإنه - أى الملك - لم يكف عن عرض الزواج على ابنه مرات ومرات، والولد أو الأمير الجميل يرفض ويرفض فى إصرار وعناد وكأن مازالت به طبيعة الأطفال فى الحران؛ لأنه يرفض عن دروس تعلمها من الأدب وأشعار لقنها من معلميه لا عن تجربة أو خبرة سبقت له مع النساء، أو لمسها عند غيره من الرجال الذين اكتووا بمكائد النساء وغدرهن وتقلبهن، فها هنا من غرارة فى السجية والفطرة لم يصطرع صاحبها بالمشكلات بعد أو لم يجرب صروف الزمان بعد.

والأسطورة فى تعبيرها الرمزى ودلالتها الفلسفية تحاول أن تصور رخاء الملك والنعيم المقيم والترف الفخيم الذى يعيش فيه الملك وأهله، بصورة الأمير قمر الزمان فى جماله الزاهى الفاتن، فهى تضفى عليه من مظاهر الفتنة الجمالية فى الخلق والصورة، ما لا يوصف به إلا الحسان من الفتيات لا الفتيان، ويصور ذلك افتتان الجنية ميمونة بجماله وبهائه، وأنه عندما تخاصمت مع الجنى «دهنش» لما يستطيعا أن يفرقا بين جماله وجمال الحسناء بدور التى جاء بها «دهنش» من عند أهلها وأرقدها إلى جواره.. فقد وصفته الأسطورة بأنه

«كامل الفصاحة والملاحة، وتهتكت فى حسنه الوردى وصار فتنة للعشاق وروضة للمشتاق، عذب الكلام، كأنه غصن بان، أو قضيب خيزران، ينوب خده عن شقائق النعمان، وقده عن غصن البان، ظريف الشمائل».

وربما كان الشعر أمعن فى الإسراف فى وصفه بخصائص الجمال والملاحة التى لا يوصف بها سوى النساء.. فقد جاء:

بدا فقالوا تبارك الله	جل الذى صاغه وسواه
مليك كل الملاح قاطبة	فكلهم أصبحوا رعاياه
في ريقه شهدة مذوبة	وانعقد الدر فى ثناياه
مكملاً بالجمال منفرداً	كل الورى فى جماله تهواه
قد كتب الحسن فوق وجنته	أشهد أن لا مليح إلاه

ومن السمات الإسلامية التى ظهرت فى خوف الملك على ملكه أن يقول لوزيره: «إنى أخاف إذا مت أن يضيع المُلك؛ لأنه ليس لى ولد يتولاه بعدى، فقال له الوزير: «لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً» وهذا معنى قرآنى.. ثم يقول: «توكل على الله أيها الملك، وتوضأ وصل ركعتين، ثم جامع زوجتك لعلك تبلغ مطلوبك» وهذا خلق إسلامى.

أما خوف الملك على ملكه وخلود ذكره، لا ذكر شعبه، يتمثل ذلك فى قوله لوزيره: «إنى أخاف على ولدى قمر الزمان من طوارق الدهر والحدثان، وأريد أن أزوجه فى حياتى، وحين يعرض الملك على ولده أمر الزواج - كما أشرنا من قبل - فإنه يأباه إباءً مترفاً كذلك؛ إذ يصدر إباؤه فى خفر وحياء جم كحياء العذراء وربما أشد، كل ذلك يظهر على مشهد من قادة الجيش وكبار الوجهاء والأعيان الذين لا تذكر الأسطورة منهم أحداً، وكأنها لا تريد منا ألا نعرف سوى الأمير ومشكلة مستقبل المملكة.

وفى تطور ساذج اقتضاه منطق الأسطورة أن اضطر الملك إلى أن يزج بابنه

فى السجن كنصيحة من وزيره، وكان السجن حجرة فى إحدى القلاع المهجورة، ثم تكثف الأسطورة الأحداث لتنتقل بنا إلى عالم الجن ولتخلق الجو التراجيدى الذى يتسق ويتكامل مع هذا الموقف الجديد، فقد خرجت الجنية ميمونة من مكمنها فى البئر الرومانية الموجودة بالقلعة لترى الأمير قمر الزمان وهو نائم فى سريره فيدهشها جماله، ثم تتصل الأحداث الدرامية لتبقى الأسطورة محتفظة بجو النبالة الملكية فى عالم يختلف عن عالم الإنسان وهو عالم الجن والعفاريت والشياطين.. فالجنية ميمونة ليست من رعاع الجن ولا سوقته ولا حتى من طبقته البرجوازية، إن وجدت بين الجن ثم طبقة برجوازية!! فميمونة هى ابنة الدمرياط ملك الجن، وفضلاً عن هذا فهى مسلمة مؤمنة بالله ولذلك مغزى جميل ودقيق فى أن يظل الأمير النائم محتفظاً بحياته وسلامته، وحتى يمكن أن تستمر أحداث الأسطورة وتتفجر بالغريب العجيب، فقد قالت عندما شاهدته نائماً: «تبارك الله أحسن الخالقين، والله إنى لا أضره ولا أترك أحداً يؤذيه ومن كل سوء أفديه، فإن هذا الوجه المليح لا يستحق إلا النظر إليه والتسبيح».

فميمونة تمثل هنا رسول الخير والسلام والأمان؛ ولذلك فإنها ما كادت تلتقى برمز الشر العفريت «دهنش» حتى تهدده وتنذره، ولذلك فإن الشر سرعان ما يختفى أمام وطأة الخير وقوته الإيمانية؛ فتقول الأسطورة: «فلما أحس بها «دهنش» وعرف أنها ميمونة بنت ملك الجن خاف منها وارتعدت فرئاصه واستجار بها وقال لها: «أقسم عليك بالاسم الأعظم والطلسم الأكرم المنقوش على خاتم سليمان أن تفرقى بى ولا تؤذينى» وهنا يأتى «دهنش» بمدد جديد يثرى الأسطورة، فيقول عن البلد التى جاء فيها: «أيتها السيدة اعلمى أن مجيئى من آخر بلاد الصين ومن داخل الجزائر وأخبرك بأعجوبة رأيتها فى هذه الليلة، فإن وجدت كلامى صحيحاً فاتركينى أذهب إلى حال سبيلى واكتبى لى بخطك هذه الساعة أنى عتيقك، حتى لا يعارضنى أحد من أرهاط الجن الطيارة العلوية والسفلية والغواصة» ثم يأخذ على نفسه العهد الأسطورى بعد أن هددته بالقسم الأسطورى بقولها:

«وأنا أقسم بحق النقش المكتوب على فص خاتم سليمان بن داود عليهما السلام إن لم يكن كلامك صحيحاً نتفت ريشك بيدى، ومزقت جلدك وكسرت عظمك» فقالت لها العفريت «دهنش بن شمهورش الطيار»: «إن لم يكن كلامى صحيحاً فافعلى بى ما شئت ياسيدتى؟.

وهنا قد يتساءل المرء: من أى شىء كانت طبيعة الجن والعفاريت؟ هل هم من جلد وعظم ولحم ودم كبنى آدم ولهم ريش كالطيور؟ أم أن لهم جلداً خاصاً وعظماً خاصاً وريشاً خاصاً يتفق والطبيعة النارية التى خلقوا منها؟ يجوز فعالم الأساطير مما لا ينبغى أن نحاسب فيه على كل كبيرة وصغيرة.. فحسبنا جاذبية الأحداث والشخوص وأطوار القضية التى تجسدها حكاية لنا ورواية.

ويختلف الرمزان الخالدان الخير ممثلاً فى الجنية ميمونة، والشر ممثلاً فى الجنى «دهنش بن شمهورش».. فيشتد بينهما الخلاف حول المعشوق والمعشوقة أو حول الأمير والأميرة، أيها أجمل وأملح.. وما كان من ميمونة إلا أن رأت ضرورة أن يحكم بينها جنى بالعدل. «ثم ضربت الأرض برجلها فطلع لها من الأرض عفريت أعور، أجرب، عيناه مشقوقتان فى وجه بالطول، وفى رأسه سبعة قرون، وله أربع ذوائب من الشعر مسترسلة إلى الأرض ويداه مثل يدى القطرب، له أظفار كأظفار الأسد، ورجلان كرجلى الفيل، وحوافز كحوافز الحمار».

وهنا قد يتساءل المرء: لماذا استعانت ميمونة - رمز الخير - بذلك الجنى البشيع فى شكله وهيئته ومنظره؟ لقد استعملت الأسطورة كل ما يمكن من ملامح البشاعة المخيفة المرعبة لتكوين صورة العفريت «قشقش»، فهى من ثم ترمز إلى أن الخير وإن استعان بالعدل لتأكيد حقه ولتوضيح حجته؛ إلا أنه لابد له من قوة مخيفة تخيف العدو وترهبه وتستطيع أن توقع به الهزيمة ويقترح الحكم «قشقش» بأن يترك الجميل والجميلة نائمين حتى إذا استيقظا ورأى كل منهما الآخر فإن الذى سيكون أقل جمالاً هو الذى سيتجه إلى من هو أجمل منه.. وهذا حل ساذج لا فلسفة فيه بغير شك، لكن كيف السبيل إلى إيقاظهما؟

لابد من حـيلة أسطورية، ويتـفـتق ذهن «دهنش» عن حل أسطورى سـاذج؛ فـهـو يتـحول إلى برغوث ويلدغ قمـر الزمـان، فـيصـحو، ويرى الأمـيرة إلى جانبه.. ثم تصحو.. وتتطور الأسطورة.

ومن الملاحظ فى هـذه الأسطورة أن جـو السـلام هو السـائد الشـائع بين شخوصها وإن طاف بها طائف من العنف فى بعض المواقف.

ونلاحظ كذلك أن الشر، دائب الحيلة على الإيقاع بالخير، وأن الخـير دائب الحـيلة على هزيمـة الشـر.. ونلاحظ شـيـئـاً ثالثـاً: مـاذا كـان مـوقف الأم؟ أين مكانتها؟ أين صوتها؟ بل أين قلبها؟ أسئلة كثيرة تثيرها الأسطورة ومع ذلك فإنها لا تفقد طرافتها وسحرها بل سحر عالمها الذى يشوقنا أن نشهده بخيالنا.

■ ■ ■

الأساطير الحيوانية

وتدور الأساطير الحيوانية حول الحيوانات التى كانت موجودة فى شبه الجزيرة العربية؛ أو التى يمكن للخيال أن يخترع أشكالها ويعطيها من الأسماء ما يتفق وغرابة تصوره لها.

فأسطورة الأرنب والثعلب تروى أن الأرانب عثرت على تمرة، غير أن الثعلب استطاع بدهائه أن يسرقها منها ويأكلها، ولم تجد الأرانب بداً من أن تذهب هى والثعلب إلى الضب ليحكم بينهما، فقالت الأرانب: يا أبا الحُسَيل! فقال: سميعاً دعوت، قالت: أتيناك لنحتكم إليك فاخرج إلينا، قال: فى بيته يؤتى الحكم، قالت: إنى وجدت تمرة، قال: حلوة فكليها، قالت: فاختلسها الثعلب من فأكلها، قالت: لنفسه بغى الخير، قالت: فلطمته قال: بحقك أخذت، قالت فلطمنى قال: حر انتصر قالت: فاقض بيننا، قال: حدث الرعناء بحديثين فإن أبت فأربع (أى أمسك وكف).

وتصور هذه الأسطورة القصيرة جانباً من جوانب الطبيعة النفسية والأخلاقية للمجتمع العربى وهو فى بواكير جاهليته، فعمل الإرادة هنا هو الحسم فى مواجهة المشكلات التى تعرض للمرء العربى، فلا موارية ولا مداهنة ولا مجاملة على حساب الواقع المشهود، إذن فقد كان من الضرورى أن يلجأ الفرد فى حل مشكلاته ولاسيما حين تتعلق بحياته ومعيشته إلى حَكَم مشهود له بالحنكة والدراية فى معالجة قضايا مجتمعه، وهذا ما ينهض به شيخ القبيلة وقد رمزت إليه الأسطورة «بالضب» ورمزت الأرانب إلى الصراحة والسذاجة بل واستقامة القصد وهى فى معركتها مع الثعلب رمز المخادعة والتضليل والبغى على حقوق الآخرين، فها هنا من ثم صراع اجتماعى متصل وبناء اجتماعى متصل وتطلع جسور إلى المستقبل، وإن بغى الباغى واجترأ المخادع.

وقبل أن نستطرد فى تصوير الأساطير الحيوانية فإننا نقول: إنه قد كان للعرب فى الجاهلية تصور خاص للنفس أو الروح، وإن كان لا يخرج عن طبيعة التصور الأسطورى: فمن العرب من زعم «أن النفس هى الدم لا غير، وأن الروح الهواء الذى فى باطن جسم المرء نفسه، ولذلك سموا المرأة منه نفساء، لما يخرج منها من الدم.

وقال تأبط شراً لخاله الشنفرى الأكبر وقد سأله عن قتيل قتله: كيف كانت قصته؟ فقال: ألجمته غضباً، فسالت نفسه سكباً».

ثم يورد المسعودى رأياً آخر فى النفس والروح قال به الجاهليون فيقول: «وقالوا: إن الميت لا ينبعث منه الدم ولا يوجد فيه، بدأ فى حال الحياة وطبيعته طبيعة الحياة والنماء مع الحرارة والرطوبة، لأن كل حى فيه حرارة ورطوبة، فإذا مات بقى اليبس والبرد ونفيت الحرارة.

وقال ابن براق من كلمة:

وكم لاقيت ذا نجب شديد	تسيل به النفوس على الصدور
إذا الحرب العوان به استهامت	وحال، فذاك يوم قمطرير

ومن الطيور الأسطورية طائر الهام (المفرد هامة)، وقد تخيل العرب أنها هى نفس الإنسان تملأ جسمه كأنها روحه، فإذا قتل أو مات يظل هذا الطائر يحوم حول قبره ويصرخ صرخات موشحة رعيبة.

قال شاعر جاهلى عن أصحاب الفيل:

سلط الطير والمنون عليهم	فلهم فى صدى المقابر هام

ويزعم المتداولون لهذه الأسطورة من الجاهلين، أن طائر الهام يظل يكبر ويكبر حتى يصير فى شكل البومة وحجمها، ولا يسكن سوى: «الديار المعطلة والنواويس وحيث مصارع القتلى وأجداث الموتى»، حيث تصيح صيحاتها المشؤومة المرعبة، وإذا كانت الهامة هى نفس الميت أو روحه فإنها تظل عيناً له عند أهله

وذويه؛ تخبره بما يقولونه عنه أو يصنعونه بعده، قال الصلت بن أمية لبنيه:

هامتي تخبرني إن تستشعروا فتجنبوا الشنعاء والمكروها

فلما جاء الإسلام الحنيف أبطل هذه الأسطورة وإن كان الأصح أن نقول إنه أبطل الاعتقاد فى هذه الأسطورة؛ فقال ﷺ: «لا هامة ولا صفر»، ومع ذلك فقد بقيت للأسطورة بعض الأصداء عند الشعراء يتمثلون بها كما يتمثل الشعراء المحدثون بأسطورة يونانية أو مصرية، يقول توبة بن الحمير فى ليلى الأخيلية:

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت على ودونى جندل وصفائح

لسلمت تسليم البشاشة أو زقا إليها صدى من جانب القبر صائح

ومن أساطير الهام ما روى عن حاتم الطائى. فقد مر بقبره رجل يكنى أب البخترى ومعه نفر من قومه. فبات أبوالبخترى يناديه: يا أبا الجعد اقْرنا، فقال قومه له: مهلاً، تكلم رمة بالية؟ قال: إن طيناً تزعم أنه لم ينزل به أحد قط إلا قراه، وناموا فلما كان آخر الليل قام أبوالبخترى مذعوراً فزعاً ينادى: وارحلتاه؟ فقال له أصحابه: ما بد لك؟ قال: خرج حاتم من قبره بالسيف وأنا أنظر حتى عقر ناقتى، قالوا له: قد والله قراك، فظلوا يأتلون من لحمها شواء وطبيخاً حتى أصبحوا ثم أرفدوه وانطلقوا سائرين. فإذا راكب بعير يقود آخر قد لحقهم، فقال: أيكم أبوالبخترى؟ فقال أبوالبخترى: أنا ذلك. قال: أنا عدى بن حاتم وأن حاتماً جاءنى الليلة فى النوم ونحن نزول وراء هذا الجبل.

فذكرت شتمك إياه، وأنه قرى أصحابك براحلتك وأنشدنى يقول فى شعره:

أبوالبخترى لأنت امرؤ ظلوم العشيرة شتامها

أتيت بصحبك تبغى القرى لدى حفرة صدحت هامها

أبتغى لى الذم عند المبيت وحولك طى وأنعامها؟

فإنا سنشبع أضيافنا ونأتى المطى فنعتاقها

وقد أمرنى أن أحملك على بعير مكان راحتلك فدونكه».

ولقد كان لهذه الأسطورة صداها الواسع بين العرب فذكرها سالم بن زرارة العطفانى فى مدحه عدى بن حاتم، وذلك حيث يقول:

أبوك أبو سفانة الخير لم يزل ... لأن شب حتى مات فى الخير راغباً

به تضرب الأمثال فى الشعر ميتاً ... وكان له إذ ذاك حيا مصاحباً

قرى قبره الأضياف إذ نزلوا به ... ولم يقر قبر قبله الدهر راكباً

ومن الحيوانات الأسطورية حيوان «الغول»؛ وقد نسجت حولها أقاصيص وأساطير كثيرة حفلت بها كتب الأدب العربى، وقد عمل المسعودى فى كتابه «مروج الذهب»، على أن يؤكد وجود حيوان «الغول» مستنداً إلى بعض ما راج عن فلاسفة اليونان والهنود، فهو يقول: «حكى[1] بعض المتفلسفين أن الغول حيوان شاذ من جنس الحيوان، مشوه لم تحكمه الطبيعة، وأنه لما خرج منفرداً فى نفسه وهيئته توحش من مسكنه فطلب القفار، وهو يناسب الإنسان والحيوان البهيمى فى الشكل».

أما الهنود فإن منهم طائفة، كما يقول المسعودى، تزعم أن ظهور حيوان الغول يرجع إلى تأثير بعض الكواكب مثل كوكب الشعرى العبور فيمسخ بعض صور الحيوانات كالكلاب والغنم والذئب، يقول المسعودى: «وحامل[2] رأس الغول يحدث عند طلوعه تماثيل وأشخاصاً تظهر فى الصحارى وغيرها من العامر والخراب فتسميه عوام الناس غولاً، وهى ثمانية وأربعون كوكباً»، وقد جاء وصف الغول فى كتابات أبى معشر، فى كتابه المعروف «المدخل الكبير إلى علم النجوم»، والمعتقد الشائع عند سواء الناس هو أن: «الغول[3] اسم لكل شىء يعرض للسفار ويتمثل فى ضروب من الصور، ذكراً كان أو أنثى، إلا أن أكثر كلامهم عن الإناث».

(١) كتاب: «مروج الذهب ومعادن الجوهر»، تأليف المسعودى، تحقيق: محمد محيى الدين عبدالحميد، كتاب التحرير سنة ١٩٦٦، (ص١، ٤).

(٢، ٣) نفس المرجع (ص٢، ٤).

ومن أجل احتيالها على الذين يظهرون لها من بنى آدم، فقد كانت تتظاهر بأنها ترعاهم وتحميهم من غوائل الطريق، شأنها فى ذلك شأن الكلب الأمين، قال أبوالمطراب عبيد بن أيوب العنبرى:

وحــالفني الوحــوش على الوفــاء   وتحت وفــائهن ويا البــعــاد

وغــولاً قــفــرة ذكــراً وأنثى   كــأن عليــمــا قطع النجـــاد

وزعم العرب ـ فيما يزعمون ـ أن الغول تتغول لهم فى الخلوات وتظهر لخواصهم فى أنواع من الصور فيخاطبونها، وربما استضافوها وأكرموها

وفى كثير من أشعارهم يأتى ذكر الغول فى أشكالها وأفعالها وأحاديثها؛ قال تأبط شراً:

وأدهم قــد جــبت جلبــابه   كما اجتابت الكاعب الخيعلا

علـى إثـر نـار ينـور بهــــا   فــبت لهــا مــدبراً مــقــبــلاً

فــأصــبــحت والغــول لى جــارة   فــيــا جــارتي أنت مــا أهولا

وطالبــتــهــا.. فــالتــوت   بوجــه تغــول فــاســتــغــولا

فــمن كــان يســأل عن جــارتى   فــإن لهـــا باللهـــوى منزلا

وتصور الأسطورة رجلى الغول بأنهما رجل عنز؛ ولهذا فإن على من كانت تطلع له فى منقطع الطريق وموحشه أن يقول فى وجهها حتى تتصرف عنه:

يا رجل عنز انهــقى نهــيــقــا   لن نتــرك الســبب والطريقــا

فكأنه إذا عيرها بقبح رجليها وقبح صورتها جعلها تستخذى وتخجل فتتوارى مبتعدة عنه.

أما إذا نسى الإنسان الذى تقابله الغول هذا البيت الذى كان يعد تعويذة تحمى من شرها، فإنها كانت تضله عن طريقه فيشرد عن سبيله: «فى بطون الأودية ورؤوس الجبال».. ومرجع هذا فيما تروى الأساطير أن الغول تخادع من

تصادفه بأن تظهر له فى صورة إنسان، ولذلك كان من دأبها أن توقد النيران فى «الليل للعبث والتحيل واختلال السابلة» قال أبوالمطراب:

فلله در الغول أي رفيقة لصاحب قفر خالف وهو معبر

أرنت بلحن بعد لحن وأوقدت حوالى نيرانا تلوح وتزهر

ومن الأساطير الحيوانية تلك الأساطير ذات الأحداث المتامية وهذا ما تميزت به أساطير «ألف ليلة وليلة[1]»، نسوق منها أسطورة «الطاووس».

قالت شهرزاد (فى ليلة ١٧٤) بلغنى أيها الملك السعيد أن كان فى قديم الزمان وسالف العصر والأوان الطاووس يأوى إلى جانب البحر مع أنثاه وكان ذلك الموضع كثير السباع وفيه من سائر الوحوش غير أنه كثير الأشجار والأنهار.

وذلك الطاووس هو وأنثاه يأويان إلى شجرة من تلك الأشجار ليلاً من خوفهما من الوحوش ويغدوان فى طلب الرزق نهاراً، ولم يزالا كذلك حتى كثر خوفهما، فسارا يبغيان موضعاً غير موضعهما يأويان إليه، فبينما هما يفتشان على موضع إذا ظهرت لهما جزيرة كثيرة الأشجار والأنهار، فنزلا فى تلك الجزيرة وأكلا من ثمارها وشربا من أنهارها فبينما هما كذلك، وإذا ببطة أقبلت عليهما وهى فى شدة الفزع ولم تزل تسعى حتى أتت إلى الشجرة التى عليها الطاووس هو وأنثاه فاطمأنت، فلم يشك الطاووس أن تلك البطة لها حكاية عجيبة.

فسألها عن حالها وعن سبب خوفها، فقالت: إننى مريضة من الحزن وسبب خوفى هو من ابن آدم، فالحذر ثم الحذر من بنى آدم، فقال لها الطاووس: لا تخافى حيث وصلت إلينا، فقالت البطة: الحمد لله الذى فرج عنى همى وغمى بقربكما، وقد أتيت راغبة فى مودتكما، فلما فرغت من كلامها نزلت إليها أنثى الطاووس، وقالت لها: أهلاً وسهلاً ومرحباً، لا بأس عليك ومن أين يصل إلينا ابن آدم، ونحن فى هذه الجزيرة التى فى وسط البحر؟ فمن البر لا يقدر أن

(١) كتاب: «ألف ليلة وليلة»، الناشر: دار العودة بيروت - لبنان (ص٤٤٨).

يصل إلينا، ومن البحر لا يمكن أن يطلع علينا، فأبشرى وحدثينا بالذى نزل بك واعتراك من بنى آدم، فقالت البطة: اعلمى أيتها الطاووسة أنى فى هذه الجزيرة طول عمرى آمنة لا أرى مكروهاً، فنمت ليلة من الليالى فرأيت فى منامى صورة ابن آدم وهو يخاطبنى وأخاطبه وسمعته يقول: أيتها البطة احذرى من ابن آدم ولا تغترى بكلامه ولا بما يدخله عليك فإنه كثير الحيل والخداع فالحذر كل الحذر من مكره إنه مخادع ماكر، كما قال الشاعر:

يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب

واعلمى أن ابن آدم يحتال على الحيتان فيخرجها من البحار ويرمى الطير ببندقية من طين ويوقع الفيل بمكره، وابن آدم لا يسلم أحد من شره ولا ينجو منه طير ولا وحش، وقد بلغتك ما سمعته من ابن آدم فاستيقظت من منامى خائفة مرعوبة وأنا إلى الآن ما انشرح صدرى خوفاً على نفسى من ابن آدم لئلا يدهمنى بحيلته ويصيدنى بحبائله، ولم يأت علىَّ آخر النهار إلا وقد ضعفت قوتى وبطلت همتى، ثم أنى اشتقت إلى الأكل والشرب فخرجت أتمشى وخاطرى مكدر وقلبى مقبوض، فلما وصلت إلى الجبل وجدت على باب مغارة شبلاً أصفر اللون، فلما رآنى ذلك الشبل فرح بى فرحاً شديداً وأعجبه لونى وكونى لطيفة الذات، فصاح علىَّ وقال لى: اقتربى منى، فلما قربت منه قال لى: ما اسمك وما جنسك؟ فقلت له: اسمى بطة وأنا من جنس الطيور، ثم قلت له ما سبب قعودك إلى هذا الوقت فى هذا المكان؟ فقال الشبل: سبب ذلك أن والدى الأسد له أيام وهو يحذرنى من ابن آدم، فاتفق أننى رأيت فى هذه الليلة فى منامى صورة ابن آدم، ثم إن الشبل حكى لى نظير ما حكيته لك، فلما سمعت كلامه قلت له: يا أسد، إنى قد لجأت إليك فى أن تقتل ابن آدم وتحزم رأيك فى قتله فإنى أخاف على نفسى منه خوفاً شديداً، وازددت خوفاً على خوفى من خوفك من ابن آدم مع أنك سلطان الوحوش، ومازلت يا أختى أحذر الشبل من ابن آدم ويحذرنى حتى قام من وقته وساعته من المكان الذى كان فيه وتمشى وتمشيت وراءه فرفع بذنبه على ظهره، ولم يزل يمشى وأنا أمشى وراءه إلى الطريق فوجدنا غبرة

طارت، وبعد ذلك انكشفت الغبرة فبان من تحتها حمار شارد عريان، وهو تارة يقمص ويجرى، وتارة يتمرغ، فلما رآه الأسد صاح عليه فأتى إليه خاضعاً فقال له: أيها الحيوان الخريف العقل، ما جنسك وما سبب قدومك إلى هذا المكان؟ فقال: يابن السلطان، أنا جنسى حمار، وسبب قدومى إلى هذا المكان هروبى من ابن آدم، فقال له الشبل: وهل أنت خائف من ابن آدم أن يقتلك؟ فقال الحمار: لا يابن السلطان، وإنما خوفى أن يعمل حيلة علىَّ ويركبنى لأن عنده شيئاً يسميه البردعة فيجعلها على ظهرى، وشيئاً يسميه الحزام فيشده على بطنى، وشيئاً يسميه الطفر فيجعله تحت ذنبى، وشيئاً يسمى اللجام فيجعله فى فمى، ويعمل منخاساً ينخسنى به، ويكلفنى ما لا أطيق من الجرى وإذا عثرت لعننى وإذا نهقت شتمنى، وبعد ذلك إذا كبرت ولم أقدر على الجرى يجعلى لى رجلاً من خشب ويسلمنى إلى السائقين فيحملون الماء على ظهرى من البحر فى القرب ونحوها كالجرار، ولا أزال فى ذل وهوان وتعب حتى أموت فيرمونى فوق التلال للكلاب؛ فأى شىء أكبر من هذا الهم وأى مصيبة أكثر من هذه المصائب، فلما سمعت أيتها الطاووسة كلام الحمار اقشعر جسدى من ابن آدم وقلت للشبل: ياسيد الوحوش، إن الحمار معذور وقد زادنى كلامه رعباً على رعبى، فقال الشبل للحمار: إلى أين سائر؟ فقال له الحمار: إنى نظرت ابن آدم قبل إشراف الشمس من بعيد فقررت الهروب منه، وها أنا أريد أن أنطلق ولم أزل أجرى من شدة خوفى منه فعسى أن أجد لى موضعاً يأوينى من ابن آدم الغدار.

فبينما ذلك الحمار يتحدث مع الشبل ذلك الكلام وهو يريد أن يودعنا ويروح إذ ظهرت لنا غبرة فنهق الحمار ونظر بعينه إلى ناحية الغبرة، وبعد ساعة انكشفت الغبرة عن فرس أدهم بغرة كالدرهم، وذلك الفرس ظريف الغرة مليح التحجيل حسن القوائم والصهيل ولم يزل يجرى حتى وقف بين يدى الشبل ابن الأسد فلما رآه الشبل استعظمه وقال له: ما جنسك أيها الوحش الجليل وما سبب شرودك فى هذا البر العريض الطويل؟ فقال: ياسيد الوحوش، أنا فرس من جنس الخيل، وسبب شرودى هروبى من ابن آدم، فتعجب الشبل من كلام

الفـرس، وقـال: لا تقل هذا الكلام فـإنه عـيب عليك وأنت طويل غليظ، وكـيف تخاف من ابن آدم مع عظم جثتك وسرعة جريك؟ وأنا مع صغر سنى قد عزمت على أن ألتقى مع ابن آدم فأبطش به وآكل لحمه وأسكن روع هذه البطة المسكينة وأقـرها فـى وطنهـا، وهـا أنت لما أتيت فى هـذه السـاعـة قطعت قلبى بكلامك، وأرجعتنى عمـا أردت أن أفعله، فإن كنت أنت مع ضخامتك قد قهرك ابن آدم ولم يخف من طولك وعرضك مع أنك لو رفسته برجلك لقتلته ولم يقدر عليك بل تسقيه كأس الردى، فضحك الفرس لما سمع كلام الشبل، وقال: هيهات أنا أغلبـه يابن الملك فـلا يغـرك طولى وعـرضى، ولا ضـخـامتى مـع ابن آدم؛ لأنه من شـدة حيله ومكره يصنـع لى شـيئـاً يقـال له الشكال، ويضع فى قـوائمى الأربعـة شكالين من حبال الليف الملفوفة باللباد، ويصلبنى من رأسى فى وتد عـال وأبقى واقفاً، وأنا مـصلوب لا أقدر أن أقعد ولا أنام، وإذا أراد أن يركبنى يعمل لى شيئاً يسـمـيـه السـرج، ويشـده بحـزامـين من تحت إبطـى، ويضع فى فـمى شـيـئـاً من الحديد يسميه اللجام، ويضع فيه شيئاً من الجلد يسميه السرع، فإذا ركب فوق ظهـرى على السـرج يمسك السـرع بيـده، ويقـودنى بـالركاب فى خـواصرى حـتى يدميها، ولا تسـأل يـابن السلطان عمـا أقـاسيه من ابن آدم، فإذا كبرت وانتحل ظهرى ولم أقدر علـى سرعة الجرى يبيعنى للطحـان ليدورنـى فـى الطاحون، فـلا أزال دائراً فيها ليلاً ونهاراً إلى أن أهرم فيبيعنى للجزار فيذبحنى ويسلخ جلدى وينتف ذنبى ويبيعهـا للغـرابلى والمناخلى ويسل شـحـمى، فلمـا سمـع الشبل كلام الفـرس ازداد غـيظاً وغـمـاً وقـال له: مـتى فـارقت ابن آدم؟ قـال: فـارقـتـه نصف النهار وهو فى أثرى، فبينما الشبل يتحدث مع الفرس فى هذا الكلام، وإذا بغبرة ثارت وبعد ذلك انكشفت وبان من تحتها جمل هائج وهو يبعبع ويخبط برجليه فى الأرض، ولم يزل يفعل كذلك حتى وصل إلينا، فلمـا رآه الشبـل كبيـراً غليظاً ظن أنه ابن آدم فأراد الوثوب عليه، فقلت له: يابن السلطان هذا ما هو ابن آدم، وإنما هو جمل وكأنه هـارب من ابن آدم، فبينمـا أنا يا أختى مع الشبل فى هذا الكلام وإذا بالجمل تقدم بين يدى الشبل وسلم عليه فرد عليه السـلام، وقال له:

ما سبب مجيئك إلى هذا المكان؟ قال: جئت هارباً من ابن آدم؛ فقال له الشبل: وأنت مع عظم خلقتك وطولك وعرضك، كيف تخاف من ابن آدم ولو رفسته برجلك رفسة لقتلته؟ فقال له الجمل: يابن السلطان، أعلم أن ابن آدم له دواه لا تُطاق وما يغلبه إلا الموت؛ لأنه يضع فى أنفى خيطاً ويسميه خزاماً، ويجعل فى رأسى مقوداً ويسلمنى إلى أصغر أولاده، فيجرنى الولد الصغير بالخيط مع كبرى وعظمى ويحملوننى أثقل الأحمال، ويسافرون بى الأسفار الطوال، ويستعملوننى فى الأشغال الشاقة آناء الليل وأطراف النهار، وإذا كبرت وشخت أو انكسرت فلا يحفظ صحبتى، بل يبيعنى للجزار، فيذبحنى ويبيع جلدى للدباغين ولحمى للطباخين، ولا تسأل عما أقاسى من ابن آدم، فقال له الشبل: فى أى وقت فارقت ابن آدم؟ فقال له: فارقته وقت الغروب وأظنه يأتى عند انصرافى فلا يجدنى فيسعى فى طلبى، فدعنى يابن السلطان حتى أهيج فى البرارى والقفار، فقال الشبل: تمهل قليلاً ياجمل حتى تنظر كيف أفترسه وآكل لحمه وأهشم عظمه وأشرب من دمه، فقال له الجمل: يابن السلطان، أنا خائف عليك منه، فأنه مخادع ماكر، ثم أنشد قول الشاعر:

إذا حل الثقيل بأرض قوم فيا للساكنين سوى الرحيل

فبينما الجمل يتحدث مع الشبل فى هذا الكلام، وإذا بغبرة طلعت وبعد ساعة انكشفت عن شيخ قصير رقيق البشرة على كتفه مقطف فيه عدة نجار وعلى رأسه شعبة وثمانية ألواح وبيده أطفال صغار وهو يهرول فى مشيه ومازال يمشى حتى قرب من الشبل، فلما رأيته يا أختى وقعت من شدة الخوف، وأما الشبل فإنه قام وتمشى إليه ولاقاه، فلما وصل إليه ضحك النجار فى وجهه وقال بلسان فصيح: أيها الملك الجليل صاحب الباع الطويل، أسعد الله مساءك ومسعاك، وزاد فى شجاعتك وقواك، أجرنى مما دهانى وبشره رمانى؛ لأنى ما وجدت لى نصيراً غيرك، ثم إن النجار وقف بين يدى الأسد، وبكى واشتكى، فلما سمع الشبل بكاءه وشكواه قال له: أجرتك مما تخشاه فمن الذى ظلمك، وما تكون أيها الوحش الذى ما رأيت عمرى مثلك، ولا أحسن صورة وأفصح لساناً

منك، فما شأنك؟ فقال له النجار: يا سيد الوحوش، أما أنا فنجار، وأما الذى ظلمنى فهو ابن آدم وفى صباح هذه الليلة يكون عندك فى هذا المكان، فلما سمع الشبل هذا الكلام من النجار تبدل الضياء فى وجهه ظلاماً وشخر ونخر ورمت عيناه بالشرر وصاح وقال: والله لأسهرن فى هذه الليلة إلى الصباح ولا أرجع إلى والدى حتى أبلغ مقصدى، ثم إن الشبل التفت إلى النجار وقال له: أرى خطواتك قصيرة، ولا أقدر أن أكسر بخاطرك لأنى ذو مروءة، وأظن أنك لا تقدر أن تماشى الوحوش فأخبرنى إلى أين تذهب؟ فقال له النجار: اعلم أننى ذاهب إلى وزير والدك الفهد؛ لأنه لما بلغه أن ابن آدم داس هذه الأرض خاف على نفسه خوفاً عظيماً، وأرسل إلىَّ رسولاً من الوحوش لأصنع له بيتاً يسكن فيه ويأوى إليه ليمنع عنه عدوه حتى لا يصل إليه أحد من بنى آدم، فلما جاءنى الرسول أخذت هذه الألواح وتوجهت إليه، فلما سمع الشبل كلام النجار أخذه الحسد من الفهد؛ فقال له: بحياتى، لابد أن تصنع لى هذه الألواح بيتاً قبل أن تصنع للفهد بيته، وإذا فرغت من شغلى فامض إلى الفهد، واصنع له ما يريد، فلما سمع النجار من الشبل هذا الكلام، قال له: يا سيد الوحوش ما أقدر أن أصنع لك شيئاً إلا إذا صنعت للفهد ما يريد، ثم أجىء إلى خدمتك وأصنع لك بيتاً يحصنك من عدوك، فقال له الشبل: والله ما أتركك تروح من هذا المكان حتى تصنع لى هذه الألواح بيتاً، ثم إن الشبل هم على النجار ووثب عليه وأراد أن يمزح معه فلطشه بيده، فرمى المقطف من على كتفه ووقع النجار مغشياً عليه.

فضحك الشبل عليه وقال له: ويلك يا نجار إنك ضعيف وما لك قوة فأنت معذور إذا خفت من ابن آدم، فلما وقع النجار على ظهره اغتاظ غيظاً شديداً ولكنه كتم ذلك عن الشبل من خوفه منه، ثم قعد النجار وضحك فى وجه الشبل وقال له: ها أنا أصنع لك البيت، ثم إن النجار تناول الألواح التى كانت معه وسمر البيت وجعله مثل القالب على مقاس الشبل وخلا بابه مفتوحاً لأنه جعله على صورة صندوق، وفتح له طاقة كبيرة، وجعل لها غطاء، وثقب فيها ثقوباً كثيرة وأخرج منها مسامير مطرقة، وقال للشبل: ادخل وابرك على يديك

ورجليك، ففعل الشبل ذلك ودخل الصندوق وبقى ذنبه خارجاً، ثم أراد الشبل أن يتأخر إلى الوراء ويخرج فقال له النجار: أمهل حتى أنظر هل يسع ذنبك الصندوق ورد اللوح على الطاقة سريعاً وسمره، فصاح الشبل قائلاً: يا نجار، ما هذا البيت الضيق الذى صنعته لى دعنى أخرج منه؛ فقال له النجار: هيهات لا ينفع الندم على ما فات، إنك لن تخرج من هذا المكان، ثم ضحك النجار وقال للشبل: إنك وقعت فى القفص وكنت أخبث الوحوش، فقال له: يا أخى ما هذا الخطاب الذى تخاطبنى به؟ فقال له النجار: اعلم يا كلب البر أنك وقعت فيما كنت تخاف منه، وقد رماك القدر ولم ينفعك الحذر، فلما سمع الشبل كلامه يا أختى علم أنه ابن آدم الذى حذره منه أبوه فى اليقظة والهاتف فى المنام

وتحققت أنه هو بلا شك ولا ريب، فخفت منه على نفسى خوفاً عظيماً وبعدت عنه قليلاً وصرت أنظر ماذا يفعل بالشبل، فرأيت يا أختى ابن آدم حفر حفرة فى هذا المكان بالقرب من الصندوق الذى فيه الشبل ورماه فى تلك الحفرة وألقى عليه الحطب وأحرقه بالنار، فكبر يا أختى خوفى، ولى يومان هارية من ابن آدم وخائفة منه، فلما سمعت الطاووسة من البطة هذا الكلام.

وأدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

إن أسطورة الطاووس كما أوردناها تمثل نموذجاً كافياً وصادقاً للأساطير الحيوانية التى وردت بكتاب: «ألف ليلة وليلة» ولقد اخترناها لتمثل جانباً له مكانته وله قيمته وضرورته فى حياة التعاطف الإنسانى بين الإنسان وغيره من الأنيس، فالتعاطف الإنسانى بين الناس ضرورى لأنه على أساسه تتنوع العلاقات وتنشأ المصالح وتتكون الأعمال، ثم هو من عوامل أطراد التنامى الاجتماعى واستدامته، سواء أكان تقدماً أو ارتقاءً أم استدامة تخلف واضطراب بين المتعاطفين، فالأسطورة تبدأ بالدائرة الأولية والضرورية للاجتماع الإنسانى تبدأ بالأسرة، والأسرة زوج وزوجة قبل كل شىء وهنا طاووس وطاووسة، وجاء موقع معيشتهما بجوار البحر، «وكان ذلك الموضع كثير السباع وفيه من سائر الوحوش غير أنه كثير الأشجار والأنهار»، وتشير هذه الجملة إلى معان رمزية عميقة

الدلالة بعيدة التصور، أنها ترمز إلى المجتمع الإنسانى وهو يعيش فى بحر الزمان، فهو يجمع بين الماضى والحاضر ويتجه إلى المستقبل، أما «سائر الحيوان» فهو المجتمع فى عنصره الإنسانى بطبقاته وفئاته ومصالح كل طبقه ومطامح كل فئة وسماتها فى أخلاقها وطباعها وما يحكمها من واقع عليها أن تعمل له وتحسب حسابه، وما يحكمها كذلك من بواعث داخلية سواء أكانت جسدية أو نفسية أو وجودية، أما الأشجار فهى ترمز فيما نتصور إلى المؤسسات الاجتماعية القائمة والتى تختلف فى أنواعها وآثارها والتى تختلف فيمن يستفيدون منها وينعمون بخيراتها، ويرمز الشجر فيما يرمز إلى ماهية كل شجرة ومدى ملاءمتها للمخلوقات التى تعيش عليها.

وترمز الأنهار إلى سبل التواصل بين الناس فى صفاتها وخصائصها، وكان الطاووس وزوجته الطاووسة يأويان إلى كنفهما بين الأشجار ليلاً خوفاً من الوحوش، وكأن الشر لا يعرف سبيله ولا ينقض بهجماته إلا فى الليل والليل ظلمة وظلم، ثم تتطور الأسطورة فيضطر الزوجان إلى الهجرة وأخيراً يستقران فى مكان آمن.

ولكن حركة التاريخ لا تتوقف، فبينما الطاووس والطاووسة ينعمان فى الموقع الجديد بالرخاء والأمان: « إذا ببطة أقبلت عليهما وهى فى شدة الفزع»، ولما قصت على الطاووسة قصتها رحبت بها وآمنتها من خوف، وتعطى البطة صورة رمزية عميقة جمة الثراء بالمعانى الإنسانية أو الخصال الإنسانية التى تربط بين الناس، فمخاتلة الناس للناس تكون عملاً من أعمال الإقناع النفسى الذى يوقع فى الشر، وهذا ما يعمله الناس فى سلوكهم الاجتماعى وعلاقاتهم المصلحية أو النفعية، ومما له مغزاه أن تستعين الأسطورة ببيت من الشعر تتجسد فيه خلائق الناس فى جملتهم، فيقول الشاعر:

يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب

ثم تستجمع البطة خصال الشر التى تمثل فى ابن آدم، وإلى أى مدى يمكن

أن يذهب شره بقولها: «واعلمى أن ابن آدم يحتال على الحيتان فيخرجها من البحار ويرمى الطير ببندقية من طين، ويوقع الفيل بمكره، وابن آدم لا يسلم أحد من شره، ولا ينجو منه طير ولا وحش».

ثم تنتقل الأسطورة إلى مرحلة جديدة وذلك حين تلتقى البطة بشبل الأسد، فلما عرضت عليه قصتها وحكت له صنوف العذاب التى لاقتها من ابن آدم طلبت حمايته، وفعلاً وعدها بالحماية، وتطورت الأحداث بالشبل، كما تطورت بالبطة وكأننا أمام تطور التدافع الاجتماعى بين الناس، حتى إذا التقى بالحمار وجده مذعوراً هارباً من ابن آدم وغدره وسوء ضميره، فطمأنه ووعده بالحماية، وبعد الحمار ظهر الفرس فأسمع الشبل نفس الشكاة من ابن آدم، فطمأنه ولكنه عاب عليه عدم فتكه بابن آدم وهو عظيم الجثة قوى شديد البأس، ثم ظهر الجمل ونفس الشكاة، ونفس الرد.

وكان آخر من استجار بالأسد (الشبل) هو ابن آدم نفسه وكان نجاراً، فشكا له من ابن آدم، وعجب الشبل من الأمر، ولكن النجار استطاع أن يحتال عليه حتى أدخله صندوقاً صنعه له، ثم أشعل فيه النار، وهكذا لم تفلح قوة البطش الحيوانى وشراسته أمام حيل العقل ودهاء التفكير.

وتستمر الأسطورة فى مزيد من المعانى الإنسانية والأخلاقية والاجتماعية والنفسية لتصور طبيعة المجتمع الإنسانى وما يحكمه من بواعث ودوافع.

ويأتى النسناس ليكمل مجموعة الحيوانات الشاذة، والجاهليون من العرب يقيمون حول هذا الحيوان بعض الأساطير؛ بل وينطقونه بأحاديث تجسد شطحات خيالهم.

يقول شبيب بن شبيبة بن الحارث التميمى: «قدمت الشحر (بحضر موت)، فنزلت على رأسها فتذاكرنا؛ فقال: صيدوا لنا منها، فلما أن رجعت إليه مع بعض أعوانه إذ أنا بنسناس منها، فقال لى النسناس: أنا بالله وبك، فقلت لهم: خلوه، فلما حضر الغذاء قال: استعدوا فإنا خارجون فى قنص، فلما خرجنا إلى

ذلك في السحر خرج منها واحد يعدو، وله وجه كوجه الإنسان وشعرات في ذقنه ومثل الثدى في صدره ومثل رجلى الإنسان رجلاه وقد أحاط به كلبان وهو يقول:

الويل لى مما به دهانى	دهرى من الهجوم والأحزان
قفا قليلاً أيها الكلبان	واستمعا قولى وصدقانى
إنكما حين تحاربانى	ألفيتما حضرا عنانى
ولولا سباقى ما ملكتمانى	حتى تموتا أو تفارقانى
لست بخوار ولا جبان	ولا بنكس رعش الجنان
لكن قضاء الملك الرحمن	يذل ذا القوة والسلطان

قال: فالتقيا به فأخذاه.

وتدل هذه الأسطورة على أن حكايات النسانيس كانت شائعة عند العرب ولاسيما عرب حضرموت، والإحساء، واليمن، وعمان؛ حيث تكثر النسانيس والقردة.

■ ■ ■

الثعلب والغراب

يحكى أن ثعلباً سكن فى بيت فى الجبل وكان كلما ولد ولداً واشتد ولده أكله من الجوع وإن لم يأكل ولده يضربه الجوع، وكان يأوى إلى ذروة ذلك الجبل غراب فقال الثعلب فى نفسه: أريد أن أعقد بينى وبين هذا الغراب مودة وأجعله لى مؤنساً على الوحدة معاوناً على طلب الرزق؛ لأنه يقدر من ذلك على ما لا أقدر عليه، فدنا الثعلب من الغراب حتى صار قريباً منه بحيث يسمع كلامه فسلم عليه ثم قال له:

- ياجار إن للجار على الجار حقين: حق الجيرة وحق الإسلام واعلم بأنك جارى ولك علىَّ حق يجب قضاؤه وخصوصاً مع طول المجاورة، على أن فى صدرى وديعة من محبتك دعتنى إلى ملاطفتك وبعثتنى على التماس أخوتك فما عندك من الجواب؟

فقال الغراب:

- اعلم إن خير القول أصدقه وربما تتحدث بلسانك بما ليس فى قلبك وأخشى أن تكون أخوتك باللسان ظاهراً وعداوتك فى القلب لأنك آكل وأنا مأكول فوجب علينا التباين فى المحبة ولا يمكن مواصلتنا، فما الذى دعاك إلى طلب ما لا تدرك وإرادة ما لا يكون وأنت من جنس الوحوش وأنا من جنس الطيور وهذه الأخوة لا تصح.

فقال له الثعلب:

- إن من موضع الإخلاء فأحسن الاختيار فيما يختاره منهم ربما يصل إلى بعض منافع الإخوان وقد اخترت قربك واخترت الأنس بك ليكون بعضنا عوناً لبعض على أغراضنا وتعقب مودتنا، وعندى حكايات فى حسن الصداقة فإن

أردت أن أحكيها حكيتها لك.

فقال الغراب:

ـ أذنت لك أن تبثها فحدثنى بها حتى أعرف المراد منها.

فقال له الثعلب:

ـ اسمع ياخليلى.. يحكى عن برغوث وفأرة وما يستدل به على ما ذكرته لك.

فقال الغراب:

ـ وكيف كان ذلك؟

قال الثعلب:

ـ زعموا أن فأرة فى بيت رجل من التجار كثير المال فأوى البرغوث ليلة إلى فراش ذلك التاجر فرأى بدناً ناعماً وكان البرغوث عطشاناً فشرب من دمه، ووجد التاجر من البرغوث ألماً فاستيقظ من النوم واستوى قاعداً ونادى أتباعه فأسرعوا إليه وشمروا عن أيديهم يطوفون على البرغوث، فلما أحس البرغوث بالطلب ولى هارباً فصادف جُحر الفأرة فدخله، فلما رأته الفأرة قالت له:

ـ ما الذى أدخلك على ولست من جوهرى ولا من جنسى ولست بآمن من الغلظة عليك ولا مضاررتك؟

فقال لها البرغوث:

ـ إنى هربت إلى منزلك وفزت بنفسى من القتل وأتيت مستجيراً بك ولا طمع لى فى بيتك ولا يلحقك منى شر يدعوك إلى الخروج من منزلك وأنى أرجو أن أكافئك على إحسانك بكل جميل وسوف تحمدين عاقبة ما أقول لك.

فلما سمعت الفأرة كلام البرغوث قالت:

ـ إذا كان الكلام على ما أخبرت فاطمئن هنا وما عليك بأس ولا تجد إلا ما يسرك ولا يصيبك إلا ما يصيبنى وقد بذلت لك مودتى ولا تندم على ما فاتك

من دم التاجر ولا تأسف على قوتك منه وأرض بما تيسر لك من العيش فإن ذلك أسلم لك وقد سمعت أيها البرغوث بعض الوعاظ ينشد هذه الأبيات:

سلكت طريق القناعة والانفراد   قضيت دهرى بماذا اتفق

بكسرة خبز وشربة ماء   وملح جريش وثوب خلق

فإن يسر الله لى عيشتى   وإلا قنعت بما قد رزق

فلما سمع البرغوث كلام الفأرة، قال:

ـ يا أختى قد سمعت وصيته ولنقدت إلى طاعتك ولا قوة لى على مخالفتك إلى أن ينقضى العمر بتلك النية فقالت له الفأرة:

ـ كفى بصدق المودة فى صلاح النية.

ثم انعقد الود بينهما وكان البرغوث بعد ذلك يأوى إلى فراش التاجر ولا يتحاور بلغته ويأوى بالليل مع الفأرة فى مسكنها، فاتفق أن التاجر جاء ليلة إلى منزله بدنانير كثيرة فجعل يقلبها، فلما سمع الفأرة صوت الدنانير أطلعت رأسها من جُحرها وجعلت تنظر إليها حتى وضعها التاجر تحت وسادة ونام فقالت الفأرة للبرغوث:

ـ أما ترى الفرصة والحظ العظيم، فهل عندك حيلة إلى بلوغ الغرض من تلك الدنانير؟

فقال لها البرغوث:

ـ قد التزمت لك بإخراجه من البيت.

ثم انطلق البرغوث إلى فراش التاجر ولدغه لدغة قوية لم يكن جرى للتاجر مثلها، ثم تنحى البرغوث إلى موضع يأمن فيه على نفسه من التاجر فانتبه التاجر يفتش على البرغوث، فلم يجد شيئاً فرقد على جنبه الآخر فلدغه البرغوث لدغة أشد من الأولى فقلق التاجر وفارق وخرج إلى مصطبة داره فنام هناك ولم ينتبه إلى الصباح، ثم إن الفأرة أقبلت على الدنانير حتى لم تترك

منها شيئاً.

فلما أصبح الصباح صار التاجر يتهم الناس ويظن الظنون ثم قال الثعلب للغراب:

- واعلم أنى لم أقل لك هذا الكلام أيها الغراب البصير العاقل الخبير إلا ليصل إليك جزاء إحسانك إلى كما وصل للفأرة جزاء إحسانها إلى البرغوث فانظر كيف جازاها أحسن المجازاة وكافأها أحسن المكافأة.

فقال الغراب:

- إن شاء المحسن يحسن أو لا يحسن وليس الإحسان واجباً لمن التمس صلة بقطيعة وإن أحسنت إليك مع كونك عدوى أكون أتسبب فى قطيعة نفسى، وأنت أيها الثعلب ذو مكر وخداع ومن شيمتك المكر والخديعة لا تؤمن على عهد لا أمان له، وما مثالك معى إلا مثال الصقر مع ضوارى الطير، فقال الثعلب:

- وما حكاية الصقر مع ضوارى الطير؟

فقال الغراب:

- زعموا أن قصراً كان جباراً عنيداً أيام شبيبته وكان سباع البر وسباع الطير تفزع منه ولا يسلم من شره أحد وله حكايات كثيرة فى ظلمه وتجبره وكان دأب هذا الصقر الأذى لسائر الطيور، فلما مرت عليه السنون ضعف وجاع واشتد جهده بعد فقد قوته فأجمع رأيه على أن يأتى مجمع الطير فيأكل ما يفضل منها، فعند ذلك صار قوته بالحيلة، وأنت كذلك أيها الثعلب إن عدمت قوتك ما عدمت خداعك ولست أشك فى أن ما تطلبه من صحبتى حيلة على قوتك فلا كنت ممن يضع يده فى يدك لأن الله أعطانى قوة فى جناحى وحذراً فى نفسى وبصراً فى عينى واعلم أن من تشبه بأقوى منه تعب وربما هلك، هذا ما عندى الكلام واذهب عش بسلام.

فلما يئس الثعلب من مصادقة الغراب رجع من حزنه يئن وقرع للندامة سناً

على سن.

فلما سمع الغراب بكاءه وأنينه ورأى كآبته وحزنه قال:

- أيها الثعلب ما نابك حتى قرعت نابك؟

قال له الثعلب:

- إنما قرعت سنى لأنى رأيتك أخدع منى.

ثم ولى هارباً ورجع إلى جحره طالباً.

■ ■ ■

السلحف والطير

زعموا أن طيراً طار وعلا إلى الجو ثم انقض على صخرة فى وسط الماء وكان الماء جارياً، فبينما الطائر واقف على الصخرة وإذا برمة إنسان جرها الماء حتى أسندها إلى الصخرة ووقفت تلك الجيفة فى جانب الصخرة وارتفعت لانتفاخها فدنا الطير وتأملها فرآها رمة ابن آدم وظهر له فيها ضرب السيف وطعن الرماح فقال فى نفسه:

- إن هذا المقتول كان شريراً فاجتمع عليه جماعة وقتلوه واستراحوا منه ومن شره.

ولم يزل طير الماء يُكثر التعجب من تلك الرمة حتى رأى نسوراً وعقباناً أحاطوا بتلك الجيفة من جميع جوانبها، فلما رأى طير الماء جزع جزعاً شديداً وقال:

- لا صبر لى على الإقامة فى هذا المكان.

ثم طار منه يفتش على موضع يأويه إلى حين نفاد تلك الجيفة وزوال سباع الطير عنها ولم يزل طائراً حتى وجد نهراً فى وسطه شجرة، فنزل عليها كئيباً حزيناً على بعده عن وطنه وقال فى نفسه:

- لم تزل الأحزان تتبعنى وكنت قد استرحت لما رأيت تلك الجيفة وفرحت بها فرحاً شديداً وقلت: هذا رزق ساقه الله إلىَّ فصار فرحى غماً وسرورى حزناً وهماً وافترستها سباع الطير منى وحال بينها وبينى، فكيف أرجو أن أكون سالماً فى هذه الدنيا وأطمئن إليها.

وقد قيل فى المثل: الدنيا دار من لا دار له يغتر بها من لا عقل له ويطمئن بماله وولده وقومه وعشيرته ولم يزل المغتر بها راكناً إليها يختال فوق الأرض

حتى يصير تحتها ويجثوا عليه التراب لتراب أعز الناس عليه وأقربهم إليه وما للفتى خير من الصبر على مكارهها وقد فارقت مكانى ووطنى وكنت كارهاً لفرقة أخوانى وأصحابى.

فبينما هو فى فكرته وإذا بذكر من السلاحف أقبل إلى منحدر فى الماء ودنا من طير الماء وسلم عليه وقال:

- يا سيدى ما الذى أبعدك عن موضعك؟

قال:

- حلول الأعداء فيه ولا صبر للعاقل على مجاورة عدوه، وما أحسن قول بعض الشعراء:

إذا حل الثقيل بأرض قوم   فلما للساكنين سوى الرحيل

فقال له السحلف:

- إذا كان الأمر كما وصفته والحال مثل ما ذكرته فأنا لا أزال بين يديك ولا أفارقك لأقضى حاجتك وأوفى بخدمتك، فأنه يقال لا وحشة أشد من وحشة الغريب المنقطع عن أهله ووطنه، وقد قيل إن فرقة الصالحين لا يعد لها شئ من المصائب ومما يسمى العاقل نفسه الاستئناس فى الغربة والصبر على الزرية والكربة وأرجو أن تجمد صحبتى لك وأكون لك خادماً ومعيناً.

فلما سمع طير الماء مقالة السلحف قال له:

- لقد صدقت فى قولك ولعمرى إنى وجدت للفراق ألماً وهماً مدة بعدى عن مكانى وفراقى لأخوانى وخلانى؛ لأن فيه الفراق عبرة لمن اعتبر وفكرة لمن تفكر وإذا لم يجد الفتى من يسليه من الأصحاب ينقطع عنه الخير ويثبت له الشر سرمداً، وليس للعاقل إلا التسلى بالإخوان عن الهموم فى جميع الأحوال وملازمة الصبر والتجلد فأنهما خصلتان محمودتان يعينان نوائب الدهر ويدفعان الفزع والجزع من كل أمر.

فقال له السلحف:

- إياك والجزع فإنه يفسد عليك عيشك ويذهب مروءتك.

ومازالا يتحدثان مع بعضهما إلى أن قال طير الماء للسلحف:

- أنا لم أزل أخشى نوائب الزمان وطوارق الحدثان.

فلما سمع السلحف مقالة طير الماء أقبل عليه وقبله بين عينيه وقال له:

- لم تزل جماعة الطير تعرف مشورتك الخير فكيف تحمل الهم والضير.

ولم يسكن روع طير الماء حتى اطمأن، ثم إن طير الماء طار إلى مكان الجيفة فلما وصل إليه لم ير من سباع الطير شيئاً ولا من تلك الجيفة إلا عظماً، فرجع يخبر السلحف بزوال العدو من مكانه فلما وصل إلى السلحف أخبره بما رأى وقال:

- إنى أحب الرجوع إلى مكانى وأتملى بخلانى؛ لأنه لا صبر للعاقل عن وطنه.

فذهب معه إلى ذلك المكان فلم يجد شيئاً مما يخاف منه فصار طير الماء قرير العين ثم سكنا الجزيرة، فبينما طير الماء فى أمن وسرور وفرح وحبور إذ ساق إليه بازاً جائعاً فضربه بمخلبه ضربة فقتله ولم يغنه الحذر عند فراغ الأجل وسبب قتله غفلته عن التسبيح، قيل إنه كان يقول فى تسبيحه: سبحان ربنا فيما قدر ودبر، سبحان ربنا فيما أغنى وأفقر.

■ ■ ■

القنفذ والورشان

يحكى أن قنفذاً اتخذ مسكناً بجانب نخلة وكان الورشان هو وزوجته فلما اتخذا عشا فى النخلة وعاشا فوقها عيشاً رغيداً فقال القنفذ فى نفسه: إن الورشان يأكل من ثمر النخل وأنا أجد إلى ذلك سبيلاً ولكن لابد من استعمال الحيلة.

ثم حفر فى أسفل النخلة بيتاً واتخذه سكنا له ولزوجته وإلى جانبه مسجداً وانفرد فيه وأظهر النسك والعبادة، وترك الدنيا وكان الورشان متعبداً مصلياً فرق له من شدة زهده وقال:

ـ كم سنة وأنت هكذا؟

قال:

ـ مدة ثلاثين سنة.

قال:

ـ ما طعامك؟

قال:

ـ ما يسقط من النخلة.

قال:

ـ ما لباسك؟

قال:

ـ شوك أنتفع بخشونته.

فقال:

- وكيف اخترت مكانك هذا على غيره؟

قال:

- اخترته على غير طريق لأجل أن أرشد الضال وأعلم الجاهل.

فقال له الورشان:

- كنت أظهر على أنك على غير هذه الحالة ولكننى رغبت فيما عندك.

فقال القنفذ:

- إنى أخشى أن يكون قولك ضد فعلك فتكون كالزارع الذى جاء وقت الزرع قصر فى بذره وقال: إنى أخشى أن يكون أوان الزرع قد فات فأكون قد أضعت المال بسرعة البذر، فلما جاء وقت الحصاد ورأى الناس يحصدون ندم على ما فاته من تقصيره ومن تخلفه ومات أسفاً، فقال الورشان للقنفذ:

- وماذا أصنع حتى أتخلص من علائق الدنيا وأنقطع إلى عبادة ربى؟

قال له القنفذ:

- خذ فى الاستعداد للميعاد والقناعة بالكفاية فى الزاد.

فقال الورشان:

- كيف لى بذلك وأنا طائر لا أستطيع أن أتجاوز النخلة التى فيها قوتى؟ ولو استطعت ذلك ما عرفت موضعاً أستقر فيه.

فقال القنفذ:

- يمكنك أن تنثر من ثمر النخلة ما يكفيك مؤونة عام أنت وزوجتك وتسكن فى وكر تحت النخلة لالتماس حسن إرشادك، ثم مل إلى ما نثرته من الثمر فانقله جميعاً وادخره قوتاً للعدم وإذا فرغت الثمار وطال عليك المطال سر إلى كفاف العيش.

فقال الورشان:

جزاك الله خيراً ذكرتنى بالميعاد وهديتنى إلى الرشاد.

ثم تعب الورشان هو وزوجته فى طرح الثمر حتى لم يبق فى النخلة شىء فوجد القنفذ ما يأكل وفرح به وملأ مسكنه من الثمر وادخره لقوته وقال فى نفسه: إن الورشان هو وزوجته إذا احتاجا إلى مؤونتهما طلباها منى وطمعاً فيما عندى وركنا إلى تزهدى وورعى.

فلما رأى الورشان منه الخديعة لائحة قال له:

- أين الليلة من البارحة فما تعلم أن للمظلومين ناصراً فإياك والمكر والخديعة، لئلا يصيبك ما أصاب الخداعين الذين مكروا بالتاجر.

فقال القنفذ: وكيف ذلك؟

قال:

- بلغنى أن تاجراً من مدينة يقال لها سنده كان ذا مال واسع فشد جمالاً وجهز متاعاً وخرج به إلى بعض المدن ليبيعه فيها فتبعه رجلان من المكرة وحملا شيئا من مال ومتاع وأظهرا للتاجر أنهما من التجار وساروا معه فلما نزلا أول منزل اتفقا على المكر به وأخذ ما معه.

ثم إن كل واحد منهما أضمر المكر لصاحبه وقال فى نفسه: لو مكرت بصاحبى بعد مكرنا بالتاجر لصفا لى الوقت وأخذت جميع المال، ثم أضمرا لبعضهما نية فاسدة وأخذ كل منهما طعاماً وجعل فيه سماً، وقربه لصاحبه فقتلا بعضهما وكانا يجلسان مع التاجر ويحدثانه فلما أبطأوا عليه فتش عليهما ليعرف خبرهما فوجدهما ميتين فعلم أنهم كانا محتالين وأرادا المكر به فعاد عليهما مكرهما وسلم التاجر والمال.

■ ■ ■

الحمار والثور وصاحب الزرع

كان لبعض التجار أموال ومواش وكان له زوجة وأولاد وكان الله تعالى أعطاه معرفة ألسن الحيوانات والطير وكانٍ مسكن ذلك التاجر الأرياف وكان عنده فى داره حمار وثور، فأتى يوماً إلى مكان الحمار فوجده منكوساً مرشوشاً وفى معلفه شعير مغربل وتبن مغربل وهو راقد مستريح، وفى بعض الأوقات ركبه صاحبه لحاجة تعرف له ويرجع على حالة، فلما كان فى بعض الأيام سمع التاجر الثور وهو يقول للحمار: هنيئاً لك ذلك، أنا تعبان وأنت مستريح تأكل الشعير مغربلاً ويخدمونك وفى بعض الأوقات يركبك صاحبك ويرجع وأنا دائما للحرث.

فقال له الحمار: إذا خرجت إلى الغيط ووضعوا على رقبتك الناف، فارقد ولا تقم ولو ضربوك، فإن قمت فارقد ثانياً، فإذا رجعوا بك ووضعوا لك الفول فلا تأكله كأنك ضعيف وامتنع من الأكل والشرب يوماً أو يومين أو ثلاثة فإنك تستريح من التعب والجهد، وكان التاجر يسمع كلامهما، فلما جاء السواق إلى الثور بعلفه أكل منه شيئاً يسيراً فأصبح السواق يأخذ الثور إلى الحرث فوجده ضعيفاً فقال له التاجر: خذ الحمار وحرثه مكانه اليوم كله، فلما رجع آخر النهار شكره الثور على تفضلاته حيث أراحه من التعب فى ذلك اليوم، فلم يرد عليه الحمار جواباً وندم أشد الندامة، فلما رجع كان ثانى يوم جاء المزارع وأخذ الحمار وحرثه إلى آخر النهار فلم يرجع إلا مسلوخ الرقبة شديد الضعف فتأمله الثور وشكره ومجده فقال له الحمار: اعلم أنى لك ناصح وقد سمعت صاحبنا يقول: إن لم يقم الثور من موضعه فأعطوه للجزار ليذبحه ويعمل جلده قطعاً وأنا خائف عليك ونصحتك والسلام.

فلما سمع الثور كلام الحمار شكره وقال فى غد أسرح معهم، ثم إن الثور

أكل علفه بتمامه حتى لحس المذود بلسانه، كل ذلك وصاحبهما يسمع كلامهما، فلما طلع النهار وخرج التاجر وزوجه إلى دار البقر وجلسا فجاء السواق وأخذ الثور وخرج، فلما رأى الثور صاحبه قام نشطا وأخذ يتحرك فى كل مكان، فضحك التاجر حتى استلقى على قفاه.

■ ■ ■

العلجوم والسرطان

زعموا أن علجوماً عشش فى أجمة كبيرة السمك؛ فعاش بها ما عاش؛ ثم هرم فلم يستطع صيداً؛ فأصابه جوع وجهد شديد؛ فجلس حزيناً يلتمس الحيلة فى أمره؛ فمر به سرطان، فرأى حالته وما هو عليه من الكآبة والحزن؛ فدنا منه وقال:

ـ مالى أراك أيها الطائر هكذاً حزيناً كئيباً؟

قال العلجوم:

ـ وكيف لا أحزن وقد كنت أعيش من صيد ما ها هنا من السمك؟ وإنى قد رأيت اليوم صيادين قد مرا بهذا المكان؛ فقال أحدهما لصاحبه: إن ها هنا سمكاً كثيراً أفلا نصيده أولاً؟ فقال الآخر: إنى قد رأيت فى مكان كذا سمكاً أكثر من هذا السمك، فلنبدأ بذلك، فإذا فرغنا منه جئنا إلى هذا فأفنيناه، وقد علمت أنهما إذا فرغا مما هناك، انتهيا إلى هذه الأجمة فاصطادا ما فيها؛ فإذا كان ذلك فهو هلاكى ونفاذ مدتى.

فانطلق السرطان من ساعته إلى جماعة السمك فأخبرهن بذلك؛ فأقبلن إلى العلجوم فاستشرنه، وقلن له:

ـ إنا أتينا لك لتشير علينا: فإن ذا العقل لا يدع مشاورة عدوه.

قال العلجوم:

ـ أما مكابرة الصيادين فلا طاقة لى بها؛ ولا أعلم حيلةً إلا المصير إلى غدير قريب من ها هنا، فيه سمك ومياه عظيمة وقصب، فإن استطعن الانتقال إليه، كان فيه صلاحكن وخصبكن.

فقلن له:

- ما يمن علينا بذلك غيرك.

فجعل العلجوم يحمل فى كل يوم سمكتين حتى ينتهى بهما إلى بعض التلال فيأكلهما؛ حتى إذا كان ذات يوم جاء لأخذ السمكتين؛ فجاءه السرطان؛ فقال له:

- إنى أيضاً قد أشفقت من مكانى هذا واستوحشت منه فاذهب بى إلى ذلك الغدير.

فاحتمله وطار به، حتى إذا دنا من التل الذى كان يأكل السمك فيه نظر السرطان فرأى عظام السمك مجموعة هناك؛ فعلم أن العلجوم هو صاحبها؛ وأنه يريد به مثل ذلك، فقال فى نفسه: إذا لقى الرجل عدوه فى المواطن التى يعلم أنه فيها هالك، سواء قاتل أم لم يقاتل؛ كان حقيقاً أن يقاتل عن نفسه كرماً وحفاظاً، ثم أهوى بكلبتيه على عنق العلجوم، فعصره فمات؛ وتخلص السرطان إلى جماعة السمك فأخبرهن بذلك.

■ ■ ■

عفريت سليمان

كـان هناك رجل صـيـاد وكـان طاعناً فى السن وله زوجـة وثلاثة أولاد وهو فقير الحال وكان من عادته أنه يرمى شبكته كل يوم أربع مرات لا غير ثم أنه خرج يومـاً من الأيام فى وقت الظهـر إلى شـاطئ البـحـر وحط مـعطفـه وطرح شبكته وصبر إلى أن استقرت فى الماء ثم جمع خيطانها فوجدها ثقيلة فجذبها فلم يقدر على ذلك فذهب بالطرف إلى البـر ودق وتداً وربطهـا فـيـه، ثم عـرى وغطس فى الماء حـول الشبكة ومـازال يعالج حتى أطلعها ولبس ثيابه وأتى إلى الشبكة فوجد فيها حماراً ميتاً فلما رأى ذلك حزن وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم إن هذا الرزق عجيب.

ولما رأى الحمار ميتاً خلصه من الشبكة وعصرها، فلما فرغ من عصرها نشرها وبعد ذلك نزل البحر، وقال: بسم الله، وطرحها فيه وصبر عليها حتى استقرت ثم جذبها فثقلت ورسخت أكثر من الأول، فظن أنه سمك فربط الشبكة وتعرى ونزل وغطس، ثم عالج إلى أن خلصها وأطلعها إلى البر فوجد فيها زيراً كبيراً وهو ملآن برمل وطين فلما رأى ذلك تأسف.

ثم أنه رمى الزير وعصر شبكته ونظفها واستغفر الله وعاد إلى البحر ثالث مرة ورمى الشبكة وصبر عليها حتى استقرت وجذبها فوجد فيها شقافة وقوارير.

ثم أنه رفع رأسه إلى السماء وقال:

ـ اللهم إنك تعلم أنى لم أرم شبكتى غير أربع مرات وقد رميت ثلاثا.

ثم أنه سمى الله ورمى الشبكة فى البحر وصبر إلى أن استقرت وجذبها فلم يطق جذبها وإذا بها اشتبكت فى الأرض فقال:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله.

فتعرى وغطس عليها وصار يعالج فيها إلى أن طلعت على البحر وفتحها فوجد فيها قمقماً من نحاس أصفر ملآن وفمه مختوم برصاص عليه طبع خاتم سيدنا سليمان.

فلما رآه الصياد فرح وقال:

ـ هذا أبيعه فى سوق النحاس فإنه يساوى عشرة دنانير ذهباً.

ثم إنه حركه فوجده ثقيلاً فقال:

ـ لابد أن أفتحه وأنظر ما فيه وأدخره فى الخرج ثم أبيعه فى سوق النحاس.

ثم أنه أخرج سكيناً، وعالج فى الرصاص إلى أن فكه من القمقم وحطه على الأرض وهزه لينكت ما فيه فلم ينزل منه شىء، ولكن خرج من ذلك القمقم دخان صعد إلى السماء ومشى على وجه الأرض فتعجب غاية العجب وبعد ذلك تكامل الخدان، واجتمع ثم انتفض فصار عفريتاً رأسه فى السحاب ورجلاه فى التراب كالقبة وأيدى كالمدارى ورجلين كالصوارى، وفم كالمغارة، وأسنان كالحجارة، ومناخير كالإبريق، وعينين كالسراجين، أشعث أغبر.

فلما رأى الصياد ذلك العفريت ارتعدت فرائصه وتشبكت أسنانه، ونشف ريقه وعمى عن طريقه فلما رآه العفريت قال:

ـ لا إله إلا الله سليمان نبى الله.

ثم قال العفريت:

ـ يا بنى الله لا تقتلنى فإنى لا عدت أخالف لك قولاً وأعصى لك أمراً.

فقال له الصياد:

ـ أيها المارد أتقول سليمان نبى الله، وسليمان مات من مدة ألف وثمانمائة

سنة، ونحن فى آخر الزمان فما قصتك، وما حديثك وما سبب دخولك إلى هذا القمقم.

فلما سمع المارد كلام الصياد قال:

- لا إله إلا الله أبشر ياصياد

فقال الصياد:

- بماذا تبشرنى؟

فقال:

- بقتلك فى هذه الساعة أشر القتلات

قال الصياد:

- لأى شىء تقتلنى وأى شىء يوجب قتلى وقد خلصتك من القمقم ونجيتك من قرار البحر، وأطلعتك إلى البر؟

فقال العفريت:

- تمن على أى موتة تموتها، وأى قتلة تقتلها.

فقال الصياد:

- ما ذنبى حتى يكون هذا جزائى منك؟

فقال العفريت:

- اسمع حكايتى ياصياد.

قال الصياد:

- قل وأوجز فى الكلام فإن روحى وصلت إلى قدمى.

قال:

- اعلم أنى من الجن المارقين، وقد عصيت سليمان بن داود وأنا صخر

الجنى فأرسل لى وزيره آصف ابن برخيا فأتى بى مكرهاً وقادنى إليه وأنا ذليل على رغم أنفى وأوقفنى بين يديه فلما رآنى سليمان استعاذ منى وعرض عليه الإيمان والدخول تحت طاعته، فأبيت فطلب هذا القمقم وحبسنى فيه وختم على بالرصاص وطبعه بالاسم الأعظم، وأمر الجن فاحتملونى وألقونى فى وسط البحر فأقمت مائة عام وقلت فى قلبى: كل من خلصنى أغنيته إلى الأبد فمرت المائة عام ولم يخلصنى أحد، ودخلت مائة أخرى فقلت: كل من خلصنى فتحت له كنوز الأرض، فلم يخلصنى أحد فمرت على أربعمائة عام أخرى فقلت: كل من خلصنى أقضى له ثلاث حاجات فلم يخلصنى أحد فغضبت غضباً شديداً وقلت فى نفسى: كل من خلصنى فى هذه الساعة قتلته ومنيته كيف يموت وها أنك قد خلصتنى ومنيتك كيف تموت.

فلما سمع الصياد كلام العفريت قال:

- يااللحظ السيئ أنا ما جئت أخلصك إلا فى هذه الأيام.

ثم قال الصياد للعفريت:

- اعف عن قتلى يعف الله عنك، ولا تهلكنى، يسلط الله عليك، من يهلكك.

فقال:

- لابد من قتلك، فتمن على أى موتة تموتها.

فلما تحقق ذلك منه الصياد راجع العفريت وقال:

- اعف عنى إكراماً لما أعتقتك.

فقال العفريت:

- وأنا ما أقتلك إلا لأجل ما خلصتنى.

فقال الصياد:

- ياشيخ العفاريت هل أصنع معك مليحاً، فتقابلنى بالقبيح.

قال:

ـ لابد من موتك.

فقال الصياد فى نفسه: هذا جنى، وأنا إنسى وقد أعطانى الله عقلاً كاملاً وها أنا أدبر أمراً فى هلاكه، بحيلتى وعقلى وهو يدبر بمكره وخبثه، ثم قال للعفريت:

ـ هل صممت على قتلى؟

قال:

ـ نعم.

فقال له:

ـ بالاسم الأعظم المنقوش على خاتم سليمان أسألك عن شىء وتصدقنى فيه؟

قال:

ثم إن العفريت لما سمع ذكر الاسم الأعظم اضطرب واهتز وقال:

ـ اسأل وأوجز.

فقال له:

ـ كيف كنت فى هذا القمقم، والقمقم لا يسع يدك ولا رجلك فكيف يسعك كلك.

فقال له العفريت:

ـ وهل أنت لا تصدق أننى كنت فيه؟.. فقال الصياد: لا أصدق أبداً حتى أنظرك فيه بعينى.

فانتفض العفريت وصار دخاناً صاعداً إلى الجو، ثم اجتمع ودخل فى القمقم قليلاً، حتى استكمل الدخان داخل القمقم، وإذا بالصياد أسرع وأخذ

سدادة الرصاص المختومة وسد بها فم القمقم ونادى العفريت، وقال له:

- تمن عليَّ أى موتة تموتها لأرميك فى هذا البحر وابنى لى هنا بيتاً وكل من أتى هنا أمنعه أن يصطاد وأقول له هنا عفريت وكل من أطلعه يبين له أنواع الموت يخبره بينها.

فلما سمع العفريت كلام الصياد أراد الخروج فلم يقدر ورأى نفسه محبوساً ورأى عليه طابع خاتم سليمان وعلم أن الصياد سجنه وسجن أحقر العفاريت وأقذرها وأصغرها، ثم إن الصياد ذهب بالقمقم إلى جهة البحر، فقال له العفريت:

- لا، لا.

فقال الصياد:

- لابد، لابد.

فلطف المارد كلامه وخضع وقال:

- ما تريد أن تصنع بى ياصياد؟

قال:

- ألقيك فى البحر.. إن كنت أقمت فيه ألفاً وثمانمائة عام فأنا أجعلك تمكث إلى أن تقوم الساعة، أما قلت لك أبقينى يبقيك الله ولا تقتلنى يقتلك الله فأبيت قولى وما أردت إلا غدرى فألقاك الله فى يدى فغدرت بك.

فقال العفريت:

- افتح لى حتى أُحسن إليك

فقال له الصياد:

- تكذب يا ملعون، لو أبقيتنى كنت أبقيتك، لكن ما أردت إلا قتلى فأنا أقتلك محبوساً فى هذا القمقم، وألقيك فى هذا البحر.

ثم صرخ المارد وقال:

ـ بالله عليك أيها الصياد لا تفعل وأبقنى كرماً ولا تؤاخذنى بعملى، فإذا كنت أنا مسيئاً كن أنت محسناً.

فقال الصياد:

ـ لابد من إلقائك فى البحر ولا سبيل إلى إخراجك منه فإنى كنت استعطف وأتضرع إليك وأنت لا تريد إلا قتلى من غير ذنب استوجبته منك، ولا فعلت معك سوءاً قط ولم أفعل معك إلا خيراً، لكونى أخرجتك من السّجن، فلما فعلت معى ذلك، علمت أنك ردىء الأصل، وأعلم أننى ما رمتيك فى هذا البحر، إلا لأجل أن كل من أطلعك أخبره بخبرك، وأحذره منك فيرميك فيه، ثانياً فتقيم فى هذا البحر إلى آخر الزمان حتى ترى أنواع العذاب.

فقال العفريت:

ـ أطلقنى فهذا وقت المروءات وأنا أعاهدك أنى لم أسؤك أبداً بل أنفعك بشىء يغنيك دائماً.

فأخذ الصياد عليه العهد أنه إذا أطلقه لا يؤذيه أبداً، بل يعمل معه الجميل فلما استوثق منه بالإيمان والعهود وحلفه باسم الله الأعظم فتح له الصياد فتصاعد الدخان حتى خرج وتكامل فصار عفريتاً مشوه الخلقة ورفس القمقم فى البحر.

فلما رأى الصياد أنه رمى القمقم فى البحر أيقن بالهلاك وبال فى ثيابه، وقال هذه ليست علامة خير، ثم أنه قوى قلبه وقال:

ـ أيها العفريت لقد أمرنا الله تعالى أن نوفى بالعهد، وأنت قد عاهدتنى وحلفت أنك لا تغدر بى فإن غدرت بى، يجزك الله فإنه يمهل ولا يهمل.

فضحك العفريت ومشى قدامه وقالك

ـ أيها الصياد اتبعنى.

فمشى الصياد وراءه وهو لم يصدق بالنجاة إلى أن خرجا من ظاهر المدينة وطلعا على جبل ونزلا إلى برية متسعة وإذا فى وسطها بركة ماء، فوقف العفريت عليها وأمر الصياد أن يطرح الشبكة ويصطاد، فنظر الصياد إلى البركة، وإذا بهذا السمك ألواناً، الأبيض والأحمر والأزرق والأصفر، فتعجب الصياد من ذلك ثم أنه طرح شبكته وجذبها فوجد فيها أربع سمكات، كل سمكة بلون، فلما رآها الصياد فرح، فقال له العفريت:

- ادخل بها إلى السلطان وقدمها إليه، فإنه يعطيك ما يغنيك وبالله أقبل عذرى فأننى فى هذا الوقت لم أعرف طريقاً وأنا فى هذا البحر مدة ألف وثمانمائة عام، ما رأيت ظاهر الدنيا إلا فى هذه الساعة ولا تصطد منها كل يوم إلا مرة واحدة واستودعتك الله.

ثم دق الأرض بقدميه فانشقت وابتلعته، ومضى الصياد إلى المدينة متعجباً مما جرى له مع هذا العفريت، ثم أخذ السمك ودخل به منزله وأتى بمأجور ثم ملأه ماء وحط فيه السمك فاختبط السمك من داخل المأجور فى الماء ثم حمل المأجور فوق رأسه وقصد به قصر الملك كما أمره العفريت.

فلما طلع الصياد إلى الملك وقدم له السمك تعجب الملك غاية العجب من ذلك السمك الذى قدمه إليه الصياد لأنه لم ير فى عمره مثله صفة ولا شكلاً، فقال:

- ألقوا هذا السمك للجارية الطباخة.

وكانت هذه الجارية قد أهداها له ملك الروم منذ ثلاثة أيام وهو لم يجربها فى طبيخ فأمرها الوزير أن تقليه، وقال لها:

- ياجارية إن الملك يقول لك ما ادخرت دمعتى إلا لشدتى ففرجينا اليوم على طهيك وحسن طبيخك فإن السلطان جاء إليه واحد بهدية.

ثم رجع الوزير بعدما أوصاها فأمره الملك أن يعطى الصياد أربعمائة دينار فأعطاه الوزير إياها فأخذها فى حجره وتوجه إلى منزله لزوجته، وهو فرحان مسرور ثم اشترى لعياله ما يحتاجون إليه.

هذا ما كان من أمر الصياد.

وأما ما كان من أمر الجارية فإنها أخذت السمك ونظفته ورصته فى الطاجن، ثم أنها تركت السمك حتى استوى وجهه وقلبته على الوجه الثانى، وإذا بحائط المطبخ قد انشقت وخرجت منها صبية رشيقة القد أسيلة الخد كاملة الوصف كحيلة الطرف بوجه مليح وقد رجيح، لابسة كوفية من خز أزرق وفى أذنيها حلق وفى معاصمها أساور وفى أصابعها خواتيم بالفصوص المثمنة وفى يدها قضيب من الخيزران فغرزت القضيب فى الطاجن وقالت:

- يا سمك يا سمك هل أنت على العهد القديم مقيم؟

فلما رأت الجارية هذا غشى عليها وقد أعادت الصبية القول ثانياً وثالثاً فرفع السمك رأسه فى الطاجن وقال: نعم، نعم ثم قال جميعه هذا البيت:

إن عدت عدنا وإن وافيت وافينا   وإن خرجت فإنا قد تكافينا

فعند ذلك قلبت الصبية الطاجن وخرجت من الموضع الذى دخلت منه والتحمت حائط المطبخ ثم أقامت الجارية فرأت الأربع سمكات محروقة مثل الفحم الأسود، فقالت تلك الجارية من أول غزوته حصل كسر عصبته فبينما هى تعاتب نفسها، وإذا بالوزير واقف على رأسها، وقال لها:

- هاتى السمك للسلطان.

فبكت الجارية وأعلمت الوزير بالحال، فأرسل الوزير إلى الصياد فأتوا به إليه، فقال له:

- أيها الصياد لابد أن تجيب لنا بأربع سمكات مثل التى جئت بها أولاً.

فخرج الصياد إلى البركة وطرح شبكته ثم جذبها وإذا بأربع سمكات، فأخذها وجاء بها إلى الوزير، فدخل بها الوزير إلى الجارية وقال لها:

- قومى اقليها قدامى، حتى أرى هذه القضية.

فقامت الجارية وأصلحت السمك، ووضعته فى الطاجن على النار فما

استقر إلا قليلاً وإذا بالحائط قد انشقت، والصبية قد ظهرت وهى لابسة ملبسها وفى يدها القضيب فغرزته فى الطاجن وقالت:

- يا سمك هل أنت على العهد القديم مقيم، فرفعت السمكات رؤوسها وأنشدت هذا البيت:

إن عدت عدنا وإن وافيت وافينا وإن خرجت فإنا قد تكافينا

فعند ذلك قام الوزير وقال: هذا أمر لا يمكن إخفاؤه عن الملك، ثم أنه تقدم إلى الملك وأخبره بما جرى قدامه فقال:

- لابد أن أنظر بعينى.

فأرسل إلى الصياد وأمره أن يأتى بأربع سمكات مثل الأول وأمهله ثلاثة أيام، فذهب الصياد إلى البركة وأتاه بالسمك فى الحال، فأمر الملك أن يعطوه أربعمائة دينار، ثم التفت الملك إلى الوزير وقال له:

- سو أنت السمك هاهنا قدامى.

فقال الوزير:

- سمعاً وطاعة.

فأحضر الطاجن ورمى فيه السمك بعد أن نظفه، ثم قلبه وإذا بالحائط قد انشق وخرج منه عبد أسود كأنه ثور من الثيران أو من قوم عاد وفى يده فرع من شجرة خضراء، وقال بكلام فصيح مزعج: يا سمك يا سمك هل أنت على العهد القديم مقيم؟ فرفع السمك رأسه من الطاجن وقال: نعم وأنشد هذا البيت:

إن عدت عدنا وإن وافيت وافينا وإن خرجت فإنا قد تكافينا

ثم أقبل العبد على الطاجن وقلبه بالفرع إلى أن صار فحماً أسود، ثم ذهب العبد من حيث أتى، فلما غاب العبد عن أعينهم قال الملك:

- هذا أمر لا يمكن السكوت عنه، ولابد أن هذا السمك له شأن غريب، فأمر

بإحضار الصياد، فلما حضر قال له:

ـ من أين هذا السمك؟

فقال له:

ـ من بركة بين أربعة جبال وراء هذا الجبل الذى يظاهر مدينتك.

فالتفت الملك إلى الصياد وقال له:

ـ مسيرة كم يوم.

قال له:

ـ يا مولانا السلطان مسيرة نصف ساعة.

فتعجب الصياد وأمر بخروج العسكر من وقته مع الصياد فصار الصياد يلعن العفريت وساروا إلى أن طلعوا الجبل ونزلوا منه إلى برية متسعة لم يروها مدة أعمارهم والسلطان وجميع العسكر يتعجبون من تلك البرية التى نظروها بين أربعة جبال والسمك فيها على أربعة ألوان أبيض وأحمر وأصفر وأزرق.

فوقف الملك متعجباً وقال للعسكر ولمن حضر:

ـ هل أحد منكم رأى هذه البركة فى هذا المكان؟

فقالوا جميعهم:

ـ لا.

فقال الملك:

ـ والله لا أدخل مدينتى ولا أجلس على تخت ملكى حتى أعرف حقيقة هذه البركة وسمكها.

ثم أمر الناس بالنزول حول هذا الجبال فنزلوا، ثم دعا بالوزير وكان وزيراً عاقلاً عالماً بالأمور، فلما حضر بين يديه قال له:

- إنى أردت أن أعمل شيئاً فأخبرك به وذلك أنه خطر ببالى أن أنفرد بنفسى فى هذه الليلة وأبحث عن خبر هذه البركة وسمكها، فاجلس على باب خيمتى وقل للأمراء والوزراء والحجاب: إن السلطان متشوش وأمرنى أن لا أسمح لأحد فى الدخول عليه ولا تعلم أحداً بقصدى.

فلم يقدر الوزير على مخالفته.

ثم إن الملك غير حالته وتقلد سيفه وانسل من بينهم ومشى بقية ليله إلى الصباح، فلم يزل سائراً، حتى اشتد عليه الحر فاستراح ثم مشى بقية يومه وليلته الثانية إلى الصباح فلاح له سواد من بعد ففرح وقال:

- لعلى أجد من يخبرنى بقضية البركة وسمكها.

فلما قرب من السواد وجده قصراً مبنياً بالحجارة السود مصفحاً بالحديد وأحد شقى بابه مفتوح والآخر مغلق.

ففرح الملك ووقف على الباب ودق دقاً لطيفاً فلم يسمع جواباً، فدق ثانياً وثالثاً فلم يسمع جواباً، فدق رابعاً دقاً مزعجاً فلم يجبه أحد، فقال لا بد أنه خال، فشجع نفسه ودخل من باب القصر إلى دهليز ثم صرخ وقال:

- يا أهل القصر إنى رجل غريب وعابر سبيل، هل عندكم شىء من الزاد؟

وأعاد القول ثانياً وثالثاً فلم يسمع جواباً، فقوى قلبه وثبت نفسه ودخل من الدهليز إلى وسط القصر فلم يجد فيه أحد، غير أنه مفروش وفى وسطه فسقية عليها أربعة سباع من الذهب تلقى الماء من أفواهها كالدر والجواهر وفى دائرة طيور وعلى ذلك القصر شبكة تمنعها من الطلوع، فتعجب من ذاك وتأسف حيث لم ير فيه أحد يستخبر منه على تلك البركة والسمك والجبال والقصر، ثم جلس بين الأبواب يتفكر وإذا هو بأين من كبد حزين فسمعه يترنم بهذا الشعر:

لما خفيت ضنى ووجدى قد ظهر ... والنوم من عينى تبدل بالسهر

ناديت وجداً قد تزايد بى الفكر ... يا وجد لا تبقى على ولا تذر

فلما سمع السلطان ذلك الأنين نهض قائماً وقصد جهته فوجد ستراً مسبولاً على باب مجلس فرفعه فرأى خلف الستر شاباً جالساً علي سرير مرتفع عن الأرض مقدار ذراع، وهو شاب مليح بقد رجيح ولسان فصيح وجبين أزهر وخدا أحمر وشامة على كرسى خده كترس من عنبر.

ففرح به الملك وسلم عليه والصبى جالس وعليه قباء حرير بطراز من ذهب لكن عليه أثر الحزن، فرد السلام على الملك وقال له:

- يا سيدى اعذرنى عن عدم القيام.

فقال الملك:

- أيها الشاب أخبرنى عن هذه البركة وعن سمكها الملون وعن هذا القصر وسبب وحدتك فيه وما سبب بكائك؟

فلما سمع الشاب هذا الكلام نزلت دموعه على خده وبكب بكاء شديداً، فتعجب الملك وقال:

- ما يبكيك أيها الشاب؟

فقال:

- كيف لا أبكى وهذه حالتى.

ومد يده إلى أذياله فإذا نصفه التحتانى إلى قدميه حجر ومن صرته إلى شعر رأسه بشر.

ثم قال الشاب:

- اعلم أيها الملك أن لهذا أمراً عجيباً لو كتب بالإبر على آفاق البصر لكان عبرة لمن اعتبر، وذلك يا سيدى أنه كان والدى ملك هذه المدينة وصاحب هذه الجبال الأربعة أقام فى الملك سبعين عاماً ثم توفى والدى وتسلطنت بعده وتزوجت بابنة عمى وكانت تحبنى محبة عظيمة بحيث إذا غبت عنها لا تأكل ولا تشرب حتى ترانى، فمكثت فى عصمتى خمس سنين إلى أن ذهبت يوماً إلى

الحمام فأمرت الطباخ أن يجهز لنا طعاماً لأجل العشاء، ثم دخلت هذا القصر ونمت فى الموضع الذى أنا فيه وأمرت جاريتين أن يروحا على وجهى فجلست واحدة عند رأسى والأخرى عند رجلى وقد قلقت لغيابها ولم يأخذنى نوم غير أن عينى مغمضة ونفسى يقظانة.

فسمعت التى عند رأسى تقول للتى عند رجلى:

- يا مسعودة إن سيدنا مسكين شبابه وياخسارته مع سيدتنا الخبيثة الخاطئة.

فقالت الأخرى:

- لعن الله النساء الزانيات ولكن مثل سيدنا وأخلاقه لا يصلح لهذه الزانية التى كل ليلة تبيت فى غير فراشه.

فقالت التى عند رأسى:

- إن سيدنا مغفل حيث لم يسأل عنها.

فقالت الأخرى:

- ويلك وهل عند سيدنا علم بحالها أو هى تخليه باختياره بل تعمل له عملاً فى قدح الشراب الذى يشربه كل ليلة قبل المنام فتضع فيه البنج فينام فلا يشعر بما يجرى ولا يعلم أين تذهب ولا بما تصنع لأنها بعدما تسقيه الشراب تلبس ثيابها وتخرج من عنده فتغيب إلى الفجر وتأتى إليه وتبخره عند أنفسه بشىء فيستيقظ من منامه.

فلما سمعت كلام الجوارى صار الضياء فى وجهى ظلاماً وما صدقت أن الليل أقبل وجاءت بنت عمى من الحمام فمدا السماط وأكلنا وجلسنا ساعة زمنية نتنادم كالعادة ثم دعوت بالشراب الذى أشربه عند المنام فناولتنى الكأس فراوغت عنه وجعلت أشربه مثل عادتى ودلقته فى عبى ورقدت فى الوقت والساعة وإذا بها قالت:

- نم ليلتك لم تقم، والله كرهتك وكرهت صورتك وملت نفسى من عشرتك.

ثم قامت ولبست أفخر ثيابها وتبخرت وتقلدت سيفاً وفتحت باب القصر وخرجت.

فقمت وتبعتها حتى خرجت وشقت فى أسواق المدينة إلى أن انتهت إلى أبواب المدينة فتكلمت بكلام لا أفهمه فتساقطت الأقفال وانفتحت الأبواب وخرجت وأنا خلفها وهى لا تشعر حتى انتهت إلى ما بين الكيمان وأتت حصناً فيه قبة مبنية بطين لها باب فدخلته هى، وصعدت أنا على سطح القبة وأشرفت عليها فإذا بها قد دخلت على عبد أسود إحدى شفتيه غطاء وشفته الثانية وطاء وشفاهه تلقط الرمل من الحصى وهى مبتلى، وراقد على قليل من قش القصب فقبلت الأرض بين يديه، فرفع ذلك العبد رأسه إليها وقال لها:

- ويلك ما سبب قعودك إلى هذه الساعة كان عندنا السودان وشربوا الشراب وصار كل واحد بعشيقته وأنا ما رضيت أن أشرب من شأنك.

فقالت:

- ياسيدى وحبيب قلبى أما تعلم أنى متزوجة بابن عمى وأنا أكره النظر فى صورته وأبغض نفسى فى صحبته، ولولا أنى أخشى على خاطرك لكنت جعلت المدينة خراباً يصبح فيها اليوم والغراب وأنقل حجارتها إلى جبل قاف.

فقال العبد:

- تكذبين ياعاهرة وأنا أحلف وحق فتوة السودان وإلا تكون مروءتنا مروءة البيضان، إن بقيت تقعدى إلى هذا الوقت من هذا اليوم لا أصاحبك ولا أضع جسدى على جسدك، ياخائنة تغيبين على من أجل شهوتك يامنتنة يا أخت البيضان.

فلما سمعت كلامها وأنا أنظر بعينى ما جرى بينهما صارت الدنيا فى وجهى ظلاماً ولم أعرف روحى فى أى موضع، وصارت بنت عمى واقفة تبكى إليه

وتدلل بين يديه وتقول له:

- ياحبيبى وثمرة فؤادى ما أحد غيرك بقى لى فإن طردتنى يا ويلى يا حبيبى يا نور عينى.

ومازالت تبكى وتضرع له حتى رضى عليها ففرحت وقامت وقلعت الثياب وقالت له:

- يا سيدى هل عندك ما تأكله جاريتك؟

فقال لها:

- اكشفى اللقان فإن تحتها عظام فيران مطبوخة فكليها وقومى لهذه القوارة تجدين فيها بوظة فاشربيها.

فقامت وأكلت وشربت وغسلت يديها، وجاءت فرقدت مع العبد على قش القصب وتعرت ودخلت معه تحت فراشه فلما نظرت هذه الفعال التى فعلتها بنت عمى وهممت أن أقتل الاثنين فضربت العبد أولاً على رقبته فظننت أنه قضى عليه فشخر شخيراً عالياً فتحركت بنت عمى وقامت بعد ذهابى فأخذت السيف وردته إلى موضعه وأتت المدينة ودخلت القصر ورقدت فى فراشى إلى الصباح، ورأيت بنت عمى فى ذلك اليوم قد قطعت شعرها ولبست ثياب الحزن وقالت:

- يا ابن عمى لا تلمنى فيما أفعله، فإنه بلغنى أن والدتى توفيت وأن والدى قتل فى الجهاد، وأن أخوى أحدهما مات ملسوعاً والآخر رديماً فيحق لى أن أبكى وأحزن.

فلما سمعت كلامها سكت عنها وقلت لها:

- افعلى ما بدا لك فإنى لا أخالفك.

فمكثت فى حزن وبكاء وعددى سنة كاملة من الحول إلى الحول، وبعد السنة قالت لى:

ـ أريد أن أبنى فى قصرك مدفناً مثل القبة وأنفرد فيه بالأحزان اسميه بيت الأحزان.

فقلت لها:

ـ افعلى ما بدا لك.

فبنت لها بيتاً للحزن فى وسطه قبة ومدفناً مثل الضريح ثم نقلت العبد وأنزلته فيه وهو ضعيف جداً لا ينفعها بنافعة لكنه يشرب الشراب، ومن اليوم الذى جرحته فيه ما تكلم إلا أنه حى لأن أجله لم يفرغ فصارت كل يوم تدخل عليه القبة بكرة وعشياً وتبكى عنده، وتعدد عليه وتسقيه الشراب والمساليق ولم تزل على هذه الحالة صباحاً ومساء إلى ثانى سنة وأنا أطول بالى عليها إلى أن دخلت عليها يوماً من الأيام، على غفلة فوجدتها تبكى وتلطم وجهها وتقول هذه الأبيات:

عدمت وجودى فى الورى بعد بعدكم	فإن فؤادى لا يحب سواكم
خذوا كرماً جسمى إلى أنى ترتموا	وأين حللتم فادفنونى حذاكم
وإن تذكروا اسمى عند قبرى يجيبكم	أنين عظامى عند صوت نداكم

فلما فرغت من شعرها قلت لها وسيفى مسلول فى يدى:

ـ هذا كلام الخائنات اللاتى.

وأردت أن أضربها فرفعت يدى فى الهواء فقامت وقد علمت أنى أنا الذى جرح العبد ثم وقعت على قدميها وتكلمت بكلام لا أفهمه، وقالت:

ـ جعل الله بسحرى نصفك حجراً ونصفك الآخر بشراً.

فصرت كما ترى وبقيت لا أقوم ولا أقعد ولا أنا ميت ولا أنا حى.

فلما صرت هكذا سحرت المدينة وما فيها من الأسواق والغبطان وكانت مدينتنا أربعة أصناف مسلمين ونصارى ويهود ومجوس فسحرتهم سمكاً،

فالأبيض مسلمون والأحمر مجوس والأزرق نصارى والأصفر يهود وسحرت الجزائر الأربعة جبال وأحاطتها بالبركة، ثم أنها كل يوم تعذبنى، وتضربنى بسوط من الجلد مائة ضربة حتى يسيل الدم ثم تلبسنى من تحت هذه الثياب ثوباً من الشعر على نصفى الفوقانى.

فعند ذلك التفت الملك إلى الشاب وقال له:

ـ أيها الشاب زدتنى هماً على همى، وأين تلك المرأة؟

قال:

ـ فى المدفن الذى فيه العبد راقد فى القبة وهى تجفء له كل يوم مرة وعند مجيئها تجىء إلىّ وتجردنى من ثيابى وتضربنى بالسوط مئة ضربة، وأنا أبكى وأصيح ولم يكن فى حركة حتى أدفعها عن نفسى ثم بعد أن تعاقبنى تذهب إلى العبد بالشراب والمسلوقة بكرة النهار.

قال الملك:

ـ والله يافتى لأفعلن معك معروفاً أذكر به وجميلاً يؤرخونه سيراً من بعدى.

ثم جلس الملك يتحدث معه إلى أن أقبل الليل ثم قام الملك وصبر إلى أن جاء وقت السحر فتجرد من ثيابه وتقلد سيفه ونهض إلى المحل الذى فيه العبد فنظر إلى الشمع والقناديل ورأى البخور والأدهان ثم قصد العبد وضربه فقتله ثم حمله على ظهره ورماه فى بئر كانت فى القصر، ثم نزل ولبس ثياب العبد وهو داخل القبة والسيف معه مسلول فى طوله، فبعد ساعة أتت العاهرة الساحرة وعند دخولها جردت ابن عمها من ثيابه وأخذت سوطاً، وضربته فقال:

ـ آه يكفينى ما أنا فيه فارحمينى.

فقالت:

ـ هل كنت أنت رحمتنى وأبقيت لى معشوقى؟

ثم ألبسته اللباس الشعر والقماش من فوقه ثم نزلت إلى العبد ومعها قدح

الشراب وطاسة المسلوقة ودخلت عليه القبة وبكت وولولت وقالت:

ـ ياسيدى كلمنى ياسيدى حدثنى.

فخفض الملك صوته، وعوج لسانه وتكلم بكلام السودان وقال:

ـ آه لا حول ولا قوة إلا بالله.

فلما سمعت كلامه صرخت من الفرح وغشى عيها ثم أنها استفاقت وقالت:

ـ لعل سيدى صحيح.

فخفض صوته بضعف وقال:

ـ ياعاهرة أنت لا تستحقين أن أكلمك.

قالت:

ـ ما سبب ذلك؟

قال:

ـ سببه أنك طول النهار تعاقبين زوجك وهو يصرخ ويستغيث حتى أحرمتنى النوم من العشاء إلى الصباح، ولم يزل زوجك يتضرع ويدعو عليك حتى أقلقنى صوته ولولا هذا لكنت تعافيت فهذا الذى منعنى عن جوابك.

فقالت:

ـ عن إذنك أخلصه مما هو فيه.

فقال لها:

ـ خلصيه وأريحينا.

فقالت:

ـ سمعاً وطاعة.

ثم قامت وخرجت من القبة إلى القصر وأخذت طاسة ملأتها ماء ثم تكلمت

عليها فصار الماء يغلى بالقدر ثم رشته منها وقالت:

ـ بحق ما تلوته أن تخرج من هذه الصورة إلى صورتك الأولى.

فانتفض الشاب وقام على قدميه، وفرح بخلاصه وقال:

ـ أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ.

ثم قالت له:

ـ اخرج ولا ترجع إلى هنا وإلا قتلتك.

وصرخت فى وجهه.

فخرج من بين يديها وعادت إلى القبة ونزلت وقالت:

ـ ياسيدى اخرج إلى حتى أنظرك.

فقال لها بكلام ضعيف:

ـ أى شىء فعلتيه، أرحتتنى من الفرع ولم تريحينى من الأصل.

فقالت:

ـ ياحبيبى وما هو الأصل؟

قال:

ـ أهل هذه المدينة والأربع جزائر كل ليلة، إذا انتصف الليل يرفع السمك رأسه ويدعو علىّ وعليك فهو سبب منع العافية عن جسمى، فخلصيهم وتعالى خذى بيدى، وأقيمينى، فقد توجهت إلى العافية.

فلما سمعت كلام الملك وهى تظنه العبد، قالت له وهى فرحة:

ـ ياسيدى على رأسى وعينى بسم الله.

ثم نهضت وقامت وهى مسرورة تجرى وخرجت إلى البركة وأخذت من مائها قليلاً وتكلمت عليه بكلام لا يُفهم فتحرك السمك ورفع رأسه وصار آدميين فى

الحال، وانفك السحر عن أهل المدينة وأصبحت عامرة والأسواق منصوبة، وصار كل واحد فى صناعته وانقلبت الجبال جزائر كما كانت ثم إن الصبية الساحرة رجعت إلى الملك فى الحال وهى تظن أنه العبد، وقالت:

- ياحبيبى ناولنى يدك الكريمة أقبلها.

فقال الملك بكلام خفى:

- تقربى منى.

فدنت منه وقد أخذ صارمه وطعنها به فى صدرها حتى خرج من ظهرها ثم ضربها فشقها نصفين وخرج فوجد الشاب المسحور واقفاً فى انتظاره فهنأه بالسلامة وقبل الشاب يده وشكره فقال له الملك:

- تقعد فى مدينتك أم تجىء معى إلى مدينتى؟

- فقال الشاب:

- ياملك الزمان أتدرى ما بينك وبين مدينتك؟

فقال:

- يومان ونصف.

فعند ذلك قال له الشاب:

- إن كنت نائماً فاستيقظ إن بينك وبين مدينتك سنة للمجد وما أتيت فى يومين ونصف إلا لأن المدينة كانت مسحورة وأنا أيها الملك لا أفارقك لحظة عين.

ففرح الملك بقوله ثم قال: الحمد لله الذى منّ علىّ بك فأنت ولدى لأنى طول عمرى لم أرزق ولداً، ثم تعانقا وفرحا فرحاً شديداً، ثم مشيا حتى وصلا إلى القصر وأخبر الملك الذى كان مسحوراً أرباب دولته أنه مسافر إلى الحج الشريف فهيئوا له جميع ما يحتاج إليه ثم توجه هو والسلطان وقلب السلطان

ملتهب على مدينته حيث غاب عنها سنة، ثم سافر ومعه خمسون مملوكاً ومعه الهدايا، ولم يزالا مسافرين ليلاً ونهاراً سنة كاملة حتى أقبلا على مدينة السلطان.

فخرج الوزير والعساكر بعدما قطعوا الرجاء منه وأقبلت العساكر وقبلت الأرض بين يديه وهنأوه بالسلامة فدخل وجلس على الكرسى ثم أقبل على الوزير وأعلمه بكل ما جرى على الشاب، فلما سمع الوزير ما جرى على الشاب هنأه بالسلامة.

ولما استقر الحال أنعم السلطان على أناس كثيرين، ثم قال للوزير:

- علىَّ بالصياد الذى أتى بالسمك.

فأرسل إلى ذلك الصياد الذى كان سبباً لخلاص أهل المدينة فأحضره وخلع عليه وسأله عن حاله وهل له أولاد فأخبره أن له ابناً وبنتين فتزوج الملك بإحدى بنتيه وتزوج الشاب بالأخرى، وأخذ الملك الابن عنده وجعله خازندارا، ثم أرسل الوزير إلى مدينة الشاب التى هى الجزائر السود وقلده سلطنتها وأرسل معه الخمسين مملوكا الذين جاؤوا معه وكثيراً من الخلع لسائر الأمراء، فقبل الوزير يديه وخرج مسافرا واستقر السلطان والشاب، وأما الصياد فإنه قد صار أغنى أهل زمانه وبناته زوجات الملوك إلى أن أتاهم الممات.

■ ■ ■

البعروص والقملة

وجاء الليل والتف الصبية حول جدتهم وقال لها أصغرهم: سبحى علينا ياجدتى سبحونة البعروص والقملة فقالت لهم: حباً وكرامة واعتدلت فى جلستها وقالت:

هنا هاك الواحد والواحد الله فى سماه العالى وإلى البعروص والقملة رقوا رأس الرملة لقوا حبيبة بمبم.. طبخوها فى الصفرية.. وجاءت القملة لتذوق الطعام هل به ملح أم لا.. فضربها البعروص بالمعصاد فصارت تصيح وتقول: يا أهل القارة تحزموا بقرارة واركبوا حميرتكم النكارة تتكر على البسباسة فقالوا وراك يا البسباسة.

قالت أنا البسباسة والغنم تأكلنى..

قالوا وشبلاك يالغنم قالت:

أنا الغنم سكين تذبحنى..

قالوا وشبلاك يالسكين.؟!

قالت أنا السكين والنار تحمينى

قالوا وشبلاك يالنار.؟!

قالت أنا النار والمطر يطفينى

قالوا وشبلاك يالمطر

قال أنا المطر وأنبت العشب

قالوا وشبلاك يالعشب.؟!

قال أنا العشب والخيل ترعانى

قالوا وشبلاك يالخيل.؟!

قالت أنا الخيل والصبى يركبنى

قالوا وشبلاك يالصبى.؟!

قال أنا الصبى والموت يأخذنى

قالوا وشبلاك ياالموت

قال أنا الموت وأخمك وألمك وأضربك فى حضن أمك.

حاشية: هذه الأقصوصة لها مغزى وهى أن أمور هذا الكون مبنى بعضها على بعض ومترابطة الحلقات، بحيث ينشأ هذا عن هذا ويترتب على هذه تلك.. ولا محيص من ربط الأسباب بالمسببات والمغزى الثانى أن كل شىء نهايته الموت.. وتلك نهاية حتمية لا مفر منها.. ولا مطير عنها.

والمغزى الثالث أن الموت لغز تقف عنده جميع المحاولات، فلا مجال للنقاش والجدل.. ولا مكان للفلسفة والمماحكات.. بل لابد من تقبل هذا الواقع على علاته.. والوقوف عنده موقف العاجز الذى لا يستطيع تقديماً ولا تأخيراً ولا أخذاً ولا عطاء..

والمغزى الرابع أن ما فى هذا الكون يأكل بعضه بعضاً.. ويكون البقاء فيه للأقوى.. والأصلح، أما الضعيف فإنه مأكول وذاهب فى زحمة هذه الحياة.. وقد يجد الضعيف ما هو أضعف منه فيتسلط عليه..

وهكذا كل قوى فى هذا الكون فيه ما هو أقوى منه وكل ضعيف ففى الكون ما هو أضعف منه.. إنها سلسلة من القوى تتدرج صعوداً وهبوطاً لا مفر منه.. ولا فكاك من نتائجه التى تكون سارة بالنسبة للقوى وضارة بالنسبة للضعيف.. كما قال الشاعر العربى.

وسخط الضباء بما نالها تولد منه رضى الحابل!!

وحملت وكملت وفى أصبيع الصغير دملت.

أبوسالم مع الساحر الذى سَحَرَ زوجته

اجتمع الأطفال عند جدتهم وقال أحدهم: قصى علينا حكاية أبوسالم مع الساحر الذى سَحَر زوجته.. قالت الجدة: حباً وكرامة هنا هاك الواحد والواحد الله فى سماه العالى وإلى هنا هاك الرجل الذى تزوج زوجة جميلة أحبها.. وأحب طباعها.. وعاش بجانبها سعيداً مرتاحاً.. كأكرم زوج لأكرم زوجة.. ثم عرضت له حاجة تتطلب السفر إلى بلاد أخرى فأخبر زوجته بعزمه على السفر.. وذكر لها ما دعاه إلى هذا السفر.. فتمنت له زوجته الوفية سفراً موفقاً وعوداً حميداً.

أعد أبوسالم عدة السفر.. وحان وقت الرحيل.. فجاء يودع زوجته الوفية.. وقال لها: ما هى الهدية التى تريدين أن أتى بها لك من تلك المدينة التى أقصدها؟. فقالت إننى لا أريد إلا رجوعك بالسلامة.. ولا ينقصنى أى شىء.. فكل ما أريده عندى.. فألح عليها زوجها.. فقالت:

إذا كان لابد من هدية فلتكن خلخالاً صفته كذا وكذا ويعمله الصائغ الفلانى وذكرت له اسم صائغ مشهور بصنع أمثال هذه الحلية.. فقال لها زوجها: وهو كذلك.. وبدأ رحلته إلى تلك المدينة.. وترك قلبه وعواطفه لدى زوجته المحبوبة ووصل إلى المدينة المقصودة..

كان أول شىء بدأ به أن ذهب إلى هذا الصائغ وطلب منه أن يعمل هذا الخلخال وأعطاه المقاسات والمواصفات اللازمة.. واتفقا على القيمة.. واتفقا على موعد التسليم.. وزاد أبوسالم فى الثمن قليلاً ليرضى الصائغ فيجيد فى الصناعة بالقدر الذى يستطيعه.. وتعجب الصائغ من حرص أبى سالم على هذا الخلخال ومن كرم أبى سالم فى البذل فى سبيل هذا الخلخال.. وقال فى نفسه لولا أن صاحبة هذا الخلخال جميلة جداً.. لما وجهت إليها كل هذه العناية والحرص الشديد.

لهذا فقد وضع الصائغ فى الخلخال مادة سحرية لها مفعول مدهش، وليس لها لون ولا وزن ولا يلاحظها أبصر الناس بالصناعة.. وانتهى الوقت وانتهى عمل الخلخال بحيث صار غاية فى إتقان الصنعة.. وفى الجمال والرشاقة.. وأخذه أبوسامل ودفع بقية ثمنه بنفس سخية.

وانتهت أعماله فى هذه المدينة فشد الرحال عوداً على بدأ.. قافلاً إلى بلاده فوصل سالماً وقدم هذا الخلخال إلى زوجته الحبيبة فكشفت علافه فسرت به أيما سرور وكادت أن تطير من الفرح.. وحط الرجل رحاله، وهو سعيد مسرور بسعادة زوجته وسرورها.. فلما استقر فى البيت كان أول ما طلبه من زوجته العزيزة أن تلبس هذا الخلخال ليرى هل هو على الوجه المطلوب.. وهل القياس مضبوط؟ فلبست أول واحدة فكادت أن تطير..

ظن الزوج بادئ ذى بدء أن هذا من الفرح.. ولبست الثانية.. ومشت ثم ارتفعت عن الأرض قليلاً قليلاً.. إلى أن حلقت فى الجو وبُهت أبوسالم.. لقد طارت زوجته.. ولم يكن هناك فرصة لتقول له كلمة واحدة.. لقد طار قلبه وارتعدت أوصاله ولم يدر ماذا يصنع..إن فى الأمر شيئاً.. إنها لم تطر إلا عندما تم لها لبس الخلخال.. إذاً فالخلخال هو سبب طيرانها.

قد يكون الصائغ عمله على سحر.. أنه لا يشك فى هذا.. وكيف يصنع فى هذا الظرف الدقيق.. إنه يريد طريقاً مختصراً يسلكه لإنقاذ زوجته من هذا الصائغ.. فكيف يصنع..؟ وفكر فى الأمر ملياً.. وتذكر شخصاً كان يسمع عنه بأنه يتعاطى مثل هذه الأمور.. وقال أبوسالم فى نفسه: إنه لا يفل الحديد إلا الحديد.. والطير بالطير يصاد.. والساحر يحطم سحره بقوة ساحر مثله..

أسرع أبوسالم إلى هذا الرجل وقص عليه القصة.. وبذل له مكافأة سخيفة إذا هو أسرع لإنقاذ زوجته من هذا الصائغ المحتال فهدأ من روعه وقال له: صحيح أنه لدى معرفة بهذا الشىء إلا أننى لا أستعمله.. وأبرأ إلى الله أن أستعمله.. فقال أبوسالم: إنها ضرورة ملحة.. إنك إذا استعملته فى مثل هذه الظروف فتأكد أن الله

سيثيبك.. لأنك استعملته لجلب خير وصد شر.. أما استعماله فى الإضرار بالناس والتفريق بين المرء وزوجته.. فهذا لا شك أنه إثم عظيم..!!

سأل الرجل أبا سالم عن القصة فقصها عليه من أولها إلى آخرها.. وسأله عن اسم الصائغ وبلده فأخبره بذلك فعرفه.. فوعده خيراً وقال له: هل أنت مستعد الآن.. فأجابه أبوسالم بأنه مستعد فمشى الساحر إلى غرفة مجاورة فأخرج منها جذع نخل منحوت..

ركب الاثنان فى باطنه.. وقرأ عليه الساحر بعض الطلاسم.. فما كاد الساحر يتم قراءتها حتى تحرك الجذع بقدرة قادر قليلاً قليلا إلى أن حلق فى الفضاء.. وبعد فترة ليست طويلة وصل بهما الجذع إلى المدينة وانحط بهما فى مكان منزو من ضواحيها اخفيا فيه جذعهم.. ثم ذهب الاثنان سريعاً قاصدين بيت الصائغ.

وعندما وقفا عند الباب وقرعاه كلمهما من وراء الباب.. وقال لهما إننى مشغول وأن عليهما إذا كان لهما حاجة أن يعودا فى وقت لاحق.. فألحا عليه بأنهما يريدانه فى عمل مستعجل لا يقبل التأخير.. فأجابهما بأنه لا يستطيع أن يعمل أى شىء فى هذا اليوم وعليهما أن يعودا إليه غداً.

وأخيراً قال له الساحر: اخرج رأسك إلىَّ من النافذة لأقول لك كلمتى مشافهة ثما أذهب.. فأخرج الصائغ رأسه من النافذة وكان الساحر الثانى قد أعد فى يده حبتين من النوى.. فقذفه بهما بقوة وقال مخاطباً الصائغ: كن وعلاً.. فلصقت النواتان فى جانبى رأسه وصارت كل واحدة منهما قرناً امتد أحدهما إلى جهة اليمين وامتد الآخر إلى جهة الشمال.

صار الصائغ بهذا لا يستطيع أن يتحرك من مكانه.. لقد لصق بالنافذة وسمر فيها.. بفعل هذه القرون التى هى أكبر من النافذة.. فلا تدخل معها.. ولا تخرج منها..

عندئذ نفخ الساحر فى الباب فانفتح ودخلا الدار مسرعين وبحثا عن الزوجة المسكينة فوجدوها فى غرفة نوم الصائغ.. وسألها زوجها لعلك سالمة يا أم سالم..

فقالت: إننى سالمة.. فلم أصل إلا منذ بضع دقائق.. ولم ينل شيئاً بحمد الله.. فشكروا الله جميعاً على أنهم جاءوا فى الوقت المناسب وذهبوا إلى الصائغ فذل وتضرع وقال: استروا علىّ ستر الله عليكم.. وخذوا من مالى ما شئتم..

تعاهد الساحران على أن لا يستعمل الصائغ سحره فى إيذاء الناس والسطو على حقوقهم.. والتفريق بين محب وحبيبه أو بين زوج وزوجته.. وأخذت المواثيق الغليظة.. ففك أسر الصائغ..

أخذ الرجل زوجته وكلاهما لا يكاد يصدق بما جرى.. إنه أشبه ما يكون بالحلم.. أشبه ما يكون بالكابوس المزعج الذى يطرأ على النائم ثم لا ينفك منه إلا باليقظة.. ومشى الثلاثة إلى مكان الجذع، حيث أعادهم فى مثل لمح البصر إلى بلدتهم.. وسر الزوج من هذا الساحر الشهم النبيل.. وعرض عليه عروضاً مغرية لمكافأته على صنيعه.. بل معجزته التى قام بها فى خدمته.. فرفض بإباء وشمم.. وقال: إننى لم أفعل سوى الواجب.. وأنا لم أتعلم السحر إلا لهذه المشكلة وأمثالها.. من مشاكل السحرة الجهلة؛ الذين يستعملون سحرهم للإضرار بالناس.. وأخذ حقوقهم بطرق غير مشروعة..

كرر أبوسالم الشكر لهذا الساحر الشهم.. وعاش مع زوجته فى سعادة وصفاء.. وبعد فترة من الوقت رزق منها ابناً سماه سالماً.. وسر الوالدان بهذا الولد.! ونما وترعرع سالم إلى أن بلغ سن الدراسة فأدخله والداه فى المدرسة التى يديرها أمام البلدة.. ويقوم بتدريس جميع العلوم فيها.

رأى هذا الإمام نظافة سالم وإشراق وجهه وحسن هندامه.. وترتيبه لدروسه ولوقته.. فعزا ذلك كله فى نفسه إلى أم الطفل فأحبها من بعيد لبعيد!.. وسأل عنها من طرف خفى فقيل له: إنها فائقة الحسن والجمال.. بل تكاد تكون أجمل امرأة فى المدينة فدبت فى نفسه عوامل الطمع.. وعوامل الشهوة الحيوانية.. وجعل يتملق ابنها سالم ويحسن معاملته.. ويهدى إليه بعض الهدايا التى يحبها الأطفال وتحب الأطفال إلى من يقدمها إليهم.

واستمر هذا الإمام على ذلك فترة من الزمن.. إلى أن اطمأن إليه الطفل.. واطمأن هو إلى الطفل.. وفى ذات يوم قال هذا المدرس: إننى أريد منك أن تأتى إلى بشعرات من شعرات رأس أمك إذا مشطت شعرها.. ولا أريد أن يعلم بهذا أحد.. لا أمك ولا أباك.. فوعده الطفل بذلك.. كان الطفل ذكياً وعارفاً ببعض الأمور فدبت الشكوك والتساؤلات فى نفسه.. وقال: ماذا يريد هذا المدرس بشعرات أمى.. وأى علاقة له بهذه الشعرات.. وما هو الهدف من اقتنائه لها.. وقبل أن يقدم على هذه الخطوة.. أخبر أمه بما قال له هذا المدرس.. وقال إنه هددنى إذا لم آت له بشىء من هذا الشعر.. كما أنه أمرنى بأن يكون هذا سراً.. فقالت أم سالم.. إننى سوف أعطيك شيئاً من شعراتى مادام يريدها، فلا ضرر علينا من ذلك ولا خوف منه.!

ثم أخذت جلد خروف كان يستعمل كفراش فى أحد أركان المنزل، وأمرت عليه المشط حتى أخرج منه بضع شعرات فعطرتها ثم لفتها فى ورقة نظيفة وربطتها برباط وثيق وأعطتها ولدها سالما، وقالت: اعطه هذه الشعرات.. ولا تخبره أننى علمت بالأمر.. فأعطاه سالم تلك الشعرات فسر الأستاذ بهذا الانتصار..

جاء الزوج فأخبرته زوجته بما جرى.. فقال: احفظى هذا الجلد فى غرفة مغلقة الأبواب والنوافذ لنرى ماذا يكون من أمره.. وصبرا يوماً أو يومين.. ولم يشعرا ذات يوم إلا والجلد يطير فى داخل الغرفة يبحث عن منفذ لا يجده.. ويكرر المحاولة للخروج فلا يجد مخرجاً وتركا الأبواب والنوافذ مغلقة على هذا الجلد حتى جاء وقت الصلاة وتقدم إمام المسجد للصلاة بالناس وكان هو مدرس الأطفال.

عندئذ فتحوا الباب لهذا الجلد.. فخرج من الغرفة ثم من البيت مسرعاً.. وطار إلى أن حلق فوق المسجد ثم دخل واستمر فى الطيران حتى جاء عند الإمام وهو فى أثناء الصلاة فالتف عليه.. وجعل يتحرك حوله.. فتارة يصعد وتارة يهبط إلى أن شعر جميع المأمومين بما جرى فأتم صلاته سريعاً.. ثم انصرف إلى بيته عجلاً والجلد معه.. وهو لا يستطيع أن يعلل ما جرى للمأمومين، ولا أن يأتى لهم بأسباب معقولة لهذا الحادث الشاذ. ولما جاء الليل أخذ هذا الإمام أمتعته ورحل

عن هذه البلدة التى انكشف فيها أمره.

وهكذا يبقى الجمال مطارداً وفى حالة حرب دائمة.. مع حساد يريدون أن يحطموه ومنافسين يريدون أن يغلبوه.. وطامعين يريدون أن يمتلكوه.. ولا تقتصر هذه الحرب على الجميل نفسه.. أنها تمتد إلى من حوله.. وما حوله.. ومن تربطه بهم رابطة.. أن من يملك الجمال.. أو يقتنى الجمال يكون فى شغل شاغل عليه ووساوس دائمة تحوم حوله..

وقد تخلق أوهام الحب أموراً لا وجود لها.. ويبنى على هذه الشكوك والأوهام أمور من المتاعب التى لا حد لها ولا نهاية.. كما أن الجميل إذا كان يشعر بجمال نفسه يصبح فى دوامة من الرغبات الطائشة.. والاغراءات المتنوعة التى تجعل الجميل متقلباً متلوناً تتجاذبه شتى التيارات وتتنازعه شتى المطامع.. إلا من رحم ربك وقليل ما هم..

وكملت وحملت وفى أصيبع الصغير دملت.!!

■ ■ ■

أبوالحصين والذيب والأسد

يعتقدون فى الأوساط الشعبية أن الحيوانات والأشجار والأحجار كانت فى الزمن الماضى تتكلم، ولذلك فهناك أقاصيص كثيرة ومثيرة كلها تدور على حوار الحيوانات بعضها مع بعض وخصوماتها.. وحيلها ومكرها وكيف يخدع بعضها بعضاً ويوقع بعضها ببعض.. ولذلك فقد التف الأطفال حول جدتهم وطلب أحدهم أن تقص عليهم قصة أبوالحصين (الثعلب) والذيب والأسد.

وشرعت الجدة فى السرد فقالت:

أين أبوالحصين والذيب والأسد قد اجتمعوا ذات مرة فى وادٍ من أودية الصحراء.. واقترح عليهم أبوالحصين أن يذهبوا جميعاً للصيد على أن يكونوا شركاء فيما يصيدون.. واتفق الثلاثة على هذه الشراكة وعقدوا بذلك اتفاقاً يضمن لكل واحد من الشركاء الثلاثة حقوقه..!! كما يجنب الشركاء فيما بعد احتمال الاختلاف والخصومات التى لا جدوى منها إلا اضاعة الوقت وإرهاق الأعصاب.. وجلب العداوات التى قد تودى بحياة الشخص..

انطلق الثلاثة فى وادى من الوديان.. وجعلوا يتطلعون إلى الصيد ويترقبون المكاسب.. وبعد أن قطعوا مسافة طويلة لم يجدوا فيها شيئاً من الصيد.. وجد الذئب جُحر جربوع فاجتمع الثلاثة حول الجحر وتأكدوا أن الجربوع بداخله وتبادلوا الرأى فى كيفية صيده.. واتفق الثلاثة، على أن يكون الترتيب كالتالى: الذئب يمسك بالقاصعاء والأسد يدخل على الجربوع عوداً من الراهطاء حتى يظنها الجربوع حية فيخرج ويترك لها جُحره، أما دور الثعلب فهو أن يكون مترقباً مستعداً للركض وراء الجربوع إذا خرج من جُحره.. واللحاق به وصيده فإن الثعلب بقدرته على الروغان.. وسرعته فى الجرى.. هو الأحق بالقيام بهذا الدور..

تمت الخطة وأدخل الأسد العود على الجربوع من الراهطاء فخرج الجربوع من قاصعاء أخرى لم يعلموا بها.. وأطلق يديه ورجليه بالجرى السريع ولحق به الثعلب.. ولحق الاثنان بالثعلب ليكونا عوناً له إن احتاج الأمر إلى عون.. وكاد الثعلب أن يلحق بالجربوع ولكنه راغ يميناً فكان الثعلب أقدر منه على الروغان.. فراغ بسرعة فائقة فلم يستطع الجربوع الإفلات من الثعلب فوقع فريسة للغزاة الثلاثة وأخذوا الجربوع.. وواصلوا السير والبحث وترقب تحركات الصيد.. الذى إذا كان فى مأمن لزم مكانه وإن كان فى مكان مكشوف انطلق منه عدواً للفرار عن أعدائه واللجوء إلى مكان حصين إذا وجد.. أو فوت الأعداء بسرعة الجرى.. وبينما كان الثلاثة يراقبون تحركات الصيد نفج أرنب فانطلق الثعلب وراءه.. وانطلق الذئب عن يمينه وانطلق الأسد عن يساره.. وسدوا عليه الجهات الثلاث.. بحيث لا يستطيع الروغان يميناً ولا شمالاً وليس له مفر إلا من الامام.. ومن المعلوم أن الطالب أسرع من المطلوب.. فالطالب آمل والمطلوب يائس والطالب فرح.. والمطلوب حزين.. والطالب آمن والمطلوب خائف.. وهذه كلها عوامل فى صالح الطالب وضد المطلوب..

ثم من ناحية أخرى فالطلاب ثلاثة والمطلوب واحد.. والكثرة دائماً تغلب الشجاعة فما بالك بالطلاب إذا كان كل واحد منهم شجاعاً واستمر الهرب.. واستمر الطلب.. ولكن النتيجة كانت معروفة.. إلا أن اليأس يعطى قوة.. والحرص على الحياة يدفع إلى الكفاح إلى آخر نفس.. وطال الهرب وطال الطلب.. وبدأ الأرنب تخور قواه.. وتقل سرعته شيئاً فشيئاً..

أخذ الطلاب الثلاثة يقربون منه ويضيقون عليه الخناق من جهاته الثلاث.. وأخيراً خارت قوى الأرنب.. ولم تستطع يداه ورجلاه حمله.. فوقف منهوك القوى فالتف الطلاب الثلاثة حوله..

كان أول من وصل إليه الثعلب فقبض عليه من رقبته وضغط عليها ضغطة قوية أسلمت معها الروح.. وسبق اسلام الروح صرخة كانت مكتومة فى فم الأرنب.!! وأخذ الثلاثة صيدهم.. وواصلوا السير فى الصحراء.. والترقب لصيد جديد..

كان الأسد قد وكل النظر من الأمام إلى الثعلب والنظر من الشمال إلى الذئب.. أما النظر من اليمين فهو للأسد.. وواصل الثلاثة سيرهم.. وكاد اليأس أن يدب إلى نفوسهم فقد طال البحث.. ولم يعثروا على شيء.

وفى لحظة من اللحظات نهض غـزال من مكمنه.. وهرب منهم.. ولحق به الثعلب ولحق بالثعلب الأسد والذئب وكان الغزال فى مبدأ الأمر بعيداً عنهم.. وكادوا أن ييأسوا من اللحاق به.. لسرعة عدوه.. ولبعد المسافة فيما بينهم وبينه.. ولكن هذا الغزال هو الصيد الثمين الذى وجدوه منذ أن أصبحوا.. أما الصيد الذى معهم فهو صغير وحقير لا يشبع واحداً منهم.. وإذاً فلابد من مطاردة هذا الغزال.. وبذل أقصى الجهد فى اللحاق به وصيده مهما كلف الأمر من جهد.. ومن وقت..

وبذل الغزال جهده فى الهرب وبذل لاحقوه أكثر مما بذل وأخيراً أدرك الغزال الإعياء فقد طال المدى وتواصل الجهد فنفد رصيده من القوة.. وبدأ الغزال يجرى تارة ويلتفت إلى الخلف تارة أخرى ليرى أين يقع أعداؤه ولكن أعداءه يجرون خلفه.. وهم لا يكلون ولا يملون، وزاد هذا المنظر من وهن الغزال فى الجرى إلى أن وقف أخيراً بعد أن خارت قواه ولحقه الأعداء الثلاثة فأحدقوا به وهجم عليه الذئب.. ومزق حنجرته فسالت الدماء من أوداجه وأسلم الروح لبارئها وأسلم جسمه لهؤلاء الوحوش الثلاثة.. الذين أخذوه وضموه إلى صيدهم السابق..

وكان النهار قد آذن بالانتهاء.. ولم يبق فيه متسع للبحث عن صيد جديد فقرر الشركاء الثلاثة العودة إلى حيث كانوا فى الصباح.. فحملوا ما معهم من الصيد.. ورجعوا من حيث أتوا.

وصلوا إلى النقطة التى انطلقوا منها.. ووضعوا صيدهم بين أيديهم.. وجاء دور تقسيم الغنائم والأسلاب وهذا هو أخطر دور يمر به هؤلاء الشركاء الثلاثة فالضعفاء يريد كل واحد منهم من الغنيمة حقه وافياً، بينما الأقوياء يريدون أكثر من حقهم.. ومن هنا تنشأ المشكلة.. وتختلف الآراء والنظريات ويكون الخصام ثم الصدام.. ومن البديهى أن الضعيف هو الضحية فى مثل هذه المواقف.

وتقابل الثلاثة حول الصيد كل منهم ينتظر نصيبه.. ولكن الذئب وأبا الحصين كانا ساكنين منتظرين ما يقوله الأسد فهو رئيسهم شاؤوا أم أبوا، وله الكلمة الأولى والأخيرة فى هذا الموقف.. لا يحق لأحد منهم فى نظره أن يعترض ولا أن يتأفف أو يتضجر، وأما الاتفاق الذى وضع قبل الشروع فى هذه الشركة فهو حبر على ورق.. لا قيمة له فى نظر الأسد.. وإن كان شركاؤه يرون أن بنوده ملزمة بالتوزيع بالسوية إلا أن نظرة الأسد إلى تلك البنود تختلف عن نظرتهما.. فالبنود التى توافق مصالح الأسد لا ضير من تنفيذها، أما البنود التى تخالف رغبته وشهواته وقرمه إلى اللحم فتلك لا قيمة لها.. ولا مجال لبحثها أو الجدل فيها.

التفت الأسد إلى الذئب وقال له: أقسم الصيد بيننا فقال الذئب: الأمر أوضح من ذلك يامولاى.

فقال الأسد وكيف ذلك..؟!

فقال الذيب: الغزال لك والأرنب لى والجربوع لأبى الحصين فالتفت الأسد بكل جسمه إلى الذئب ونظر إليه نظرة كلها غضب وثورة، ولم يكن هناك مجال للبحث أو المناقشة والإقناع.. وقرع الحجة بالحجة وإنما هناك قوة الساعد والجنان.. فجمع الأسد قوته كلها ثم قفز إلى الذئب حتى صار أمامه وجهاً لوجه.. ولم يتحرك الذئب، بينما كان فى استطاعته أن يهرب وأن ينجو بنفسه من الأسد لأنه أسرع منه.. إلا أنه فى نظر نفسه لم يعمل خطيئة بالنسبة إلى الأسد ولم يذنب.. ولذلك فلا داعى للهرب.

لزم الذئب مكانه.. إلى أن قفز الأسد كما قلنا.. وقابله وجهاً لوجه.. ورفع يده إلى فوق.. وحتى تلك اللحظة لم يتصور الذئب أنه سوف يضربه.. وإنما ظن أنه سوف يداعبه ويمزح معه.. إلا أن الأسد جمع قوته كلها فى يده ثم أهوى بها على رأس الذئب.. فإذا هو قد فقد الحياة وتمدد على الأرض والدماء تسيل من رأسه ورقبته حيث مزقتها مخالب الأسد.

ثم التفت الأسد إلى أبى الحصين فى زهو وكبرياء وغطرسة وقال له أقسم

الصيد ياأبا الحصين..

فقال أبوالحصين وقد هاله المنظر.. وأرهبه ذلك الإجراء العنيف الذى حصل بالنسبة إلى الذئب:

إن الأمـر أوضح من ذلك ياسـيـدى.. فـالأرنب لفطورك والغـزال لعـشـائك.. والجربوع فـيمـا بين ذلك.. فتبسم الأسد راضـيـاً مسـروراً بهذه القـسـمة وتهللت قسمات وجهه وقال لأبى الحصين:

من علمك هذا القسم المنسمح؟!!

قال أبوالحصين: هذا الذئب المنسدح.!! (المدد على الأرض)

وهكذا تنتهى هذه الاتفاقية بتلك المأساة.. وتنفـذ بنودها بحسب رغـبـات الأقوياء.. وبحسب ما تقضى به شريعة الغاب..

وتنفض الشركة.. فيذهب أبوالحصين فى حال سبيله وقد أخذ درساً قاسياً علمه فى مستقبل حياته أن لا يأمن قوياً مهما أعطاه من العهود والمواثيق.. ما لم تكن هناك قوة رادعة.. تلزم الخارج عن الطريق السوى بالرجوع إليه..

وما لم تتوفر هذه القوة فإنه لا عبرة بالقيم ولا بالأخلاق.. ولا بموازين العدل.. ولا بالاتفاقيات التى تكون بديهية وقد تعارف عليها الصغار والكبار..

وحملت وكملت فى أصبيع الصغير دملت.!

■ ■ ■

مزنة مع العفريت

كان الجو فى هذه الليلة مدلهما والسماء ممطرة.. فأوى الأطفال إلى البيت مبكرين.. وجاءوا إلى جدتهم قبل أن تصلى صلاة المغرب طالبين منها أن تسرع فى سرد إحدى السباحين عليهم.. ولكنها طلبت منهم أن يصبروا حتى تصلى المغرب.. لأن صلاة المغرب لا تحتمل التأخير.. وهى مثل كسرة الجذمار وهو جذع عسيب النخلة.. أى إن وقت المغرب يأتى سريعاً ويذهب سريعاً.. فاضطر الأطفال مرغمين.. إلى الصبر..

انتهت الجدة من صلاتها.. وجاءت فتربعت بينهم.. وقالت لهم: أى قصة تريدون.؟ فسكتوا على غير عادة منهم، فقالت الجدة: هل أقص عليكم قصة مزنة مع العفريت..؟! فأجابوا بصوت واحد بالموافقة.. لأنهم يحبون قصص المغامرات والمفاجآت وصنع المعجزات.. يحبون هذه الأمور من كل قلوبهم.. ولذلك فلم تكد جدتهم تأتى باسم هذه القصة.. حتى أجابوا بصوت واحد بالموافقة.

وشرعت الجدة فى سرد الحكاية قائلة:

هنا هاك الواحد والواحد الله فى سماه العالى وإلى هنا هاك الحى من العرب.. وإلى معهم امرأة جميلة.. جميلة جداً اسمها مزنة.. وكان والدها يعتبر ثريًا.. فهو يملك عدداً من الجمال.. وفرقتين من الغنم وعبيداً يقومون برعى المواشى.. وخدمة أهل البيت.. وكانت مزنة هى الابنة المدللة المأخوذة الخاطر.. التى لا يرد لها أمر. ولا يرفض لها طلب..

وعندما بلغت مبلغ النساء جاء الخطاب إلى والدها من كل مكان؛ يطلبون يدها.. ويريدون الزواج بها؛ أولاً لجمالها وكمالها - وثانية للثروة التى يملكها والدها.. والتى سوف يكون مآلها كلها أو بعضها فى يوم من الأيام إلى مزنة.. ولهذا

كثر الخطاب.. وجاؤوا من كل مكان بعضهم يريدها لجمالها وخلالها الحميد.. وبعضهم يريد المال ويطمع فى الثروة.. وكان الوالد يرد الجميع رداً كريماً بعد أن يقوم بواجب الضيافة خير قيام.. ويعتذر بأن لها ابن عم هى مخطوبة له.. ومنتظرة إيابه.. من سفره.. فكان الكل يذهبون راضين شاكرين للوالد حسن ضيافته.. وكريم شيمه..

وكان لمزنة هذه جارية خاصة لخدمتها وجمل خاص تركب عليه عند التحول من مكان إلى مكان.. ولها خيمة خاصة تضع فيها فراشها وأدواتها الخاصة.. وفى يوم من الأيام ذهبت مع بعض صويحباتها إلى وادٍ من الوديان القريبة من بيوت الحى للنزهة.. واللعب.. الذى يكون بين الشابات.. ولا يردن أن يعلم به أحد.. لأن معظم الشيوخ والعجائز قد يرون فى كثير من أعمال التسلية أموراً مخلة بالآداب.. قادحة فى الشرف.

ولهذا فقد كانت هؤلاء الشابات كلما ضقن بالحى وأردن النزهة والتسلية تواعدن فى ساعة من الساعات.. ثم خرجن إلى هذا الوادى يلعبن فيه.. ويغنين ويركضن فى وهاده.. ويتسلقن جباله.. ويفعلن كلما يحلو لهن من ألعاب الطفولة.. بعيداً عن أعين المتزمتين.. من رجال الحى ونسائه الجامدين.. فإذا أشبعن غريزة الطفولة والشباب فيهن رجعن إلى بيوت الحى وكأن شيئاً لم يكن..

استمر عملهن هذا مدة طويلة من الزمن وكان يراقبهن فى ذلك الوادى عفريت.. مخيف.. وقد مال قلبه إلى مزنة وأحبها حباً عنيفاً.. وجعل يراقبها فى كل مرة ويتتبع حركاتها وسكناتها فلا يزداد بها إلا هياماً.. وفى يوم من أيام عبثهن فى هذا الوادى خلت مزنة بنفسها لقضاء بعض شأنها.. فتسلل إليها العفريت، واختطفها.. ووضعها بين جناحيه وحلق بها فى الجو.. إلى أن كادت الأرض أن تختفى عن بصرها ثم أهوى بها مسرعا، فوقع بها فى قصر عظيم له سور منيع مرتفع وباب من حديد.. وغرف متعددة.. وفى هذا القصر سراديب مظلمة.. هى بمثابة المخازن أو المخابئ عند الإحساس بالخطر.

وعندما نزل العفريت فى القصر تخلى عن شكله كطائر وتقمص جلد إنسان.. وأخذ بيد مزنة وهدأ من روعها.. وقال لها إنها سوف تكون سيدة هذا القصر العظيم.. بكل ما فيه من خدم وحشم.. وكنوز لا يعلم مقاديرها إلا الله.. وجعل هذا العفريت يتجول بمزنة فى هذا القصر الواسع الأرجاء وصار يحدثها أحاديث مسلية؛ لعلها يذهب بعض خوفها.

بعد أن انتهت الجولة.. ذهب بها إلى غرفة نظيفة مؤثثة تأثيثاً فاخراً وقال لها: هذه غرفتك الخاصة.. ونظرت إلى الغرفة فإذا هى فوق ما تتمنى.. ونظرت إلى جوانبها فإذا هى كلها خزائن للملابس والحاجات وفتحتها واحدة إثر واحدة.. فإذا هى مليئة بكل ما تطلبه المرأة من طيب وأدوات زينة.. وملابس وغيرها.

سرت مزنة بعض السرور بهذه المظاهر الخلابة التى تتوفر فى هذه الغرفة.. وقال لها العفريت: تعالى أريك غرفتى.. إنها بجوار غرفتك.. وأخذها بيدها وأدخلها فى حجرته فإذا هى مؤثثة تأثيثاً طيباً، وإذا جدرانها مغطاة بأنواع الأسلحة من سيوف وخناجر وبنادق وسكاكين ورماح وأقواس وسهام.. وفيها كل ما هب ودب من أنواع السلاح القديم والحديث..

وعندما انتهى من هذه المراسيم الأولية ذهب بها إلى غرفتها الخاصة.. وقال لها: خذى راحتك وحريتك واطلبى كلما تريدين.. كل ما تشتهين مما يوجد فى هذا القصر.. ثم تركها وانقلب إلى طائر كبير فطار إلى كبد السماء.. وتتبعته فى طيرانه حتى اختفى عنها.. فعادت إلى غرفتها ووطنت نفسها على الأمر الواقع.. وكيفت نفسها بحسب الظروف القاهرة التى تعيش فيها.

استمرت على هذه الحال أيامًا.. عرفت فيها وقت نوم العفريت وكيف ينام، وساعات نومه.. ومتى يذهب إلى الصيد وطلب المكاسب.. والخلاصة أنها عرفت كل دقيقة وجليلة من شؤونه الخاصة والعامة.

وفى يوم من الأيام أخذها هذا العفريت بيدها وجعل يدور بها فى مخازن هذا القصر العظيم.. فهذه غرفة مليئة بالذهب وتلك بالفضة.. وأخرى بأنواع الأقمشة:

من صوفية وقطنية وحريرية وأخيراً وصل بهما المطاف إلى غرفة مقفولة.. فقال لها العفريت هذه الغرفة إياك أن تدخليها أو تفتحيها.. أما بقية حجر هذا القصر وجميع ما فيه فهو تحت أمرك وفى متناول يدك..

وعندما أكد على مزنة بأن لا تدخل هذه الحجرة.. ذهب كل واحد منهما إلى غرفته وطال بها المقام فى هذا القصر وملت العيش فيه.. بين أربعة جدران.. لا ترى ولا تُرى.. أنها تأكل وتشرب.. ولا ينقصها شىء من أمور المعيشة، إلا أن الحياة الاجتماعية مفقودة تماماً.. وسئمت العيش هكذا وصارت تدور فى ردهات هذا القصر الواسع.. وأخيراً قالت لنفسها: لماذا لا أفتح هذه الغرفة فى غيبته فأوى ما فيها.

ماذا سيجرى؟، إنه لن يدرى، ودفعها حب الاستطلاع أو الفضول البشرى إلى أن تفتح هذه الحجرة وتدخلها.. فلما صارت فى وسطها هالها ما رأت من تلك الجثث المعلقة.. فهذه جثة رجل.. وتلك جثة أنثى.. وهذا جسم شاب وذاك جسم فتاة.. وهذه جثث حمير وجمال وشياه وماعز..

إنها مختلف الجثث معلقة بأرجلها.. وجافة من الدم والرطوبة.. جافة تماماً ولم تشم لهذه الجثث أى رائحة كريهة.. فلعله وضع عليها مادة سحرية تفصل الدم والرطوبة عنها بسرعة وتقتل أنواع الميكروبات التى يمكن أن تتوالد فيها.. إن هذا غير بعيد.

خرجت من هذه الغرفة مرعوبة خائفة.. أنها تخشى أن يأتى يوم يكون مصيرها فيه مثل مصير هذه الضحايا المعلقة.. وأخفت خبر دخولها.. وهدأت من روعها، حتى لا يلاحظ عليها العفريت أى علامة من علامات الذعر فيعلم أنها اكتشفت سره.. فضغطت على أعصابها.. وحاولت أن تبدو طبيعية كأنها لم تر شيئاً..

مرت أيام وهى على هذه الحالة من الذعر المكبوت.. والخوف المستتر.. وضاق بها القصر.. وسئمت من الاقامة فيه.. فأشرفت ذات يوم من السور وسرحت

بصرها فى الصحراء الواسعة التى تحيط بها.. وتمنت أن تتاح لها فرصة فى مستقبل الأيام؛ لكى تسرح وتمرح فيها كما كانت سابقاً..

وسمعت ذات مرة صوتاً فأنصتت.. فإذا هو صوت أحد عبيد والدها.. وإذا هو يردد هذه الكلمات: «جمل مزنة يحن حنيناً.. ما عاد يبى قرب القطين» وأنصتت بكل حواسها إلى الصوت.. وخالط قلبها سرور غامر بقرب الفرج.. وجعلت تنادى هى بصوتها النسوى الخافت وتردد هذه الكلمات:

«يامنادى شعفت فوادى وخليت الدمع على خدى بداد، ترى مزنة فى القصور البعادى» ضآلة الصوت فإن العبد أحس به إحساساً خفياً ولكنه لا يدرى أين مصدره فأعاد ترديد صوته الأول:

«جمل مزنة يحن حنيناً.. ما عاد يبى قرب القطين» فسمعت الصوت يقرب منها وأعادت كلماتها الأولى: «يا منادى شعفت فوادى وادعيت الدمع على خدى بداد ترى مزنة فى القصور البعادى..»

فسمع العبد الصوت أكثر من ذى قبل واستمر فى السير وترديد كلماته السابقة.

وأعادت مزنة كلماتها أيضاً واستمر العبد فى التقدم، وترديد تلك الكلمات واستمرت مزنة فى ترديد كلماتها.

وقرب العبد وعرف مصدر الصوت ومكانه.. ورأى هذا القصر المنيع الذى تقيم عمته مزنة بين جدرانه.. وكر راجعاً مسرعاً إلى مضارب الحى ليزف لهم البشرى.

ووصل العبد إلى مضارب الحى بوجه مشرق.. وفرحة غامرة وزف إليهم البشرى.. فتداولوا الرأى وقرروا أن يذهب أخو مزنة مع العبد إلى ذلك القصر.

أعد أخو مزنة عدته وركب فرسه.. وركب العبد فرساً أخرى وأسرعوا متجهين إلى القصر ووصلوا بالقرب منه.. فأخذ أخو مزنة عدته وطعامه وأمر العبد أن يعود بالفرسين إلى مضارب الحى.

دار الأخ دورة أو دورتين حول القصر فوجده منيعاً شامخ الأسوار.. وتكلم فى أحد جوانب القصر.. فسمعته أخته مزنة فأطلت عليه من أعلا السور وقالت له: إنه ينبغى أن يختفى بقرب القصر، لأن العفريت موجود فيه الآن.. وعليه أن يأتى فى ساعة أخرى حددتها له..

فاختفى الأخ فى مكان قريب منتظراً حلول الموعد المحدد.. ومر الوقت ثقيلاً طويلاً. بل إن الوقت بدا فى نظره وكأنه واقف لا يتحرك والأفكار والهواجس تعبث وتجول فى خاطره.. كيف سيلقى هنا العفريت..؟ وكيف سيراه؟ وما الطريقة التى سيتبعها فى القضاء عليه.. إنه قوى.. إنه جبار.. إنه ماكر.. إنه ساحر.. فكيف يستطيع أن يخدعه؟ فهو بالقوة البدنية أقوى منه.. وهو أيضاً بالقوة الفكرية متفوق عليه.. ولولا قوة فكره لما طار.. ولولا قوة جسمه لما استطاع حماية هذا القصر العظيم بمفرده.

إذاً فإنه سوف يقوم بمغامرة فقط.. قد تنجح والنجاح فيها ضعيف وقد تفشل وهذا الاحتمال الأخير هو الأقوى.

ومع هذه الأفكار والهواجس السوداء فإن أخا مزنة لم يتراجع ولم يفت ذلك فى عضده.. بل إنه صمم على خوض المعركة مهما كانت النتائج.. فإن كان نصيبه النصر فإنه يكون بهذا ضرب الرقم القياسى فى الإقدام والتضحية وقوة العزيمة.. وإن تكن الأخرى فلا عار عليه فيها، فقد بذل جهده وعمل ما يستطيعه وعلى المرء أن يسعى وليس عليه إدراك النجاح كما يقولون فى الأمثال.

وجاء الوقت المحدد ومشى بقوة وثبات إلى سور القصر.. ووقف حيث كان يقف سابقاً ونظر إلى فوق.. فرأى أخته من أعلا السور، وهى تدلى حبلاً إليه وعندما وصله طرف الحبل، نظر إلى أخته، فإذا هى تشير إليه بأن يصعد فأخذ عدته وعتاده وعلقهما فوق ظهره.. ثم صار يتسلق هذا الحائط الأصم الذى لا نافذة فيه ولا باب غير الباب الرئيس.

استمر فى الصعود وهو يكافح بيديه ورجليه وجميع عضلات جسمه.. وأخيراً

وصل إلى أعلا السور وهو لا يكاد يصدق أنه سيصل.. وقّبل أخته بين عينيها.. وسألها لعلها سليمة.. فقالت إذا سلم العود فالحال تعود وهذا شيء مقدر..! وأمر مكتوب فى الجبين.. وما كتب على الجبين لابد أن تراه العين.. وعلينا الآن أن لا نطيل الحديث.. بل علينا أن نستغل كل لحظة من اللحظات القادمة فى إعداد الخطة ورسم الطريق.. والاستعداد التام للقضاء على هذا الوحش اللعين.. الذى يفتك بالبشر فتكاً ذريعاً.. ويغير عليهم ويترصد غفلاتهم.. أننا إذا قضينا عليه لا نكون خدمنا أنفسنا فقط.

إننا نكون أرحنا البشرية من عدو كاسر يغير عليهم ويأخذ منهم، حيث لا يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم.

أخذت مزنة أخاها من يده وسارت به داخل القصر وأنفاسه مبهورة من آثار المجهود الذى بذله فى صعود السور.. وخلت مزنة بأخيها جانباً وقالت: إن العفريت الآن ليس موجوداً فى القصر؛ فقد ذهب يبحث عن صيد جديد من البشر.. وهو سوف يأتى فى الوقت الفلانى وحددت له الوقت.. ثم يخلع ملابسه وينام على سريره.. وهو لا ينام كما ينام البشر.. بل هو يغمض عينيه إذا استلقى فإذا استغرق فى النوم فتح عينيه.. وله سبعة رؤوس تبدأ برأس صغير.. ثم تتدرج الرؤوس الأكبر بعد الأصغر إلى أن تنتهى بالرأس الكبير البارز على الرؤوس كلها.

وعليك إذا أردت قتله أن تضرب الرأس الصغير.. يعنى أصغر الرؤوس.. ضربة واحدة فقط.. وإذا فعلت ذلك فإنه سوف يقول لك زد زاد الله فى أيامك فلو ضربته ثانية مع الرأس الصغير أو مع أحد الرؤوس الستة الباقية لعادت إليه الحياة.. ولكنه إذا قال لك زد زاد الله فى أيامك فقل ما علمتنى أمى الزوايد.. واتركه فإن ضربة واحدة على رأسه الصغير كافية للقضاء عليه.. والقتل يجب أن يكون بذلك السيف المعلق فى الحائط.. وأشارت إلى السيف حتى رآه.. وعلم بمكانه..

وعندما وصلت مزنة إلى هذا الحد من الإيضاح ورسم الطريق لأخيها.. قالت: إن الوقت قد حان لعودة العفريت.. فلم يبق إلا دقائق معدودات لوصوله.. وأن علينا

بعد رسم الخطة أن يتخذ كل واحد منا موقعه فى المعركة فاذهب أنت حالاً إلى مكان الاختفاء وكن شديد الحذر.. شديد المراقبة.. كثير الهدوء وضبط الأعصاب.

وهكذا كان فقد اختفى الأخ.. وبقيت مزنة فى مكانها المعهود انتظاراً لقدوم العفريت الذى يسير فى حياته بشكل منظم ودقيق لا يتغير ولا يتبدل.. وجاء العفريت فى موعده.. وكان كل شىء فى القصر يبدو طبيعياً كما عهده.. لم يحس بأى حركة.. ولم ير أى تغيير.. فقصد غرفته ودعا مزنة لمساعدته فى خلع ملابسه، ووضعها فى مكانها المعتاد. ثم استلقى على سريره.. وأغمض عينيه.. وهدأت حركته تماماً.

ذهبت مزنة لشؤونها الخاصة كما هى عادتها.. وفتح أخو مزنة عينيه وجعل يراقب الوضع بحذر ويقظة تأمين.. وجعل يستعيد تعليمات أخته واحدة واحدة.. ليتأكد من حفظها حتى يطبقها بدقة.. إن أى ارتباك أو هفوة فى هذه الساعات العصيبة ستودى بحياته وحياة أخته.. وسيكون مصيرهما الموت المحقق.. فهذه معركة حياة أو موت بالنسبة إلى كل من الطرفين.. ولا مجال للانهزام.. ولا مجال للتردد.

بدأ وقت المعركة يدنو قليلاً قليلاً.. وبدأت دقات قلب أخى مزنة فى الارتفاع.. إنه مقبل على معركة؛ القوى فيها غير متكافئة.. وأنها تعتمد كل الاعتماد على الحذر والحيطة.. وسرعة المفاجأة.. وصدق العزيمة وهدوء الأعصاب.. وبدأ قلب أخو مزنة يعود إلى حالته الطبيعية شيئاً فشيئاً.. وبدأ يعيش فى المعركة بحواسه.. ويألف جوها الموحش المخيف.. وبدأت ساعات العمل تقترب.. وبدأ أخو مزنة يستعد نفسانياً وجسمانياً.. لخوض المعركة.

وأخيراً رأى عينى العفريت تتفتحان وتسلل من مكمنه بحذر.. ومشى إلى الحائط الذى علق فيه السيف.. وجعل يده اليمنى على مقبضه.. ويده اليسرى على غمده.. ثم جره جراً خفيفاً أحدث صوتاً خفيفاً أيضاً.. فشعر العفريت بهذه الحركة وهو فى عز نومه.. وقال وهو لم يتحرك من سريره:

من هاللى عند السيف الحنان الرنان مقطع رؤوس الصبيان، فقالت مزنة مجيبة على تساؤله:ـ

أنا يا عمى أكحل عينى.. فسكت العفريت.. وعاد أخو مزنة فسل السيف قليلاً أيضاً.. فأحدث صوتاً.. فقال العفريت «من هاللى عند السيف الحنان الرنان مقطع رؤوس الصبيان؟!».

فقالت مزنة أنا ياعمى ألبس ثوبى.. فسكت العفريت واستمر فى سباته العميق.

وسل أخو مزنة بقية السيف فأحدث صوتاً فسأله العفريت قائلاً: «من هاللى عند السيف الحنان الرنان مقطع رؤوس الصبيان؟!» فقالت مزنة: أنا ياعمى ألبس خواتمى.. فسكت العفريت وغط فى نومه.. وهنا جاءت الساعة الحاسمة.. فمشى أخو مزنة بالسيف مسلولاً فى يده متجهاً إلى سرير العفريت وكان يعلم بموضع كل عضو من أعضائه.. ولاسيما رؤوسه السبعة.. فجاء يمشى بحذر شديد إلى أن وقف فى المكان المناسب الذى يمكنه منه أن يسدد الضربة القاضية لهذا الوحش الكاسر.

وقف أخو مزنة ليسترد أنفاسه.. ثم ألقى نظرة فاحصة ليتأكد من وقع ضربة السيف فى الرأس الصغير.. وعندما تجمعت له كل عناصر الفوز على خصمه أهوى بسيفه على ذلك الرأس الصغير فقطعه.. وثبت أخو مزنة فى مكانه ليرى رد الفعل.. فتحرك العفريت حركة خنيفة.. ثم هدأ وقال:ـ زدنى ضربة أخرى زاد الله فى أيامك..

فقال أخو مزنة:ـ ما علمتنى أمى الزوايد.. فبقى العفريت فى نومة أبدية لا يقوم بعدها إلى يوم الدين.. وركض الأخ إلى أخته وركضت الأخت إلى أخيها، ليهنئ كل واحد منهما أخاه بالفوز والخلاص.. من هذا العدو الجبار..

وتعانقا طويلاً وبكى كل واحد منهما بكاء متواصلاً.. هو مزيج من بكاء الفرح.. وبكاء النصر.. وبكاء الخوف والرعب الذى لا تزال بقاياه تخيم على نفسيهما.

وبعد هذا العناق الحار.. وتبادل عبارات التهنئة بهذا الانتصار.. أخذت مزنة يد أخيها وجعلت تدور به فى هذا القصر العظيم وتفتح خزائنه خزانة اثر خزانة.. فهذه خزانة جميع ما فيها ذهب.. وتلك أخرى جميع ما فيها فضة.. وأخرى كل ما فيها لؤلؤ ومرجان.. ورابعة مليئة بالأقمشة بجميع أنواعها.. ودهش الأخ من هذه الخزائن العظيمة المملوءة بالثروات الطائلة.. وذهب الأخ وجاء بعدة جمال حملوها بكل ما خف وزنه وغلى ثمنه.

ثم توجها إلى أهلهما.. وفى الطريق سأل الأخ أخته لعل العفريت لم ينل منها شيئاً فأجابته بأنه لم يعمل شيئاً.. وأنما استبقاها فى القصر كتحفة من التحف.. وكلون من الألوان اللطيفة التى تلطف جو ذلك القصر المملوء بالوحشة والجمود.. وكان هذا العفريت يعاملها طيلة مقامها عنده معاملة لطيفة.. كلها كرم وطيبة وتسامح.. إلا أنها مع تلك المعاملة اللطيفة كانت تشعر بالضيق والقلق وتترقب هذا اليوم الذى تخلصت فيه من تلك القيود الثقيلة التى تفرضها عليه إقامتها الجبرية بين تلك الأسوار العالية..

وسر الأخ بهذه المعلومات.. وتابع سيره وإياها إلى مضارب الأهل والعشيرة.. ووصلوا فجأة وعلى غير انتظار.. فكان فرح الحى بهم شديداً؛ فأقيمت معالم الأفراح.. وصار السؤال عن واقع الحال.. وصار الجواب بما حصل..

ونسج الخيال حول هذه الحادثة أنواعاً من الحديث، وألواناً من الخيالات والتخيلات.. وانتشرت قصة مزنة.. وتعددت جوانب روايتها وخرجت عن محيط العشيرة إلى المحيط المجاور.. وسارت بين الأقوال كمسير الأمثال وتناقلها الرواة.. وتحدث بها الثقات.. وعاش جميع أفراد العائلة فى سبات ونبات إلى أن جاءهم هادم اللذات ومفرق الجماعات..

وحملت وكملت وفى أصبيع الصغير دملت!!.

■ ■ ■

كليب ومهلهل

قال أحد الأطفال فى هذه الليلة للجدة قصى علينا سالفة كليب ومهلهل.. فقالت حباً وكرامة هنا هاك الواحد والواحد الله فى سماه العالى.. وإلى هنا قبيلة تنقسم إلى فرعين هما بكر وتغلب وكان يسود هذين الفرعين سيد مهاب مطاع ومحبوب فى عشيرته بفرعيها وهو كليب.. وكانت له مهابة عظيمة.. ومكانة عالية.. فى قومه ولدى أعدائه وخصومه فلا يجرأ أحد أن ينتهك شيئاً من حرماته.. ولا حرمات قومه وكان إذا حمى حمى لا بله ولا بل من يتعلق به لم يقرب هذا الحمى أحد.

وكان له أخ يقال له مهلهل لا يقل عنه أصالة وحنكة ودهاء.. إلا أنه لا يمكن أن يسود العشيرة اثنان ولا أن يجتمع فى مربط حصانين ولا فى غمد سيفين.. فترك مهلهل أمر العشيرة.. وقيادتها وسياستها لأخيه كليب وانصرف مهلهل إلى الأكل والشرب والملذات الجسدية.. وكان فى بعض الأحيان يواصل ليله بنهاره فى لهوه وعبثه وشرابه.. ثم يواصل النوم فلا يجرؤ أحد أن يفزعه.. ولا يستطيع أحد أن يتقدم لإيقاظه خوفاً من صولته.. ولأنه قد تقدم إليهم بإنذار مؤكد بأن لا يوقظه أحد، بل يترك إذا نام حتى يأخذ كفايته من النوم فيقوم بنفسه.

وسار على هذا المنوال زمناً طويلاً.. وحدث ذات يوم أن اضطر الحيان بزعامة كليب أن يرحلوا من المكان الذى كانوا يقيمون فيه إلى مكان آخر.. فشد القوم رحالهم.. وساقوا أموالهم ورحلوا وتركوا مهلهلاً فلم يجرؤ أحد على إيقاظه من نومه.. واستمر القوم فى المسير إلى أن وصلوا إلى المكان الذى يريدونه مساء وتطلع كليب إلى الوجوه ليرى أخاه معهم فلم يره.. وسأل عنه من يعرف أحواله، فقيل له إنها تركت عليه خيمته وهو نائم فيها.. وكان الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يوقظه بلا خوف هو أخوه كليب.

وإذاً فلابد من رجوع كليب إلى أخيه لإيقاظه.. فليس هناك من يجرؤ على هذا غيره.. وعاد الأخ إلى أخيه.. ووصل إلى المكان فوجد أخاه يغط فى نومه العميق.. فمشى حتى وقف عند رأسه وناداه باسمه.. مهلهل.. مهلهل.. فاستيقظ مهلهل مهتاجاً مذعوراً تظهر بوادر الشر على وجهه وقد كان مصمماً على أن يفتك بمن جرأ عليه وأيقظه من نومه كائناً من كان.. فلما رأى أنه أخوه كليب تراجع إلى حالته الطبيعية بسرعة.. وارتدى ملابسه بعجل.. ثم تقدم كليب أمامه وقال الحق بى.. فقد رحل الحى وسبقوك إلى مكان آخر.

مشى مهلهل خلف ناقة كليب مسافة ليست بالقصيرة.. حتى ظهر التعب عليه لأنه كان يسير حافياً.. فرمى إليه كليب نعليه وقال البسهما فلما لبسهما استراحت قدماه.. وقال «اثر الناعل راكب» أى حقاً إن الذى يلبس نعلين ويمشى فيهما كأنه راكب على راحلة.. ثم استمر بهما السير فترة طويلة.. والتفت كليب إلى أخيه فرأى أن التعب قد أخذ منه فنزل من فوق الراحلة وقال لأخيه مهلهل اركب.. فركب.. فلما استقر على ظهر الراحلة وأحس بالراحة بعد التعب الشديد قال: هذه الكلمة «اثر الراكب سلطان» أى حقاً أن الراكب سلطان أو كالسلطان فذهبت كلمتاه مثلين.

ووصل الإخوان الحى بأمان.. وحمى كليب حمى وجاءت ناقة لامرأة اسمها البسوس فى جوار بكر ودخلت فى حمى كليب فما كان منه إلا أن أخذ سهماً من كنانته ورمى به ضرع ناقة البسوس فاختلط دمها بحليبها.. فذهبت الناقة إلى صاحبتها وهى على هذه الحالة.. وكانت هذه هى الناقة الوحيدة التى تملكها.. وهى الأمل الذى تتعلق به فى مستقبل الأيام.. فى نتاجها وحليبها.. وعندما رأت منظر ناقتها وهى بهذه الحالة صاحت بأعلى صوتها وبلا شعور فقد فقدت شعورها وفقدت السيطرة على نفسها وقالت كلمتها المشئومة.

واذلاه.. يالبكر.. فسمعها كل من فى الحى وتجمعوا إليها وجاء جساس وهو رجل شجاع من بكر وأخته قد تزوجها كليب فأخذ العجوز بيدها.. وانتحى بها ناحية خالية.. وقال لها اهدئى.. ولا تثيريها حرباً عواناً بين بكر وتغلب واطلبى منى ما شئت.. فقالت إنه العار الذى لا يغسله الماء.. وأنه الذل الذى ليس بعده ذل!! لقد

انتهكت حرمتى وقتلت ناقتى التى لا أملك غيرها.. والتى لا يعد لها فى نظرى عشرات من أمثالها.. ولذلك فأنا لن أقبل بها بديلاً.

حاول معها محاولة اثر محاولة!! ولكنها لم ترض إلا بالثأر مهما كانت النتائج حتى ولو كانت الحرب بين الحيين بكر وتغلب.. فوعدها جساس خيراً وقال إننى أريد منك شيئاً واحداً وهو أن تضبطى أعصابك إلى الغد.. وسوف أثأر لك ممن اعتدى على غلقك الوحيد النفيس!!

وجاء الغد وركب كليب على فرسه وذهب يتمشى فى أطراف الحى.. وابتعد قليلاً وكان جساس يرقبه.. فلما ابتعد عن الحى لحقه.. وفاجأه بطعنة أطاحته من فوق فرسه.. وأتبعها بأخرى حتى قضى عليه.. وجاء يعدو إلى عشيرته الأدنين.. وأخبرهم بما جرى.. فخاف القوم وانعزلت بكر عن تغلب.. وبدأ الفريقان يستعدون لحرب لا يعلم مداها إلا الله..!! بكر للدفاع وتغلب للأخذ بثأر رئيسهم وزعيمهم كليب.. وقال أحد رجال بكر: لماذا لا نرسل إلى مهلهل رسولاً يعرض عليه حلولاً عادلة للقضية؛ لعله يقبل واحداً منها فينجو الحيان من حرب مدمرة!! الغالب فيها خاسر كالمغلوب..

فاستحسنوا هذا الرأى.. وفكروا فى الحلول التى يمكن عرضها على مهلهل واستقر الرأى على عرض ثلاثة حلول لاختيار مهلهل واحداً منها.. وهى:

أن يدفع لهم القاتل جساس فيقتلونه بكليب.. وإما أن يختار أشرف رجل فى بكر فيقدم ويقتل فداء لكليب.. وإما أن يعطوه دية الإشراف مضاعفة.. والرابعة إذا لم يقبل واحدة من الثلاث هى الحرب:

وذهب واحد من بكر يعرض هذه الحلول الثلاثة.. وعرضت على مهلهل فقال: أنا ليس لى مطمع فى مال أتكثر به.. وإنما أريد سبع الشويهات البيض ليحتلبها ويعيش من ورائها بنات كليب.. وأريد القعود الأعفر لينتقلوا عليه من مكان إلى مكان.. ولا طلب لى غير هذين الأمرين.. فودعه الرسول ورجع إلى قومه.. فزف إليهم هذه البشرى.. وأن مهلهلاً رضى بدل دم أخيه بسبع شويهات بيض.. وبقعود

أعفر.

واجتمع كبار القوم لتداول الرأى.. وهل هذا عرض جاد أم هازل؟! وتشعبت الآراء وقال بعضهم: إن مهلهلاً رجل أبله وأن طلبه هذا يدل على بلهه.. ورجل بهذه الحالة لا يخشى منه.. وعندما انتهى المجتمعون من عرض آرائهم كان معهم رجل حكيم عجوز لم تتح له الفرصة بأن يتكلم أو لعله تأخر فى الكلام بعدهم ليعرف آراءها ويكون رأيه هو مسك الختام.. فتحرك الشيخ الحكيم وأراد وسيلة يلفت بها أنظار القوم إليه.. ويلفت انتباهم إلى ما سيقوله فلم ير أفضل من إطلاق ضرطة قوية يتركها تلعلع فى ذلك المجلس كجواب على هرائهم العقيم الذى سمعه..

وعندما سمع القوم تلك الضرطة؛ التفتوا جميعاً إلى الشيخ الحكيم وقالوا ماذا لديك.. فقال هذا الشيخ لقد ذهبتم عن الحقيقة التى أرادها مهلهل بعيداً.. وتصورتم تصورات خاطئة عن الرجل وعن موقفه منكم.. أن معنى كلامه هذا هو الحرب.. الحرب ولا شىء غير الحرب!!.

فقالوا وكيف! قال إنه يقصد بالشويهات البيض السبع بنات نعش ويقصد بالقعود الأعفر القمر.. فهل تستطيعون أن تعطوه القمر وبنات نعش؟! فقالوا لا.. فقال إذاً فما هى إلا الحرب فاستعدوا لها حتى لا تؤخذوا على غره.. فاقتنعوا بكلامه.. وساروا على ضوء رأيه.. ولم يشعروا بعد أيام قليلة إلا بالغارة عليهم من تغلب فكانت الحرب التى ولد المولود فيها وبلغ مبلغ الرجال واشترك فى معاركها.

واستمرت الحرب بين الحيين أربعين سنة!.. تارة تميل الكفة لبكر وأكثر الحروب كان الغلبة فيها لتغلب.. وكان لكليب بنات أكبرهن تدعى حمامة..

فكان مهلهل يقول فى حروبه؛ هذه الأبيات الشعرية أو هذا الكلام المسجوع:

ياحمامة باصرينى   أذبح فى كليب ألفين بعير

ولا تسوى أصبيعه الصغير

وأقسم مهلهل أن يقتل من بكر مائة رجل.. ثأراً لأخيه كليب ولما بلغ قتلاه من

تغلب تسعة وتسعين رجلاً توقفت الحرب بين الحيين توقفاً قهرياً لموت مهلهل فى الوقت الذى لم يف فيه بقسمه.. وتفرق الحيان فى البلاد بعد أن أنهكتهم الحرب.. وأكلت زهرة شبابهم.. وأهلكت أكثر مواشيهم.. ولكن الله أراد أن يحقق قسم مهلهل.. فبعد عام من الأسفار والرحيل عن مواطن المعارك.. عاد الحيان إلى مواطنهما..

ورأى رجل من بكر عظماً يلوح من عظام قتلى قبيلة تغلب.. فأخذ العظم وحاول أن يكسره فوق ركبته.. وعندما ضغط على العظم بركبته انكسر العظم ولكنها انفصلت منه شظية دخلت فى ركبة هذا الرجل.. فأحدثت جرحاً!! وتعفن الجرح!.. فأحدث تورماً.. وكبر التورم واتسع إلى أن تسمم الجسم كله فمات مقتولاً بشظية من شظايا عظام أحد القتلى من تغلب..

فكان قتيل العظم هو تمام المائة من بكر.. الذين أقسم مهلهل أن يقتلهم ثأراً بأخيه..

وكملت وحملت وفى أصبيع الصغير دملت!!

حاشية: هذه القصة بنصها وفصها يتناقلها الصغار عن الكبار فى الأوساط الشعبية بلفظها ومعناها وقد يكون فى بعض نقاطها ما يوافق ما كتبه المؤرخون عن حرب البسوس.. وما تفرع عنها من حروب.. وقد يكون هناك نقاط فيما يتناقله المواطنون تخالف ما سجله المؤرخون خلافاً سطحياً أو خلافاً جوهرياً.. فاقرأ هذه القصة أيها القارئ الكريم على أنها إحدى الأقاصيص الشعبية التى يتناقلها الخلف عن السلف.. وتقبلها على علاتها.. أو صحيح منها ما ترغب فى تصحيحه!!.

■ ■ ■

الأنسى الذى حاكمه الجن

فى هذه الليلة قالت إحدى الفتيات للجدة: قصى علينا ياجدتى سالفة الأنسى الذى هبط به الجن إلى أعماق الأرض لمحاكمته عندما قتل أحد أبنائهم.

فقالت الجدة: إننى قد لا أعرفها بجميع تفاصيلها.. فاقترحوا غيرها فقال الأطفال كلهم: لا نريد إلى هذه القصة.. فقالت سمعاً وطاعة.. سوف أقص عليكم ما أعرفه منها.. فوافق الأطفال على ذلك فشرعت قائلة: هناك هاك الواحد والواحد الله فى سماه العالى.. وإلى هنا هاك الرجال الفلاح الذى يدعى محمداً وكان محمد هذا فلاحاً ممتازاً يهتم بأرضه.. ويهتم بإصلاحها.. ويهتم بأشجارها.. وهو دائماً فى توسع.. وحديقته دائماً تكبر وتزداد حسناً وجمالاً.

وبالاختصار فقد كان فلاحاً ناجحاً ينظر إليه الناس نظرة تقدير واحترام.. وينظر إليه بعضهم نظرة حسد وكراهية.. فالناس دائماً تحقد وتحسد الناجح لا لجريرة جناها.. ولا لعدوان ارتكبه وإنما لأنه موفق فى حياته.. وفى مساعيه..

والمهم أن محمداً لاحظ أن كلباً أسود يقفز إلى حائطه ويحدث فيه أضراراً وتخريباً مستمراً.. فطرده أول مرة.. فعاد.. وطرده ثانية فعاد.. وطرده ثالثة فعاد.. وفكر فى وسيلة يتقى بها أضرار هذا الكلب الأسود ولكنه لم يجد وسيلة.. واستمر الكلب فى التخريب والعبث والفساد.. وحاول محمد أن يجد طريقاً لاتقاء شره فلم يجد..

وأخيراً وبعد أن أعيته الحيل فكر فى الحل الأخير وهو قتل هذا الكلب.. لأنه لا وسيلة إلى اتقاء شره إلا بقتله.. وصمم على هذا الأمر فأعد قوسه إعداداً طيباً وترقب الكلب فى مواعيد مجيئه وعبثه.. وعندما أبصر محمد هذا الكلب.. سمى بالرحمن الرحيم وكررها عدة مرات.. ثم أطلق السهم الأول فأصاب الكلب ولكنه لم

يقتله.. فأوتر قوسه للمرة الثانية ثم قرب من الكلب وأعاد ذكر اسم الله ثلاثاً كما فعل مع السهم الأول ثم أطلقه فقضى على الكلب قضاءً تاماً.

عاد محمد بعدها إلى منزله قرير العين مرتاح البال.. فقد قضى على هذا الحيوان الخبيث الذى يأكل ويخرب ويعبث فى مزرعته.. والذى لم تجد فيه أى حيلة.. ولم تدفع شره أية وسيلة.. وجاء الليل ونام الرجل فى منزله قرير العين.. ولكنه وهو فى أثناء النوم لم يشعر بنفسه إلا وقد هبط به إلى داخل الأرض.

كان الهبوط مبدئياً فى الأرض الأولى.. ثم هبط به إلي الأرض الثانية فالثالثة إلى السابعة أنه من نوع الاسراء.. ولكنه اسراء إلى أسفل كما قال الشاعر:

فيا له من عمل صالح يرفعه الله إلى أسفل

وعندما وصل الأرض السابعة كان يخفره حارسان لا يدرى محمد هل هذه الحراسة خوفاً منه أو خوفاً عليه.. وجروه من حيث لا يقدر على الدفاع عن نفسه إلى ملك الجن..

فرحب به كرجل غريب.. وهدأ من روعه.. فقد كان بصر محمد زائغاً ولونه ممتقعاً.. وأنفاسه متلاحقة.. وريقه جاف.. ولسانه منعقد.. وقلبه دائم الخفقان.. فقال له ملك الجان لا تخف يا محمد أننا مسلمون مثلكم.. ونحن نحكم بكتاب الله وسنة رسوله.. ونتحرى العدل فى أحكامنا.. ولا نرضى بالظلم ولا بالجور ولا بالتعدى على حقوق الغير.. والكلب الأسود الذى قتلت هو ولدى.

كان سئم من المقام عندى.. وطلب منى السماح له بالخروج على وجه الأرض للنزهة والتسلية فأذنت له.. ولكنى بعد أذنى له بفترة من الزمن.. فوجئت بخبر قتله على يديك.. وقد جئت بك لمحاكمتك فى محكمة شرعية تحكم بالشريعة المحمدية.

لقد كان فى الإمكان أن أعفو عنك.. ولكن هذا الشاب الذى قتلته.. له أقارب: اخوان واخوال وأعمام.. ولو تركت دمه يذهب هدراً لأمكن أن يتقولوا على شتى الأقاويل.. وأن ينسبوا إلىَّ شتى الاتهامات.. وشخص فى مثل مقامى تؤثر عليه هذه الأقاويل وتسىء إليه مثل هذه الاشاعات.. ولهذا فقد جئت بك لأسد أمامهم هذا

الطريق.. وثق أن المحاكمة سوف تكون نزيهة.. وأن الحكم سوف يكون عادلاً..

فاطمأن محمد بعض الشيء.. وأفرخ روعه.. وجعل يتصفح وجود القوم.. فيرى أشكالاً وألواناً من المخلوقات لا حد لها ولا عد.. فهذا وجهه مستطيل.. وذاك وجهه متعرج وهذا عيونه بالطول وذاك عيونه بالعرض.. أما شعورهم فهى واقفة تشكل قبة فوق جسم كل واحد منهم.. ونظر إلى منزل الملك فإذا هو بسيط للغاية.. ولكنه نظيف ومنظم تنظيماً دقيقاً والحراس فى قصر ملك الجان مفرقون فى الزوايا بكل زاوية فيها شخص منهم بكامل عدته وعتاده.

وقال الملك للحارسان: اذهبا به إلى المحكمة.. فإذا انتهت المحاكمة فأعيداه إلى.. وليكن الحكم له أو عليه معكما! فأخذاه بيده وسارا به بينهما.. فى شبه مظاهرة.. فقد وجد الشوارع مكتظة.. وسطوح المنازل ملأى.. ونوافذ المنازل تطل منها الرؤوس.. ينظرون إلى هذا الانسى.. الذى سوف يحاكم فى محكمة الجان.

شق الحارسان طريقهما إلى المحكمة بكل صعوبة.. والهتافات تصم أذنى محمد التى منها ما مؤداه: اقتلوه مزقوه أحرقوه.. ومنها ما يطلب العدل ويمجد الملك.. ويثنى عليه فى تحرى الصواب الحق بالنسبة إلى هذا الانسى الذى لا ناصر له إلا الله.

وصلوا إلى المحكمة بكل صعوبة.. ومثل محمد أمام القاضى وتلى قرار الاتهام واتبع بطلب انزال عقوبة الإعدام بهذا الشخص الواقف أمام القاضى.. وعندما انتهى المدعى العام من إلقاء اتهامه قال القاضى لمحمد هل لديك حجة تدافع بها عن نفسك.. وتنفى بها ما اتهمت به.. فوقف محمد على قدميه.. وقد عادت إليه ثقته بنفسه وألف تلك المناظر المفزعة.. فصارت بالنسبة إليه مناظر عادية.. لا تحرك فى نفسه أى عامل من عوامل الخوف والرهبة..

وقال محمد إننى أريد أن أدافع عن نفسى وأنفى بعض التهم الباطلة.. واعترف بالحق على نفسى وسوف أقص على فضيلة القاضى جميع ما جرى بصدق وأمانة.. وأوضح له موقفى من القتيل منذ أن ظهر على مسرح الحياة.. إلى أن أراد الله له

الوفاة..

قص محمد القصة على القاضى إلى أن جاء إلى نقطة مهمة فى المحاكمة.. هى ذكر اسم الله عند قتله ذلك الكلب.. فإذا كان محمد استعاذ بالله من هذا الكلب.. وذكر اسم الله عند قتله فإنه بذلك ينجو.. أما إذا كان قد أخل بهذا الأمر فإنه يكون مداناً لا محالة.. وينفذ فيه حكم الاعدام.. رمياً بالسهام.. وكان المدعى العام قد نفى نفياً قاطعاً أن يكون محمد قد ذكر اسم الله أو استعاذ بالله.. إلا أن محمداً أكد أنه ذكر اسم الله واستعاذ بالله عدة مرات.

وهنا جاء دور الشهود.. وقال القاضى هل لديك من يشهد لك بأنك استعذت وذكرت اسم الله عند قتله فقال لم يكن لدى شهود من بنى جنسى، إلا أن الأرض لا تخلو من شخص يقول كلمة الحق ويصدع بها غيرة على العدل وحرصاً على تنفيذ شرع الله الذى شرعه لضمان سير العدالة بين عباده..

وأردف محمد قائلاً: إننى أود من فضيلة القاضى أن يبعث منادياً ينادى: من كانت لديه شهادة عن مقتل فلان وكيف قتل وهذ استعيذ منه قبل قتله أم لا فليتقدم بها.. فاقتنع القاضى بوجهة نظر محمد ووجه منادياً ينادى فى الناس أن يحضر من كانت لديه شهادة بشأن هذا الحادث.. وجاء عدة أشخاص إلى المحكمة أدلوا بشهاداتهم التى مؤداها أن محمداً قد استعاذ بالله من القتيل عدة مرات.. وأنه قد ذكر اسم الله عند قتله..

تعدد الشهود بشهادات كان مؤداها كمؤدى شهادة الشاهد الأول.. وحكم القاضى بالبراءة وصدر الحكم حالاً.. وأخذه الخفيران معهما وتوجها به مع المتهم البرىء.. ودب الخبر إلى الجمهور الذى ينتظر خارج أسوار المحكمة.. وعلموا بالحكم النظيف العادل الذى لم تؤثر عليه قرابة القتيل للملك.. ولم تأخذهم فى الحق لومة لائم.

وعندما علم أفراد الشعب بهذا الحكم هتفوا جميعاً ليحى الملك ليحى العدل!! هتف بهذا الهتاف كل من حوله المحكمة.. فسمعه من حولهم فهتفوا به.. وهكذا

صار هذا الهتاف ينتقل من حلقة ضيقة إلى حلقة أوسع منها إلى أن عم المدينة كلها!.. ليحى الملك!! ليحى العدل!!.

ووصل الخفيران إلى الملك ومعهما المتهم وحكم المحكمة.. وقرئ الحكم على الملك فاقتنع بعدالته وأمر بأن تتخذ الترتيبات اللازمة لإعادة هذا المتهم إلى ظهر الأرض كما أخذ منها.. وأن يعامل معاملة كريمة، لأنه ثبت أنه لم يعتد ولم يخالف شيئاً من أوامر الشريعة الإسلامية..

ذهب الخفيران إلى وزير المواصلات وسلما المتهم إليه.. وبلغاه بأمر الملك.. فصدع بالأمر وجاء بوحش قوى شرس.. وقال للمتهم: عليك أن تركب على ظهر هذا الحيوان.. وكلما اجتاز بك طبقة من طبقات الأرض فاعطه قطعة من قطع اللحم السبع التى سوف نعطيكها..

فوافق الإنسى على ذلك وأخذ السبع القطع وركب على ظهر هذا الوحش.. بعد أن أكدوا عليه أن يحافظ على هذه السبع القطع فلا يعطى الوحش قطعة إلا بعد أن يجتاز به مرحلة أو طبقة من الأرض.. كما أنه يجب عليه أن يحذر من اعطاء الوحش أكثر من قطعة فى المرحلة الواحدة؛ لأنه إن فعل ذلك فقد اللحم قبل قطع المسافة.. وبهذا يتوقف الوحش عن السير.. فيفتك براكبه..!!

وسار الوحش براكبه فقطع أول مرحلة.. وأعطاه قطعة.. ثم قطع المرحلة الثانية فأعطاه القطعة الثانية والثالثة والرابعة واستخفه الفرح والسرور بقرب النجاة.. فأعطى هذا الوحش قطعتين فى مرحلة واحدة..

وصل الوحش به إلى الطبقة السادسة التى لا يبقى بعدها إلا مرحلة واحدة والتفت يريد قطعة اللحم.. ولكن اللحم كان قد نفد حيث أعطاه قطعتين فى آن واحد.. فقال هذا الانسى: إن اللحم قد نفد ولم يبق معى منه قليل ولا كثير.. فالتفت إليه الوحش ونظر إليه بكل شراسة وقسوة!! وقال له: «من زندك وإلا مت» فذهبت هذه الكلمة مثلاً.

عندما رأى جد الوحش وتصميمه.. أراد أن يضحى بالبعض لينقذ الكل، فأخذ

سكيناً كانت فى جيبه.. وأهوى بها على لحمة من عضده فقطعها.. وأعطاها الوحش فابتلعها.. وسار فى طريقه المرسوم حتى أخرج محمداً على وجه الأرض.. حيث أخذه فعاده محمد إلى أهله بعد غياب لا يدرى ما مقداره.. لأن ليله قد اختلط بنهاره..

وقص على أهله ما رأى وما سمع وصارت قصته حديث الناس.. وطرفة المجالس وزاد الناس فيها ونقصوا.. وصدق بها قوم وكذب بها آخرون.. وصارت عبرة للمعتبرين وعظة للمتعظين..

وكملت وحملت وفى أصبيع الصغير دملت!!



الحمار الهارب إلى الصحراء

يقال إن فلاحاً كان عنده حمار وهو لا يكاد يريح هذا الحمار.. كما أنه لا يعطيه كفايته من العلف.. فضعف الحمار وهزل وضاق بالحياة التى هو فيها.. وفضل الموت عليها.. فخرج إلى الصحراء هارباً وهو يعلم ما يتهدد حياته فى الصحراء من أخطار..

وعندما ابتعد عن البلدة قليلاً.. وجد جملاً يرعى فسلم عليه.. فرد الجمل التحية بأحسن منها.. ثم سأل الجمل الحمار عن أسباب مجيئه إلى ذلك المكان فأخبره أنه هارب من الوضع الذى كان فيه، لأن صاحبه يتعبه ويجيعه.. ولذلك فقد صمم على الهرب حتى ولو كانت نتيجته الموت السريع فهو أرحم من الموت البطىء الذى ينتهى به إليه واقعه.

ورحب الجمل بهذا العزم.. وقال إننى أنا هارب مثلك ولكن حالتى ليست مثل حالتك.. والمهم أننا نريد أن نهرب إلى مكان قصى ومنزو فلا يجدنا فيه أحد فاستحسن الحمار الفكرة ولكنه قال إننى لا أستطيع المشى لمسافات بعيدة نتيجة للضعف والهزال الذى أعانيه..!!

فقال الجمل: إن لدى حلاً لهذه المشكلة وهو أن أحملك على ظهرى.. ففرح الحمار ووافق على الرحيل حالاً.. ولكن الجمل قال للحمار: إننا سوف نكون بين أعداء كثيرين ولذلك فأننى أشترط عليك قبل الرحيل أن لا تنهق.. وأن لا تحدث صوتاً مرتفعاً يدل علينا الأعداء!! فتعهد الحمار بما طلبه الجمل..

وركب الحمار على ظهر الجمل.. وسار.. وبينما كانا سائرين جعل الحمار يفكر فى صديقه الجمل ويتعجب من خلقته وطول رقبته!! ولفت نظره شىء واحد.. هو قصر أذنى الجمل فقال بينه وبين نفسه معلقاً على ذلك: ياوى جمل لولا قصر أذنيه!! فسمع الجمل هذا التعليق الممض والنقد الجارح.. فلم يقل شيئاً

بل كتمها فى نفسه.. وتركها.. وترك الرد عليها إلى الوقت المناسب..

ووصل الجمل والحمار إلى روضة غناء فيها من جميع أنواع الأعشاب وحطا رحالهما فيها وشبع الحمار وسمن وأحس بالصحة والعافية والنشاط.. وصار يتجول فى تلك الروضة ويركض بين أطرافها.. وأراد أن ينهق.. ولكنه تذكر العهد الذى عاهد عليه الجمل وهو أن لا ينهق.. وكظم الحمار النهيق..

ولكنه أخيراً ضاق بالصمت.. فذهب إلى الجمل يستأذنه فى النهيق فنهاه الجمل.. وقال إن صوتك قد يدل الأعداء علينا ويجلب لنا شراً مستطيراً فسكت الحمار لفترة من الزمن ثم عاد إلى الجمل يستأذنه فى النهيق.. فأعاد عليه الكرة فى أن لا ينهق وصبر الحمار فترة من الزمن..

ولكنه أخيراً ضاق ذرعاً بهذا الصمت المطبق.. وعاد إلى الجمل قائلاً إنه لم يبق لديه صبر عن النهيق.. وأنه سوف ينهق سواء رضى الجمل أو لم يرض.. فقال له الجمل.. أنت وشأنك!!.

وذهب الحمار يعدو وصعد فى قمة تل فى طرف من أطراف الروضة.. ونهق نهقة طويلة منكرة جمع فيها كلما اختزنه فى الماضى من شهوة النهيق.

وسمعه ذئب كان يختبئ فى إحدى الشعاب وجاء يعدو سريعاً إلى جهة الصوت.. ولما قرب من الروضة رأى الحمار ورآه الحمار.. فجاء الذئب يعدو إلى الحمار وصار الحمار يعدو من شدة الخوف إلى جهة الذئب.. فلما التقيا ضرب الذئب بطن الحمار بيده فانتثرت أمعاؤه وتمدد على الأرض يعانى من سكرات الموت.

ورأى الجمل هذا المنظر البشع.. وجاء إلى الحمار حتى وقف على رأسه.. ونظر إليه وقال له بصوت الخبير المجرب الذى نصح فلم يقبل نصحه.. والذى انتقد وأهين فصبر على النقد والاهانة..

قال الجمل «خذ يابا زمير من طول أذانك»!!

وهذه الجملة رد على قول الحمار ياوى جمل لولا قصر أذنيه فذهبت كلمة الجمل مثلا يتداوله الناس فى مختلف العصور.

بين فلاح من الجن وفلاح من الإنس

يقال إن أحد الفلاحين من آل صقيه.. عمل شراكة هو وأحد الجن وزرعوا حنطة.. وجدوا واجتهدوا فى سقيها واصلاحها والمحافظة عليها..

فلما استوى الزرع قال الإنسى للجنى: كيف تريد أن نقسم الزرع فقال الجنى الأمر إليك.. فقال الإنسى أنا رأيى أن يكون ما فى داخل الأرض من الزرع لكم معشر الجن.. ويكون ما فى خارجها من الزرع لنا معشر الانس فقال الجنى: إننا موافقون وأخذ الفلاح الإنسى القصب والحب.. وهذه هى الثمرة.. وبقيت الجذوع التى لا يستفاد منها للجن..

وعرف الجنى أنه خدع.. ولكنها قسمة تراضوا عليها وليس من اللائق أن يتراجع أحد الطرفين عما اتفقا عليه..

ومضى زرع الشتاء دون أن يستفيد منه الجنى أى فائدة.. فأخذها فى نفسه وصمم على الانتقام من شريكه الذى خدعه.. ولكنه يريد أن يكون الانتقام من نوع الخديعة التى خدعه بها صاحبه..

وأقبل القيض واتفق الإنسى والجنى أن يتشاركوا فى زراعته كما تشاركوا فى زراعة الشتاء..

وزرعوا بصلاً.. وجدوا واجتهدوا فى سقيه وصيانته حتى شب ونما فصار مرآه يعجب الناظرين..

وقرب أوان قسمته فقال الجنى للإنسى: لقد تركت لك الخيار فى زراعة الشتاء.. ومن حقى عليك أن تترك لى حق الخيار فى زراعة الصيف فقال الإنسى: سمعاً وطاعة..

فقال الجنى: إننى أريد من البصل ما فى الهواء.. وأنت لك من البصل ما كان

داخل الأرض.. فقال الإنسى وهو فى غاية الفرح والسرور المكبوت.. لقد منحتك حق الاختيار الآن.. كما منحتنى حق الاختيار سابقاً.. ولا مجال لأى اعتراض على ما اخترته..

فقال الجنى.. إذًا فأنت موافق على اختيارى.. فقال الإنسى وهو يتظاهر بأنه مغبون فى هذا الاختيار إنه لا مجال لى فى الاعتراض..

فقال الجنى: إذاً اتفقنا..

وأخذ الجنى الورق.. وأخذ الفلاح الانسى الفصوص وعندما اقتسموا وحاز كل منهما نصيبه عرف الجنى أنه مغبون فى هذه الصفقة كما غبن فى الصفقة الأولى وعرف أن الذى استطاع أن يخدعه مرتين فى استطاعته أن يخدعه مرتين فى استطاعته أن يخدعه فى الثالثة والرابعة..

فترك هذه الشراكة وهو يشعر بالغبن والذلة والحرمان.. ولم يشارك بعدها أحد من الجان شخصاً من أفراد بنى الإنسان.

■ ■ ■

الغولة والمسافر الوحيد

كان أحدهم مسافراً فى الصحراء وحيداً.. وكان سائراً ذات ليلة مظلمة راكباً على راحلته.. فلم يشعر إلا بالثقل المفاجئ على ناقته..

والراكب الغريب الذى استوى على أوراك راحلته.. فلم يكن منه إلا أن مد يده إلى الخلف يتحسس هذا الراكب الجديد!!

فوقعت يده على جسم غريب له شعر كثيف!.. فقال مخاطباً صاحب هذا الشعر ومستطلعاً خبره.. والله صوف ضانى!! فرد عليه هذا الراكب الجديد بقوله: والله عقل وافى!!.

وعرف الراكب أن هذا الرفيق الجديد هو الغول.. فسكت وسار براحلته حتى جاء موعد نومه.. فأناخ ناقته ونزل عنها ونزلت الغولة أيضاً.. ومشت غير بعيد ثم جلست.. وحط الرجل عن راحلته ونام، ونامت حذاءه.. وقام فى الصباح.. فأخذ قطعة من التمر وقليلاً من الماء وجعل يأكل ويشرب فلم يكن من الغولة، إلا أن قامت وأخذت أيضاً قطعة من التمر وقليلاً من الماء وجعلت تأكل كما يأكل وتشرب كما يشرب.

وصار كلما صنع شيئاً صنعت الغولة مثله وهو لا يستطيع أن يمنعها ولا يستطيع أن يقاومها.. واستمر هو واياها على هذه الحالة.. كلما صنع شيئاً صنعت مثله.

وركب راحلته.. وجاءت فركبت فى مكانها المعهود فوق أوراك الناقة وسار ساكتاً يفكر فى طريقة يتخلص بها من هذا الغول.. وجاء الليل.. وأناخ راحلته ليعمل لنفسه العشى.. وأخذ دقيقاً فعجنه وأخذت الغول دقيقاً فعجنته.. وأوقد ناراً ووضع فيه قطعة العجين.. وعملت الغول مثله.. واستوى العجين وأخرجه من

النار وأخرجت الغول قرصها أيضاً من النار وعندما انتهى من الطعام كان عنده اناء فيه ودك.. فأخذ يتظاهر بأنه يمسح على رأسه من هذا الورك حتى روى شعره من الدهن.. ثم أخذ شعلة من النار وجعل يمر بها حول شعر رأسه كأنه يريد أن يذوب ذلك الودك ليختلط بشعره ورأته الغول فقامت تصنع مثل صنعه.. وأخذت اناء الودك وروت شعرها منه.. ثم أخذت مشهاباً من النار ومرت به حول شعرها.. فاشتعلت النار فى الودك والشعر الغزير الذى يكسو جلد الغول.. وجعلت تستغيث فلا تغاث.. وبقيت النار تشتعل فيها حتى ماتت

وقام الرجل عندما أصبح.. وذهب ليرى ماذا أبقت النار من الغول.. وما هو أصل الغول؟ فرأى جسماً صغيراً قد احترق يشبه أم حين وتعجب من تحول ذلك الجسم الكبير إلى هذا الجسم الصغير!!

وحمد الله على نجاح خطته.. ونجاته من هذا الغول الشرير.. الذى لولا رباطة جأشه وحسن تصرفه لذهب عقله هدراً!!

■ ■ ■

الغراب وأبوالحصين

.. ابتهج للأطفال فى بالسالفة التى قصتها عليهم جدتهم عن أبى الحصين والذيب والأسد.. فطلبوا من جدتهم هذه الليلة أن تقص عليهم سالفة من سوالف الحيوانات.. كيف تتعامل وكيف تتكلم.. وكيف تفكر.. وأين تكسب قوتها وما مشاكل الحياة لديها.

اعتدلت الجدة وقالت للأطفال: إننى سوف أقص عليكم هذه الليلة سالفة الغراب وأبى الحصين فهى من النوع الذى تحبونه.. وترغبون فى سماعه ومعرفته فقال الأطفال بصوت واحد: نعم قصى علينا سالفة الغراب وأبى الحصين.. فاستعدت الجدة للبدء فى السالفة.. إلا أنها تأخرت قليلاً فى تعديل وضعها وإصلاح بعض ما تتطلبه راحتها فى جلستها فاستحثها الأطفال جميعاً فى سرعة البدء فشرعت الجدة فوراً وقالت:

هنا هاك الواحد والواحد الله فى سماه العالى وإلى هنا الغراب وأبوالحصين. وتعلمون أن الغراب طائر وأن أبا الحصين حيوان وحشى من ذوات الأربع وكان كل واحد منهما معجب بصاحبه قبل لقائه.. فلما التقيا لأول مرة تصافحا بحرارة.. ورحب كل واحد منهما بصاحبه أجمل ترحيب.. ثم جعل يثنى كل واحد منهما على الآخر بما سمعه عنه من الحلال الحميدة.. فيرد عليه الثانى ويكيل له الصاع صاعين ويسمعه بدل المدحة مدحتين وكأن لسان حالهم يقول:

امدحنى وامدحك وشد لى واقطع لك.. فالأمر لا يعدو أن يكون تبادل منافع لا أكثر ولا أقل.. وإلا فلو حاسب كل منهما نفسه عما يقول لتوقفا عن كثير من الثناء والمدح الذى وجهه كل واحد منهما لصاحبه.. ولكنها المجاملات.. ولكنه حب الذات فكل واحد منهما يريد أن يسمع من صاحبه مدحاً وثناء على نفسه.. ولذلك فقد تماديا فى هذا الميدان.. وتسابقا فيه لنيل قصبات السبق فكان كل

واحد منهما يأتى بأنواع من الثناء والمديح قد لا يعرفها الممدوح فى نفسه.. ومع ذلك فهو يتقبلها بصدر رحب ويسر بسماعها.. ويطرب لترديدها.

كان الغراب يسمع عن روغان أبى الحصين الذى يضرب به المثل.. كما أن أبا الحصين يسمع عن الغراب وذكائه وفطنته.. وسرعة بديهته.. وسرعة طيرانه فلما اجتمعا أراد كل واحد منهما أن يسبر غور الآخر.. وأن يتباريا فى المكر والخديعة والاحتيال.. ليعرف كل منهما مدى قدرته ومدى قدرة صاحبه..

وبدأ الغراب فقال: لقد سمعت عن حضرة الصديق الفاضل أبى الحصين خصالاً حببته إلى نفسى ولذلك فأنا أريد أن أوثق علاقتى به.. وأن يربط بينى وبينه العيش والملح ولذلك فأنا أدعوه إلى حفلة غداء فى يوم غد..

فقال أبوالحصين حباً وكرامة إننى أجيب هذه الدعوة بسرور بالغ.. وتقدير عظيم.. كما أننى أدعو صديقى الفاضل إلى حفلة طعام أقيمها له بعد غد فرحب الغراب أيضاً بهذه الدعوة.. ووافق على تلبيتها شاكراً مثنياً على كريم شيم صاحبه.. وانصرف كل واحد من الصديقين لشأنه..

فأما الغراب فقد عمد إلى نخلة فأخذها من ثمرها.. وصار ينقل التمر من رأس النخلة ثم يغرس كل تمرة فى رأس شوكة من أشواك السلم.. وهو شجر صحراوى كثير الشوك متشابك الأغصان كثير الأذى وقليل النفع.. ولما جاء الموعد المحدد للدعوة ذهب الغراب إلى صديقه أبى الحصين وقال له: هيا بنا إلى مائدة الطعام وجاء الصديقان ودارا حول شجرة السلم التى قد شكت أشواكها بالتمر.. فحاول أبوالحصين أن يأخذ شيئاً من ذلك التمر، فلم يستطع لأنه كلما هم بتناول تمرة طعنته شوكة.. وعمل عدة محاولات لأخذ تمرة من التمر.. إلا أنه لم يستطع.. وعندما يئس من الحصول ولو على تمرة واحدة قال لصديقه الغراب:

أنعم الله عليك وأكثر خيرك فقال الغراب: كل أيها الصديق العزيز فقال أبوالحصين لقد شبعت.. وكان من عادة الحيوانات أن لا يأكل المضيف حتى ينتهى الضيف من أكل أطايب الطعام وعندئذ جاء دور الغراب فجعل يرفرف حول شجرة

السلم ويتناول الرطب من بين أشواكها ويأكله.. إلى أن أتى على التمر كله ثم اجتمع الصديقان بعد الأكل للحديث والمؤانسة.. وبعد فترة قصيرة من الوقت افترقا على أن يلتقيا فى اليوم التالى فى مكان وساعة محددة.

انصرف أبوالحصين لإعداد الوليمة التى سوف يقيمها لصديقه الغراب وجاء بدقيق الحنطة وخلطه بالماء والسمن وطبخه حتى إذا نضج وعمل منه أكلة دسمة تسمى الرغيد، وهو طعام رخو لا تستطيع الكف أن تمسكه وإنما يوكل لحساً باللسان أو رشفاً من الاناء.. أو غرفاً بالمغرفة.. وعندما جاء الموعد المحدد ذهب أبوالحصين إلى الغراب ودعاه فلبى الدعوة وجاء الصديقان إلى مكان الحفل.. وصب أبوالحصين ذلك الطعام فوق حجر أصم مسطح.. وقال لصديقه: تفضل لتناول الطعام فجاء الغراب وجلس عند المائدة وضرب بمنقاره فى الأكل ثم رفعه فلم يجد أنه علق به شىء.. وضرب به ثانية وثالثة حتى كاد منقاره أن ينكسر.. دون أن يستطيع أخذ شىء من ذلك الرغيد..

وعندما يئس قال لصديقه أبى الحصين: أنعم الله عليك.. فقال أبوالحصين كل.. فإن الحشمة مرفوعة بين الأصدقاء فقال الغراب لقد شبعت وقام الغراب من فوق المائدة وتقدم أبوالحصين إليها وجعل يلحس الرغيد بلسانه فلا يترك منه شيئاً، حتى أتى على جميع ما فوق الصخرة من طعام.. ثم ذهب فغسل وجهه ويديه.. وذهب إلى صديقه الغراب ليتحدثا قليلا بعد الطعام.. وقال الغراب لصديقه أبى الحصين فى أثناء الحديث:

لقد سمعت أن لدى صديقى أبى الحصين موهبة ممتازة فى الروغان وأنه لا يجاريه أحد فى هذا المجال.. فهل يتكرم الصديق المحترم فيعلمنى الروغان.. فقال أبوالحصين حباً وكرامة.. أننى على اتم الاستعداد لتعليمك الروغان.. كما أننى أطلب من صديقى العزيز أن يعلمنى الطيران.. فقال الغراب حباً وكرامة.. ومن الغريب أن كل واحد منهما لا يقدر المزايا التى أعطيها وإنما ينظر إلى مزايا الآخرين ويغبطهم عليها ويتمنى أن يسلبها منهم.. أو يشاركهم فيها..

واتفق الصديقان على أن يلتقيا فى صباح الغد فى مكان سهل.. وعلى أرض مستوية لا ارتفاع فيها ولا هبوط.. وجاء الغد وتقابل الصديقان فقال الغراب: هيا أيها الصديق العزيز إلى ما وعدت من تعليمى الروغان.. فجاء أبوالحصين وطأطأ جسمه وقوس ظهره ثم قال لصديقه الغراب اركب فقفز الغراب: فوق ظهره ثم انطلق به يعدو عدواً سريعاً وراغ به ذات اليمين.. ثم راغ به ذات الشمال فكاد الغراب أن يسقط من فوق ظهره.. ولكنه.. تماسك وأمسك بظهر أبى الحصين بكل قوته، ثم جرى به فترة من الزمن.. وفجأة راغ به يميناً وراغ به شمالاً.. فكان الغراب فى هذه المرة أكثر ثبوتاً وأشد تمسكاً.. وصنع به هذا الصنيع مرة ثالثة فكان أثبت من الثانية..

فقال له أبوالحصين: لقد تعلمت الآن فن الروغان.. وبقى عليك أن تعلمنى فن الطيران فقال لصديقه حباً وكرامة.. هيا اركب بين جناحى.. فلما ركب أبوالحصين واستقر بين جناحى الغراب طار به.. واستمر فى التحليق إلى أن ارتفع فوق الأرض كثيراً.. وقال الغراب لصديقه أبى الحصين: ماذا ترى من الأرض فقال: إنى أرى مدتها كالقرى وقراها كالبيت الواحد.. وأرى البيت الواحد كعش الطائر.. فحلق الغراب إلى فوق واستمر فى الصعود إلى أجواز الفضاء.. ثم قال لأبى الحصين انظر إلى الأرض وأخبرنى بما ترى!! فقال: إننى أرى الجبل كصخرة صغيرة.. وأرى الوديان كالخيوط السوداء وأرى الأنهار.. كخيوط دقيقة من حرير..

استمر الغراب فى التحليق والصعود إلى أعلا.. ثم قال لصديقه أبى الحصين انظر إلى الأرض وأخبرنى بما ترى منها.. فنظر أبوالحصين إلى الأرض وهاله أن لا يميز منها شيئاً.. إنما يرى دخاناً أو شبه الدخان.. يملأ الفراغ الذى تحته.. ولا يميز من معالم الأرض كبيراً ولا صغيراً فأخبر أبوالحصين صديقه الغراب بما رأى..

فى هذه اللحظة هبط الغراب هبوطاً مفاجئاً فتدحرج أبوالحصين من فوق ظهره.. وصار يهوى إلى الأرض وهو يقول اللهم ارمنى فوق ماء أو رمل.. والغراب

يتبعه.. ويقول اللهم ارمه فوق جبل أو أرض صلبة واستمر أبوالحصين يدعو لنفسه باللطف فيما قدر عليه.. واستمر الغراب فى الدعاء عليه بأن تكون نهاية حياته فى هذا السقوط.

لا أحد يدرى بالتحديد ما أسباب عداوة الغراب لأبى الحصين.. إلا أن بعض العارفين يقول: إن السبب الرئيس هو أن أبا الحصين.. يضايق الغراب فى رزقه.. ويدب على ظهر الأرض فيأكل الحيوانات الصغيرة والأطعمة اللذيذة التى يحبها الغراب حباً عظيماً.. هذا سبب من الأسباب.. وقد يكون هناك أسباب خفية من ثأر قديم للغراب بالنسبة إلى أبى الحصين.. قد يكون أحد أجداد أبى الحصين قد أساء إلى غراب يمت بالقرابة إلى هذا الغراب فأراد الانتقام.. والأخذ بالثأر.. فى هذه الفرصة المناسبة..

والخلاصة أن الله قد استجاب لأبى الحصين دعاءه ولطف به فوقع فى وسط غدير فى قلب الصحراء وكان هذا الغدير غزيراً.. فانغمس أبوالحصين فى الماء من شدة الاندفاع.. ثم خرج على ظهر الماء معافاً سليماً.. فعام إلى أن بلغ الصخور المحيطة بالغد فتعلق بأحدها وخرج.. وكان الغراب يراقب أبا الحصين وقع فى الغدير ثم خرج منه.. وعندئذ ذهب إلى حال سبيله آسفاً على نجاة أبى الحصين مرتقباً فرصة أخرى.. مع أنها قد تكون من الندرة بمكان أو أنها أقرب ما يكون إلى المستحيل.. لأن أبا الحصين حذر.. ولا يمكن أن يلدغ من جحر مرتين.

بقى أبوالحصين على هذا الغدير يشرب منه وينظف جسمه من مائة.. ويذهب إلى الصيد فيما حوله ثم يعود إليه.. وأخيراً قرر أبوالحصين أن يشرب جميع ماء الغدير هذا وأن يختزنه لنفسه.. لأنه رأى أن جماعة من البدو ترد بأغنامها عليه.. فأراد أن يشربه قبل أن يشربوه.. ولهذا فقد ارتشف أبوالحصين جميع ماء الغدير.. وسد دبره ببعرة من بعر الجمال ولجأ إلى ظل بجانب الغدير فتمدد فيه منتظراً ورود الأغنام على هذا الغدير المعروف بأن ماءه لا ينضب صيفاً ولا شتاء..

وطال انتظار أبى الحصين.. ولكنه واثق من أن الرعاة لا يتركون الورود على هذا الغدير وفى اليوم الثانى ورد عليه راع بغنمه.. ونظر إلى مكان الغدير فرآه جافاً وأخذ منه العجب كل مأخذ.. والتفت فرأى أبا الحصين فجاء إليه وسأله عن الغدير وما الذى جففه.. فقال أبوالحصين إن ماءه مخزن فى بطنى.. لقد شربته كله.. وفى استطاعتى أن اسقى غنمك.. مما فى بطنى فما الذى تعطينى أن فعلت؟! فقال الراغى إذا أسقيت غنمى.. وأرويتها فأننى سوف أعطيك أحسن واحدة فيها.. أو لك أنت أن تختار أحسن واحدة..

فاتفقا على ذلك.. وفتح أبوالحصين ما بين رجليه وأزال البعرة التى كان قد سد بها دبره فنزل الماء إلى مكان الغدير بكثرة فائقة وانطلقت الغنم إلى الماء تشرب منه.. إلى أن رويت.. وانصرفت عن الماء بعد أن أخذت كفايتها منه.. فقال الراعى لأبى الحصين هل تريد أن تأخذ من الغنم أحسنها أم اختار لك أنا فقال أبوالحصين اختر لى فذهب الراعى وجاء بخروف كبير سمين شاب وأراد أن يسلمه إلى أبى الحصين.. ولكنه أبى وقال: إن هذا ليس هو أحسن غنمك.. فقال الراعى إذاً قم أنت واختر أحسنها بنفسك فقام أبوالحصين ودخل فى وسط الغنم.. وصار يتفحصها واحدة واحدة إلى أن وقع نظره على شاة كبيرة هزيلة فأخذ برقبتها.. وكان يسيل من أنفها مادة لزجة من آثار الهزال والضعف فجعل أبوالحصين ويلحسها ويمتصها.. ويقول للراعى:

انظر إلى الشحم يخرج من أنفها.. فقال الراعى خذها بارك الله لك فيها فأخذها.. واقتادها.. وذهب بها إلى بيت كان صنعه.. ووضع له باباً لا يفتح كما تفتح الأبواب وإنما يفتح بطريقة خاصة مبتكرة سوف يأتى ذكرها وصار أبوالحصين يعطيها ويغذيها ويسميها الرخما ومعنى الرخما الشاة التى فى رأسها بياض وسواد.

استمر أبوالحصين يطعم الرخما ويسقيها إلى أن سمنت ولقحت وجاءت بينت سماها الرخيم.. وزاد جهد أبى الحصين فى العمل لا طعام الرخما والرخيم.. وعلم الذئب بوجود هذه الشاة وابنتها فى حوزة أبى الحصين.. وترقب الذئب أب

االحصين حتى ذهب إلى الصحراء ليأتى بعلف لشاته وابنتها.. ولما اختفى أبوالحصين فى قلب الصحراء.. جاء الذئب إلى الباب.. واحتار الذئب كيف يصنع أنه لابد أن يأكل هذه الشاة وابنتها بأى طريقة من الطرق.. بطريق القوة.. أو بطريق المكر والاحتيال..

إن الذئب لا تهمه الوسائل وإنما تهمه النتائج.. ولا يفكر فيما سيقال عنه إذا غدر أو مكر أو احتال فهذا شىء لا يضيره ولا يهتم به.. ولايتطلب منه مثقال ذرة من التفكير.. وأعمل الذئب فكره.. وجمع شتات ذهنه.. وجعل يفكر فى الطريق الذى يستطيع به الوصول إلى هذه الشاة وابنتها..

أخيراً هداه التفكير إلى أن يصادق أبا الحصين.. ويظهر له الود والمحبة والإخلاص.. فإذا وثق به جاء دور رسم الخطة وطريقة تنفيذها.. وهكذا حصل فقد جاء الذئب إلى أبا الحصين.. ودق عله الباب بلطف.. فلما خرج إليه حياه بحرارة واحتضنه.. وقال حيا الله صديقى وابن عمى أبا الحصين.. وأسعد الله مساءه..

رحب به أبوالحصين بدوره ورد عليه التحية بأحسن منها.. وقال الذئب: لقد طال الوقت الذى لا نلتقى فيه واشتقت لك.. وجئتك مسلما.. ومجدداً للصداقة والود.. ثم أنك تعلم أن حوادث الزمان تتحوف المرء وتهدده إذا كان وحيداً أكثر مما تتحوفه إذا كان له صديق يبادله الرأى ويساعده على حوادث الزمان وتقلب الحدثان.. والمرء كثير بأخيه قليل بنفسه..

فأجاب أبوالحصين جواباً رقيقاً موافقاً صديقه الذئب على ما قال.. ومؤكداً أهمية الأصدقاء والاخوان سواء فى حالات الشدة أو حالات الرخاء. وأكد أبوالحصين أنه متفق مع صديقه على كل ما قال.. وعلى هذا اتفق الاثنان على أن يتلقيا كل يوم مرة على الأقل..

وتفرق الصديقان على أن يلتقيا فى اليوم التالى وجاء الغد فذهب الذئب إلى صديقه أبى الحصين وسلم عليه وعرض عليه العون والمساعدة على اطعام الرخما

والرخيم.. فشكره أبوالحصين وقال إن هذا الأمر سهل.. ولا يستحق المساعدة وأنه يعد صديقه الذئب لأمور أكبر من هذا..

وتكرر اللقاء بين الصديقين.. وتكررت عبارات الاخاء والمجاملة.. والذئب فى كل ذلك يرغب رغبة أكيدة فى أن يعرف كيف يفتح أبوالحصين باب داره.. وكيف يغلقه.. ولكنه لم يستطع أن يعرف الطريقة فى فتحه وإغلاقه.. وطالت مراقبته للباب عند الفتح وعند الإغلاق.. ولكنه لم يظفر بطائل.. وعندما يئس قال لصديقه أبى الحصين:

ما أعجب بابك ياصديقى.. أنه باب نادر لم أر فى حياتى مثله فى فتحه وقفله.. وصناعته.. وحسن لونه.. وتناسق أخشابه.. وتداخل بعضها فى بعض.. هذا مضافاً إلى القوة والمتانة.. فكيف تفتح هذا الباب؟ وكيف تقفله؟ فقال أبوالحصين: إنه حقاً باب نادر وقد دفعت ثمنه غالياً.. وقد طلبت من النجار الذى صنعه أن يجعل طريقة فتحه غريبة.. فلا ينفتح إلا بالهواء.. ولا ينقفل إلا بالهواء.. ولكنه هوى خاص.. وبمقدار خاص.. فقال الذئب وقد زاد تيقظه واصغاؤه.. وكيف؟!

فقال أبوالحصين إننى أفسو عليه فينقفل.. وأضرط عليه فينفتح.. فقال الذئب ما أعجب بابك وما أجمل ذوقك.. وما أحسن اختيارك.. إنك بهذه الطريقة الغريبة النادرة لا تحتاج إلى أن تحمل مفتاحاً.. ولا أن تشغل نفسك بتركيب أسنانه ما بين وقت وآخر.. فهنيئاً لك ياصديقى وأسعدك الله بما أعطاك.. وعندئذ تفارقا على أن يلتقيا فى الغد.. وعندما جاء الغد.. وذهب أبوالحصين إلى الصحراء ليأتى بعلف لشاته وابنتها.. جاء الذئب إلى دار صديقه أبى الحصين فضرط على قفل الباب فانفتح.. فأخذ الشاة من حلقها.. وقتلها ثم قتل ابنتها.. وسلخ الاثنتين وأكل لحمهما.. ثم حشا جلد كل واحدة منهما تبنا.. وأوقفهما على قوائمهما الأربع.. أما الباب وخرج بعد أن فسا على قفل الباب فانقفل..

وجاء أبوالحصين وهو محمل بالاعشاب الطرية.. والزهور الندية.. وعندما فتح الباب كان من عادة شاته وابنتها أن يقابلاه عند دخوله.. وأن يستقبلاه بالثغاء والهمهمة.. والحركة والجلبة.. التى كان أبوالحصين يحبها ويهواها ولكنه فى هذه المرة جعل يدعوهما بأسميهما فلا يجيبان داعيا.. ويكرر «الرخما والرخيم ما تأكل إلا الطعام الزين» فلا يتحرك ساكن.. وداخله الشك.. واستبدت به الريبة.. وقرب منهما ودعاهما فلم يجيبا..

فضرب الأم بقدمه ضربة قوية فسقطت.. وإذا هى جلد لا لحم فيه.. وإنما الذى فيه تبن.. وضرب ابنتها فإذا هى مثلها فهاجت أعصابه وغضب غضباً شديداً.. وجعل يدور فى البيت ليعرف أين دخل اللصوص.. وما الجانب الضعيف الذى كسروه وولجوا منه.. فلم يجد كسوراً.. ولا فتحات فى أى جانب من جوانب السور.. وإذاً فإن الداخل دخل مع الباب بدون شك.. ولكن كيف يدخل اللصوص مع الباب وطريقة فتحه سر مغلق لا يعرفها إلا هو فقط.. ثم تذكر أن الذئب سأله وأنه أخبره بالطريقة التى يفتح بها الباب.. ولكن الذئب صديقه.. وحبيبه ولا يمكن أن يخونه..

فهل ترك الباب مفتوحاً؟! أبداً.. أنه يتذكر جيداً أنه أقفله.. وإذاً فليقص الأثر.. فلعله يعرف اللصوص من آثار أقدامهم لعلهم فتحوه بطريقة سحرية غامضة.. أو لعل النجار الذى صنع أمثال هذا الباب صنع له مفاتيح هوائية متعددة بغية إبطال ذلك الطراز حتى يلجأ المواطنون إلى صنع طراز جديد فيكسب من وراء ذلك كسباً جديداً..

خرج أبوالحصين من منزله الموحش الذى تتمدد فيه جثتان حبيبتان إلى نفسه واللتان كان يألف البيت والجلوس فيه من أجلهما ومن حبهما.. وحب أصواتهما وحب مداعبتهما.. والتمتع بمنظرهما..

أما الآن فقد أصبح البيت عنده بمثابة القبر الموحش الذى لا يبعث إلا الآسى والحزن.. ولا يثير إلا كوامن الأشجان.

وجعل أبوالحصين يفحص الأرض شبراً شبراً وذراعاً ذراعا.. ولم يخطر على باله أن الذى فعل هذه الفعلة هو صديقه الذئب.. أن هذا الخاطر كلما خطر على باله طرده بقوة وبسرعة.. أنه لا يريد أن يظن أسوأ الظنون بأصدقائه ومحبيه.. وعليه أن يبعد عنهم تلك التصرفات التى لا يليق أن تصدر من صديق إلى صديق.. كالغدر والخيانة.. والغش والخديعة.. واستمر فى البحث والتحرى لعله يرى أثراً يدله على الجانى.. ولكنه لم يجد شيئاً.. لأن الريح كانت شديدة وقد عفت جميع الآثار.. فلم يبق أمل فى العثور على الجانى من هذا الطريق..

وبينما كان أبوالحصين فى أفكاره وتأملاته السوداء، إذ جاء إليه أحد سكان الحى الذى عرفوا بتتبع حركات الناس وتصرفاتهم.. ونقل أخبار بعضهم إلى البعض الآخر.. وقال لأبى الحصين مالى أراك ساهماً مهموماً.. قال وقد أظهر الصبر والتجلد لا شىء ما عدا أمر بسيط هو أن أحد اللصوص اقتحم منزلى وأكل شاتى وابنتها.. ولم أستطع أن أعرفه من الأثر لأن الريح محت الآثار.. فقال هذا الزائر: أننى رأيت الذئب فى صباح هذا اليوم يدور حول بيتك فلعله هو الذى فعل هذه الفعلة النكراء.. فقال أبوالحصين أنه صديقى ولا أعتقد أنه يغدر بى ويفجعنى فى أعز شىء لدى.

فقال هذا الزائر: إننى لا أشهد عليه بالجريمة فأنا لم أره يدخل البيت ولم أره يقتل شاتك وابنتها.. أننى أبرأ إلى الله من أن أتهم مواطناً بتهمة لم أتحققها.. إلا أننى أخبرك بالواقع وهو أننى رأيته بقرب بيتك ورأيته ينظر إلى الطريق تارة وإلى بيتك تارة أخرى وكأنه بهذا ينتظر انقطاع مرور المارين ليعمل عملاً فى السر لا يريد أن يراه أحد..

أما العمل الذى يريد الذئب أن يعمله فى السر فأنا لا أستطيع أن أحدده.. ولا أن أعرف نوعه فهذا علم الغيب.. والله سبحانه وتعالى هو علام الغيوب.. سمع أبوالحصين هذا الكلام بحذر شديد لأنه يعرف أن مثل هذا الخبر يحتمل الصدق ويحتمل الكذب وهو لا يستطيع أن يرجح جانباً على جانب إلا بقرائن وشهادات ترجح كفة على كفة.

ثم أنه يعرف أهواء النفوس وأغراضها فقد يكون هذا المخبز يحسد أبا الحصين على صداقة الذئب فهو يريد أن يفرق بينهما بهذا الدس الرخيص.. وقد لا يكون هناك حسد.. وإنما هناك ثأر قديم بين هذا الشخص وبين الذئب فهو يريد الانتقام من الذئب بطريق الكذب والنميمة والإفساد بينه وبين رفاقه وأصدقائه..

وشىء ثالث وهو أن بعض الناس قد طبع على الشر وجبل عليه فهو يريد إلحاق الضرر بالآخرين لا لغرض معين.. وإنما لشهوة الايذاء وإلحاق الضرر بالآخرين.. ثم أن المصالح لها دخل كبير فى معاملات الناس وتصرفاتهم فقد يقتل المرء أخاه فى سبيل عرض زائل من الدنيا.. وقد يتهمه بتهمة كاذبة فى سبيل مصلحة ينهالها من هذا الطريق فليس كل الناس لديه ضمير يردعه عن هذه الرذائل القذرة..

وإذاً فإن على المرء أن لا يسمع مثل هذه الأقوال.. فإن سماعها يوغر الصدور ويحدث الفتن والوساوس التى يكون المرء فى غنى عنها.. وقد قال رسولنا الكريم لا تسبوا أصحابى فإننى أحب أن أراهم وأنا سليم الصدر أو كما قال ﷺ..

ولهذا فقد اعرض أبوالحصين أعراضاً تاماً عن تلك الوشاية.. وجعل يبحث ويفكر ويتطلع إلى هنا وإلى هناك لعل أمراً يدله على الجانى ويشعره ولو بطريق خفى إلى مرتكب الجريمة ولكنه لم يعثر على شىء.. وقال أبوالحصين فى نفسه إن الجانى دائماً خائف ومرتبك وإذا جاء الذئب فسوف تظهر عليه آثار الجريمة وإذا انقطع لغير سبب معقول.. فهذا أيضاً دليل من الأدلة التى قد تشير إلى الجريمة.. وإن كانت لا تثبتها.

إن أبا الحصين الآن قانع بإشرارة ولو خفية إلى الجانى.. وعليه فيما بعد أن يتابع الموضوع حتى يصل إلى حقيقة جلية واضحة فيه.. ولكن أبا الحصين على الرغم من كل ما بذل لم يستطع أن يستقر رأيه إلا على أحد احتمالين.. أما مجىء الذئب فى موعده المعتاد وظهور امارات عليه.. أو تغيبه بدون سبب معقول

وهذا دليل كاف للإدانة مع ما يضاف إليه من أدلة أخرى.

وجاء موعد مجىء الذئب إلى صديقه أبى الحصين فلم يأت وانتظره الساعات تلو الساعات وجاء اليوم الثانى ومر الموعد دون أن يأتى الذئب.. وبدأ أبوالحصين يشك فى صديقه الذئب ولكنه يجب أن لا يتسرع.. فليس فى التسرع إلا الندامة.. وشد أبوالحصين رحاله للبحث عن الذئب.. وصار يسير فى البلاد ويسأل فلا يسمع خبراً.

استمر فى البحث عنه والضرب فى المهامه والصحارى والقرى، ومر بقرية فسأل عن الذئب فقيل له: إنه مر بهذه القرية منذ أيام وبقى فيها إلى أن استجم ثم واصل سيره.. فسأل أبوالحصين عن الجهة التى اتجه إليها فأشاروا إليها.. فواصل أبوالحصين السير فى تلك الجهة.. ولم يرع الذئب فى غفله من غفلاته إلا وأبوالحصين يقف فوق رأسه وقد التجأ إلى غار منزوٍ فى أحد الجبال.

فسلم أبوالحصين على صديقه الذئب وحياه.. إلا أن الذئب كاد أن لا يستطيع رد السلام نتيجة لارتباكه.. وقال أبوالحصين لصديقه: لقد سطى اللصوص على شاتى وابنتها وأكلوهما.. فحزنت حزناً شديداً.. ثم تخلفت عن زيارتى فاستوحشت.. لأنك تعلم أن الصديق زينة وأنس فى الرخاء وعون ومساعد فى الشدة.. فاجتمعت على مصيبتان فى آن واحد.. غيابك وفقدان شاتى وابنتها وبقيت اتصبر يوماً ويومين فلم أستطع وصرت أصاب بنوبات من الحزن كلما دخلت بيتى فإذا ابتعدت عنه خف ما بى، ولم أذكر ما حل بى من مصاب.

أما إذا دخلت البيت فمربط الشاة يذكرنيها.. ومغلفها.. وطريق مراحها ومجيئها.. وبقايا علفها.. وبقايا بعرها.. كل واحد من هذه الأشياء يذكرنى شاتى وابنتها فيزداد حزنى.. وتزداد وحشتى ثم غبت عنى هذه الغيبة المفاجئة دون سابق إنذار فزاد ذلك فى وحشتى.. وحزنى..

كان أبوالحصين يراقب الذئب.. حركات أطرافه ولمحات وجهه ليستشف منها تأثره وانفعالاته.. وقد رأى أن الذئب انفعل عندما ذكر له أبوالحصين بأن سفره

كان فجأة وبدون سابق إنذار ثم جاء دور الذئب فى الكلام فقال: لقد ضاق بى الرزق فى بلادى أيها الصديق العزيز وبحثت عمن يقرضنى شيئاً من المال ويثق بى إلى وقت آخر فلم أجد..

وبحثت عن مكان للعمل فلم أوفق.. وضاقت بى البلد تلك الليلة.. وكثرت وساوسى من شدة الجوع وضيق ذات اليد فقررت فى تلك الليلة أن أسافر صباحاً.. وعزمت عزماً أكيداً على هذا السفر.. وتعلم أن بلاد المرء هى التى يرزق فيها.. وليست التى يخلق فيها.. وأن على المرء أن يعمل الأسباب.. ويسلك مختلف المناهج.. فلعله يوفق فى واحد منها..

ولهذا فأنا كما ترانى أضرب فى البلاد حتى أجد المكان الصالح الذى أستطيع أن أعيش فيه معيشة كريمة واسعة..

فقال له صديقه أبوالحصين وهل تقصد مكاناً معيناً أم أنه لا هدف لك؟!

فقال الذئب: إنه لا هدف لى.. فقال أبوالحصين:

وهل تسمح لى أن أرافقك فى هذه الرحلة.. فظروفى مثل ظروفك بل هى أقسى من ظروفك.. وأنا فى حاجة إلى الغربة لأنسى مصيبتى كما أننى محتاج إلى الاخوان لتسليتى.. فأجاب الذئب بامتعاض وتذمر ظاهر.. ما كان يألفه منه فى سابق الأيام.. قال أنه لا يرى مانعاً من هذه الصحبة.. والمرافقة..

تجمعت الأدلة لدى أبى الحصين.. وعلم علماً يشبه القين بأن الذئب هو الذى أكل الشاة وابنتها.. ولكنه مع هذا أمسك أعصابه.. وانتظر لعله يعثر على دليل مادى.. يزيد من يقينه.. ويؤكد له أن الذئب هو الفاعل.. وانتظر ورأى فى لحظة من اللحظات أن الذئب يخفى عنه شيئاً.. وهو يذهب فى بعض الساعات متسللاً مختفياً.. ويبقى فى غار صغير فترة من الزمن قصيرة ثم يخرج منه محاولاً أن لا يراه أبوالحصين..

تيقن أبوالحصين أن فى ذلك الغار دليلاً مادياً قد يمده باليقين فى قضيته الأولى التى تكبد المشاق من أجلها وهى الأخذ بثأر شأنه التى ذهبت ضحية

المطامع والشهوات.. وانتظر أبوالحصين.. ولكن الذئب كان حذراً.. كثير الشكوك.. كثير المراقبة.. إلا أن الحذر لابد أن تمر به ساعات يغفل فيها جانب الحذر..

انتظر أبوالحصين هذه الساعات.. ومرت الأيام طوالاً والفرصة لا تواتيه للكشف عن سر الأسرار.. المختفى فى الغار.. ولكن عاقبة الصبر حميدة فقد جاءت الفرصة.. حيث نام الذئب ذات يوم من آثار طول الاجهاد.. والتعب.. وتظاهر أبوالحصين.. بأنه نائم أيضاً فلما استغرق الذئب فى النوم.. انسل أبوالحصين من تحت غطائه.. وترك ما تحت الغطاء بارزاً حتى يظن من يراه أن صاحبه فيه..

وقصد أبوالحصين إلى ذلك الغار ماشياً إليه بحذر شديد حتى لا يقع حجر على حجر فيحدث صوتاً يوقظ الذئب؛ لأن الذئب مهما استغرق فى النوم فهو سريع اليقظة من أقل حركة.. كما أن استغراقه فى النوم لا يمنعه من الإحساس بما حوله.. لأنه لا يغمض عينيه الاثنتين معاً.. بل هو يغمض واحدة ويترك الأخرى للمراقبة والحراسة.

ووفق أبوالحصين فى سيره فلم يحدث أى صوت ووصل إلى الغار فوجد فيه وعاء صغيراً.. فك رباطه.. ثم أخرج ما فيه فلم يرعه.. إلا رأس شاته بعينيه وسنه وذهل أبوالحصين من هول المنظر.. لأن رأس الشاه يذكره بتلك المأساة.. ولكنه تمالك أعصابه وأعاد الرأس إلى مكانه.. وربط الوعاء كما كان مربوطاً.. وخرج من الغار ماشياً بحذر شديد.. حتى وصل إلى فراشه فرفع لحافة واندس تحته وقلبه يدق وجسمه يرتجف.. من آثار الجهد الذى بذله.. والرعب الذى تملكه فى الغار.. والغضب والانفعال الذى ملأ قلبه على صديقه القديم!! الذئب..

وراقب أبوالحصين الذئب الذى لم يعد صديقاً وإنما هو عدو مبين لابد من الانتقام منه وأخذ الثأر.. إلا أن أباالحصين فكر فى الأمر فالذئب أقوى منه ساعداً وأقوى منه جناناً.. وإذاً فلا طريق للانتقام إلا بوسيلة من وسائل الحيلة..

وجعل أبوالحصين يفكر.. ويطيل التفكير.. حتى اهتدى إلى طريقة غريبة

مبتكرة.. وهو أن يفصل قماشاً بشكل كيس وأن يخيط هذا الكيس خياطة قوية فهو يعلم قوة خصمه وصرامته وفرط ذكائه.. ولذلك فإنه يجب عليه أن يتخذ جميع الاحتياطات اللازمة..

أعد أبوالحصين الكيس.. ودخل فى وسطه وربط على نفسه من الداخل وصار يتقلب فى هذا الكيس ويغنى.. ويظهر السرور والانشراح عندما يدخل وسط هذا الكيس.. ورآه الذئب.. وأعجب بهذا الكيس والطريقة التى يتبعها أبوالحصين فى استعماله وأحب أن يدخل فى هذا الكيس ليرى ماذا يحدث له من مشاعر وانفعالات السرور التى تظهر على أبوالحصين.

وعندما أحس أبوالحصين بهذه الرغبة والشوق من الذئب قال له إن لدى لعبة تسمى لعبة الكيس.. فقال الذئب صف لى طريقة لعبتها فوصف له أبوالحصين هذه اللعبة.. فأعجب بها الذئب.. وقال لأبى الحصين فلنعملها.. فقال أبوالحصين: إنها لا تصلح إلا ليلاً.. فإذا جاء الليل عملناها فى ضوء القمر.. فاتفقنا على ذلك.. وتفرقا.. كل يطلب لنفسه صيداً.. على أن يلتقيا مساء.. وذهب أبوالحصين إلى وادٍ ملتف بالأشجار وعمد إلى شجرة من شجرات السلم فقطع منها عجراء أى عصا ذات رأس كروى كبير وقطع غصناً لطيفاً رقيقاً.. وأخذ الاثنان.. وذهب بهما إلى قرب منزلهما وأخفى عجراء السلم فى مكان قريب من منزلهما وأخذ غصن السلم معه.

ذهب إلى منزلهما فوجد الذئب فى انتظاره وكان الموعد قد أزف.. فاستعدا للعبة.. وقال أبوالحصين: إننى سوف أبدأ فأقوم بالدور الأول من اللعبة لأنى خبير بها وأنت تقوم بالدور الثانى فوافق الذئب على الخطة وشرعا فيها.. فدخل أبوالحصين فى وسط الكيس وقال للذئب اربط الكيس فوق رأسى وخذ غصن السلم واضربنى به على أى موضع من جسمى ضرباً خفيفاً.. فإذا كان الموضع الذى ضربتنى عليه حساساً قلت: ويص!! ويص!! وإذا لم يكن حساساً فإننى سوف اسكت..

وهكذا حصل.. فتكرر الضرب وتكررت الأصوات والضحكات وسر الذئب بهذه اللعبة.. وقال فى نفسه.. إنها فرصة للترويح عن النفس ونسيان الهموم والمتاعب ولو لفترة وجيزة من الوقت.. وقال أبوالحصين للذئب: كفى.. فحل رباط الكيس لأخرج وتدخل أنت فقد جاء دورك..

حل الذئب رباط الكيس وخرج أبوالحصين.. ودخل الذئب فى وسط الكيس وربط أبوالحصين فم الكيس وأوثق الرباط ثم ذهب مسرعاً وجاء بعجراء السلم.. وكان الذئب قد استبطأه فى الربط.. واستبطأه فى الضرب.. فقال أين أنت يا ابن عمى..؟! أسرع واشرع فى اللعبة فقال أبوالحصين أين رأسك ياعزيزى لئلا أضربه فيؤلمك فقال الذئب ها هو وحرك رأسه.. فعلم أبوالحصين أين يقع رأسه فأهوى عليه بكل قوته بتلك العجراء فإن الذئب وولول.. وقال أوجعتنى ياابن عمى!!.

فقال أبوالحصين أننى لست ابن عمك بل عدوك اللدود فقد غدرت بى وأكلت شويهتى وبنيتها وفجعتنى فى أعز عزيز لدى.. فقال الذئب وقد أيقن بالهلاك اغفر لى هذه الخطيئة يابن عمى هذه المرة وسوف لا أعود لمثلها أبداً فقال أبوالحصين لا غفر الله لى أن غفرت لك وجعل يوجه إليه الضربة تلو الضربة وهو يروغ برأسه تارة إلى اليمين وتارة إلى الشمال.. ولكن أباالحصين يرى حركاته فيسدد الضربات إلى المواضع الحساسة من جسمه.

أمسى الذئب جثة هامدة تركها أبوالحصين فى كيسها.. ورحل من ذلك المكان عائداً إلى وطنه بعد أن أخذ بثأره وشفى غليل نفسه من ذلك الصديق الغادر الذى لم يرع حق الأخوة.. ولم يقدر عواقب الأمور.. بل اندفع وراء شهواته البهيمية ضارياً بالحائط كل القيم الأخلاقية التى تربط بين الأصدقاء.. وتنظم علاقة بعضهم ببعض.

ووصل أبوالحصين سالماً فرحاً مسروراً حيث لم يذهب سعيه سدى.. وأبدل قفل بابه بقفل جديد.. وبدأ كفاحه من أجل الحياة بعزم وأمل جديدين..!!

وكملت وحملت وفى أصبيع الصغير دملت!!.

أبوالحصين والضبعة

وجاء الليل والتف الأطفال حول جدتهم طالبين منها أن تقص عليهم سالفة أبى الحصين والضبعة فقالت الجدة حبا وكرامة: هنا هاك الواحد والواحد الله فى سماه العالى وإلى الضبعة قد صنعت لها بيتاً.. ورتبته وجعلته أقساماً.. منه قسم لأولادها.. وقسم لضيوفها.. وقسم لها خاص.. وقسم جعلته مخزناً لما تصطاد من الصيد وما تجمعه من القوت لها ولأولادها.

كانت الضبعة تخرج ليلاً بحثاً عن الرزق والصيد الذى تعيش منه.. وتطعم أولادها به.. ويصر بها أبوالحصين وعرف بيتها وعلم بأن أولادها الصغار فيه فنوى بها ويهم نية سيئة وهى أن يأكل أولاد الضبعة ثم يهرب فى أرض الله الواسعة ويترك للضبعة هذا المكان..

صمم أبوالحصين على هذه الجريمة.. فجعل يراقب الضبعة متى تخرج ومتى تعود.. وكيف تفتح الباب وكيف تغلقه.. ودرس الوضع من كل جوانبه.. وتصور جميع الاحتمالات ووضع لها حلولاً مناسبة..

وخرجت الضبعة ذات ليلة من بيتها ضارية فى كبد الصحراء بحثاً عن الصيد والرزق.. وخالفها أبوالحصين إلى أولادها.. وطرق عليهم الباب كما كانت أمهم تطرقه.. وقال لهم: افتحو لى الباب فأنا أمكم وقلد صوت أمهم تقليداً كاملاً فكاد أصغرهم أن يفتح له الباب، إلا أن الكبير أوجس من هذا القادم خيفة.. فموعد قدوم أمهم لم يحن بعد كما أن الصوت يظهر للبصير الفطن أن فيه اختلافاً عن صوت أمهم..

لهذا فإنه أمسك بيد أخيه.. وقال له لا تستعجل فلعل الطارق غير أمنا.. اتركوا الأمر لى.. لمعرفة الحقيقة.. وتكلم الابن الكبير مع الطارق وقال له: إذا

كنت أمنا فأدخل ذنبك علينا من ثقب الباب لنرى هل هو ناعم أو خشن فلما أدخل ذنبه عليهم وجدوه خشناً.. ومعنى هذا أنه ليس ذنب أمهم وإنما هو ذنب مزور محتال يريد بهم سوءاً.

فقالوا له: إنك لست أمنا لأن ذنب أمنا ناعم وذنبك خشن.. فعلم أبوالحصين أن أمره قد انكشف للأولاد.. وأنه لا مجال للمغالطة ولا للخديعة..

إلا أنه لم ييأس فقال لهم بصوت ناعم رقيق لطيف: وكيف تجعل أمكم ذيلها ناعماً.. فقال الأولاد بسلامة نية: وطيب قلب أنها تمسحه ليلياً بصفار البيض فيجعله ذلك ناعماً لطيفاً نعرف أمنا به.. ولا يشتبه ذنبها بأذناب الحيوانات الأخرى.. فقال أبوالحصين فى نفسه الآن وصلت إلى أول الطريق وسوف أسير فيه إلى النهاية.. وودع أبوالحصين أولاد الضبعة.. وقال لهم إنه صديق لوالدتهم.. ومحب لها.. وقد جاء لزيارتها لأنه تربطه بها روابط متينة من الحب المتبادل.. والمنافع المشتركة.. ولهذا فهو سيذهب الآن على أنه له عودة عندما تأتى والدتهم.

ودعهم أبوالحصين بهذا الكلام الرقيق وذهب ليهئ لذنبه ما يجعله مماثلاً لذنب الضبعة.. ويستدرك فى الجولة الثانية ما فاته فى الجولة الأولى.. وليتلافى أخطاءه كلها حتى تأتى حيلته محكمة.. من جميع النواحى.. وناجحة كل النجاح..

وذهب أبوالحصين إلى الدجاجة فقال لها: اعطينى بيضة.. فقالت: اعطنى حباً لأعطيك بيضة.. فذهب إلى فلاح له أعطنى حباً فقال أولاً جئنى بنقود.. فذهب إلى أحد الصيارف فقال أعطنى نقوداً.. فقال أولاً جئنى بزبدة بقرة.. فذهب أبوالحصين إلى البقرة وقال لها أعطينى زبدة فقالت أولاً اعطينى برسيّماً.

ذهب أبوالحصين إلى الصحراء واصطاد جربوعاً وجاء به فسلخ جلده وأكل لحمه وعمل من جلده غربا أى دلواً كبيراً، وذهب إلى بعض الآبار المهجورة وركب غربه على البئر.. بعد أن وضع محالة ودراجة ورشاء وسريحاً.. ثم جعل يمنح الماء من البئر ويسقى حوض البرسيم الذى فرق فيه البذر وقلب أرضه سافلها عاليها.

جد الجد لدى أبى الحصين فى استخراج الماء لرى البرسيم.. وصار يردد

هذه الأغنية: «ياغرينا يالدويلى اظهر ولوما تمتلى» «ياغرينا يالدويلى اظهر ولو ما تمتلى».. واستمر على هذه الحالة بضعة أيام يعمل فيها ليل نهار ويردد أغنيته بصوت رتيب ونغمة جادة صامدة.. إلى أن أخضر البرسيم وخرج على سطح الأرض فكان منظره بهيجاً.. يشجع على الاندفاع فى إخراج الماء أكثر فأكثر..

استمر السقى واستمر نمو البرسيم وصعوده إلى أعلى إلى أن بلغ المستوى الذى يحصد فيه فحصده وأخذ منه حزمة عظيمة وذهب بها إلى البقرة فقدمه لها ثمناً لما طلبه منها من الزبد.. فأكلته البقرة ثم أمدته بطلبه من الزبد.. وذهب به حالاً إلى الصيرفى فأعطاه إياه فأعطاه الفلوس المطلوبة.

فأخذ الفلوس وذهب بها إلى الفلاح لعيطيه الحنطة فأخذها ثم جاء إلى الدجاجة فرمى الحب أمامها فجعلت تأكل منه وتقوقئ للبيض ومنح أبى الحصين ما طلبه منها..

وعندما نال أبوالحصين طلبه من البيض ذهب به إلى مكان خفى وأخذ فى دهن ذنبه بصفارة إلى أن صار رقيقاً ناعماً لا يشك من يلمسه أنه ذنب الضبعة فلما تم له هذا العمل اتجه إلى بيت الضبعة ورابطه حوله حتى خرجت الأم وبقى الأولاد وحدهم وبعد فترة من الوقت تحقق فيها بعد الضبعة.. جاء إلى الباب وقرعه كما كانت الضبعة تقرعه.. وقال افتحوا لى فأنا أمكم نسيت حاجة تلزمنى فى ذهابى إلى الصيد..

وعندما سمعوا صوته هذه المرة لم يشكوا أنه أمهم.. ولكنهم زيادة فى الحذر والتأكد قالوا له أدخل ذنبك علينا لنرى هل هو ناعم أو خشن.. فأدخل ذنبه عليهم.. وهو لا يشك فى أنه لا فرق بين ذنبه وذنب أمهم.. وعندما لمسوا ذنب أبى الحصين لم يشكوا فى أنه ذنب أمهم ففتحوا له الباب وعندما رأوا وجهه عرفوا أنه عدوهم اللدود أبوالحصين..

تفرق أولاد الضبعة فى زوايا البيت.. فمنهم من دخل فى شق جدار ومنهم من دخل تحت قدر من القدور.. ومنهم من دخل فى مكحله.. ومنهم من دخل تحت

الفراش.. وهكذا فروا من وجهه سريعاً وكانوا قد أعدوا المخابئ.. والتحصينات الداخلية استعداداً للطوارئ من أمثال هذه الحالة التى يتعرضون لمثلها فى كل ساعة وآن.

وحاول أبوالحصين صيد أكبر عدد منهم.. ولكنه لم يفز بطائل.. وذهب تعبه واستعداده كله أدراج الرياح وخرج من بيت الضبعة يجر أذيال الخيبة والإفلاس.. وعلم أن الضبعة لن تترك ثأرها يضيع.. فقد انتهك أبوالحصين حرمتها.. ودخل بيتها بدون إذنها وحاول أكل أولادها.. ولو حصل عليهم لأكلهم.. ولكنهم نجوا منه بأعجوبة.

إذاً فلابد أن تطلب الضبعة بثأرها.. ومادام الأمر كذلك فلابد من الجلاء عن الوطن.. إن العيش فى ظل الخوف وترقب الشر لا يطاق.. فلابد من الرحيل.. وليفتح الله باباً آخر من أبواب الرزق.. وليسهل له وطناً ثانياً.. يعيش فيه بأمان واطمئنان ورغد من العيش.

وشد أبوالحصين الرجال.. وأركب جدته على حمار اشتراه لهذه الرحلة.. ومشى فى هذا الطريق المجهول الذى لا يدرى أين يؤدى به..

وعثر الحمار فى أثناء الطريق فسقطت الجدة.. واندقت عنقها وماتت.. إلا أن أبا الحصين أراد أن يستغل هذا الحادث لصالحه.. وأن يكسب من ورائه كسباً مادياً من قوم لا دخل لهم فيه.. من قريب ولا بعيد..

فربط جدته على ظهر الحمار وعدل من وضعها بحيث أن من يراها لا يشكل فى أنها حية.. وسار بها على هذه الحالة.. ورأى فى طريقه مزرعة فترك الحمار يذهب إليها.. والجدة على ظهره.. وأخذ الحمار يأكل من الزرع.. ويحطمه بأقدامه.. فصاح صاحب المزرعة أن أخرج حمارك عن الزرع.. إلا أن الراكب لم يحرك ساكناً.. ولم يسكن متحركاً.. وصاح صاحب المزرعة ثانية وثالثة.. فرأى التجاهل التام لصياحه وإنذاراته المتكررة.

اشتد بالفلاح الغضب وفار دمه.. فأخذ أكبر شىء وجده أمامه وهو قطعة من

الخشب طولها متران.. وقبض عليها بكفه الأيمن.. وركض مسرعاً إلى الحمار وراكبه فلما أدركهما.. أهوى على الراكب بضربة قوية هزته هزاً عنيفاً.. ثم اهوى على الحمار فضربه ضربة أخرى فقفز الحمار قفزة قوية سقطت الجدة على أثرها من فوق ظهره.. فاندق عنقها للمرة الثانية.

كان أبوالحصين فى هذه الأثناء يرقب الوضع من بعيد فلما رأى الحالة وصلت إلى ما وصلت إليه.. وجد أن الفرصة الآن مواتية له.. لنيل المكاسب على حساب جدته..

صاح أبوالحصين بأعلا صوته.. لقد قتلت جدتى وجاء مسرعاً فاحتضن جدته.. وصار يبكى عند رأسها ويندبها ويعدد مزاياها الكثيرة التى قد لا تكون فيها واحدة منها.. ولكنه يريد أن يرفع من مكانتها.. ليأخذ الثمن غالياً.. والفدية المناسبة..

ارتفع صوت أبى الحصين بالصراخ والعويل.. والدعاء بالويل والثبور.. لقد قتل الفلاح جدته.. وآثار الضرب موجودة.. ومعالم الجريمة بارزة.. وتجمع الناس حول أبى الحصين.. كما يتجمعون عادة عند كل حادث.. وكما يتلفون حول كل مهرج وازداد اللغط.. وارتفعت أصوات النقمة على الجانى.. وتعددت الآراء والاقتراحات من النظاره لأبى الحصين برفع قضية ضد الجانى..

منهم من اقترح الهجوم على الجانى.. وأخذ الحق منه بالقوة ودق رقبته حتى تتحطم، كما دق رقبة هذه العجوز المسكينة وكثرت الآراء فى هذا الحادث.. وما يجب أن يعمل للأخذ بالثأر وكان ذلك كله بمرآى وبمسمع من الفلاح المسكين الذى فقد أعصابه وتصرف تصرفاً خاطئاً بدأت نتائجه السيئة تبرز على السطح.

أسرع الفلاح إلى بعض ذوى المروءة والشهامة.. وجعلهم وسطاء فى الإصلاح.. ودفع تعويض معقول لأبى الحصين عن جدته على أن يكتب تنازلاً عن جميع حقوقه فى هذه الحادثة.. وسعى وسطاء الخير.. وجاءوا إلى أبى الحصين.. طالبين أن يعفو ويصفح.. وأن يقبل الدية.. فقال أبوالحصين إننى لا أخذ نقداً

مهما كثر عوضاً فى جدتى..

إن جدتى بالنسبة إلى كانت كنزاً ثميناً لا يعادله أى كنز.. فهى مؤنستى وهى رفيقتى.. وهى عونى فى الشدائد.. وهى التى تسامرنى إذا عز الأصدقاء.. وتسلينى إذا ارهقتنى الهموم وتساعدنى إذا قل المساعدون.. وعلى العموم فهى تهتم براحة نفسى وراحة جسمى فى آن واحد.. فكيف استطيع أن أجد عوضاً عن هذه الأمور كلها..

أننى لو وجدت عوضاً عن الأمور المادية.. فلن أستطيع أن أجد عوضاً عن الأمور المعنوية.. وجعل أبوالحصين يضرب على هذا الوتر.. إلى أن كادوا ييأسوا من قبوله الديه من كثرة ما أفرط فى مدح جدته..

إلا أن أحد الوسطاء كان ذكياً.. عارفاً بالأمور فخلا بأبى الحصين.. وقال له: إننى أرى أن لا تعقد الأمور.. فأن من الخير لك أن تقبل الدية.. وسوف أسعى أن تكون مضاعفة.. فبدل أن يعطوك دية واحدة.. يعطونك ديتين.. فاقبلها سريعاً ولا ترفضها لئلا تطلبها فى ظروف أخرى فلا تجدها.. وأعلم أن القضاء قد لا يعطيك أى حق لأنك معتد.. وإذا أعطاك فقد لا يعطيك أكثر من دية واحدة بينما نحن الآن نعرض عليك ديتين.

قال الناصح هذا الكلام وقال لأبى الحصين: إننى أعطيك فرصة يوم كامل للتفكير فى الأمر واختيار ما تطمئن إلى أنه فى صالحك فوافق أبوالحصين على أن يؤجل الموضوع إلى الغد فالعجلة من الشيطان.. والتأنى فى مثل هذه الأمور أفضل من التسرع فيها فالحقوق محفوظة.. والطريق إليها واضحة.. ولا داعى - إذا - للرفض أو الموافقة حالاً.

وجاء اليوم الثانى وغدا الوسطاء إلى أبى الحصين وجددوا له العرض.. وطلبوا منه أن يبت فى الموضوع إما بالقبول أو الرفض وفكر أبوالحصين قليلاً ثم قال للوسطاء:

إن لكم عندى منزلة رفيعة.. وإن توسطكم فى الموضوع يجعلنى مجبراً - أدبياً

- على القبول بما تقولون، وإلا فإن جدتى كما قلت سابقاً لا تقدر بثمن فهى كنز لا ينفد من الأمور المادية والمعنوية.. ولكن القضاء نفذ.. ولا سبيل إلى إعادة جدتى إلى الحياة.. وليس لى رغبة أو شوق للانتقام.. والحاق الأذى بالآخرين.. ولم يبق إلى الحل الذى تقترحونه.. وأضاف قائلاً:

أننى أشهدكم أننى موافق على اقتراحكم مع ما أشعر به مع هذا التعويض من الغبن الواضح.. فإن خسارتى فى جدتى لا تقدر بثمن مهما غلا.. ولا تعد لها خسارة مهما ضخمت..

واتفق الطرفان.. ودفعت الديتان وكتب التنازل عن جميع الحقوق والتبعات فى هذا الحادث.. ووقع الاتفاق من الأطراف المعنية بالموضوع وشهد الشهود وانتهى الأمر.

وسر أبوالحصين بالمبلغ سروراً بالغاً فهو أكبر مبلغ من المال يدخل جيبه الخاص فى حياته السابقة كلها.. والتف حول أبى الحصين قرناء السوء.. وجعلوا يزينون له طرق اللهو والفساد.. ويقولون له فى جملة ما يقولون: إنك لا تأخذ معك إلى القبر شيئاً من مالك، وليس لك منه إلا ما أنفقته فى حاجاتك وملذاتك.. وساعات السرور هى الشىء الوحيد الذى يتمتع به المرء فى حياته.

وفكر أبوالحصين فيما قالوا.. وكاد فى مبدأ الأمر أن ينساق فى هذا الطريق.. لولا أن ذكاءه الفطرى جعله يفكر فى عواقب الأمور ويفكر فى هؤلاء الأصحاب.. أصحاب الرخاء والنعيم.. وأعداء الفقر والاملاق.. فسد أذنيه عن جميع ما يقولون من هذه الترهات.. والكلام المعسول الذى فى باطنه السم الذعاف.. واستشار أحد معارفه العقلاء فأشار عليه بأن يحفظ هذه الثروة.. وأن يستعملها فى التجارة والبيع والشراء.. وأن يأكل من أطرافها ومكاسبها.. أما رأس المال فإن عليه أن يحتفظ به.. وأن يحرص على صيانته وعدم المساس به.. وعليه أن يعرف مكانه فى المجتمع فلا ينحدر إلى طبقة السفلة والدهماء.. ولا يرتفع إلى مستوى هو فوق مستواه.. فالعاقل هو الذى يعرف قدر نفسه فلا يعدو هذا

القدر سقوطاً ولا هبوطاً.

استمع أبوالحصين إلى تلك النصائح بكل مشاعره وإحساساته.. ووجد أن هذا النهج هو عين الصواب.. فسلك هذا الطريق راضى النفس مطمئناً إلى أنه الطريق السليم.. الذى يضمن له عيشاً هادئاً مريحاً.. ويجنبه كوارث الزمان وتقلبات الدهر.. الذى لا يبقى على حالة واحدة!!

وعاش أبوالحصين فى ظل هذه النصائح عيشاً هانئاً سعيداً غبطه عليه الأصدقاء وحسده عليه الأعداء.. وبقى على هذا النهج إلى أن جاءه هادم اللذات ومفرق الجماعات..

وكملت وحملت وفى أصبيع الصغير دملت!!

■ ■ ■

قاط قاط

قال أحد الأطفال للجدة: قصى علينا سالفة قاط قاط فقالت الجدة: اطلبوا غيرها لأن فيها حوادث مزعجة وصور من الرعب مخيفة! فقال الأطفال بصوت واحد: أننا لا نريد فى هذه الليلة إلا هذه القصة.. وازعاجها على من وقعت عليه.. أما نحن فلا تضيرنا تلك المواقف ولا تزعجنا تلك الصور المرعبة.

فقالت الجدة: ما دمتم مصرين على ذلك.. فاعلموا أن تلك الأمور كانت فى سالفة الزمان وقد انقضت تلك الأزمنة بخيرها وشرها وبقيت قصصاً تروى فقط من بات التسلية.. وتزجية الفراغ وأخذ العبرة!

ثم اعتدلت الجدة فى جلستها وقالت:

هنا هاك الواحد والواحد الله فى سماه العالى وإلى هنا هاك العائلة الفقيرة.. التى تضم عجوزاً مقعدة.. ورجلاً أعمى وشابة هى ابنتهما الوحيدة.. التى تقوم بشئؤنهما.. وتسعى لنيل الرزق لها ولهما.. وكانت هذه الشابة تكافح كفاحاً مريراً فى سبيل العيش.. والترفع عن الحاجة إلى الناس.. وكسب قوتها وقوت والديها بعرق الجبين!!

استمرت هذه الفتاة على هذه الطريقة فترة طويلة من الزمن.. إذا ضاقت بها مناهج العيش فى المدينة؛ خرجت إلى الصحراء.. تجمع من حطبها.. وتجمع من أعشابها.. وتأكل ما يؤكل من نباتاتها.. وخرجت إلى الصحراء ذات يوم وحيدة فريدة.. وأوغلت فى الصحراء بحثاً عن الحطب؟ وعندما أرادت العودة ظلت الطريق.. وجاء الليل وأرخى سدوله.. وهى لاتزال فى متاهتها.. ونظرت من جميع الجهات فلم تر أثراً لحى.. ولا مناراً لطريق.. فأيقنت بأنها واقعة فى خطر شديد.

كانت الريح شديدة والهواء بارداً.. فجمعت ملابسها على جسمها وأطبقت على نفسها بزنبيلها الذى خرجت به لتحتطب فيه وتجمع فيه أعشاباً.. وحاولت أن تنام ولكن هيهات!.. أن النوم هجر جفنيها فلا سبيل إلى النوم.. وجعلت تتململ تحت الزنبيل.. تارة تتقلب على جنبها الأيمن.. وتارة تنقلب على جنبها الأيسر.. وتريد أن تنام.. تريد أن ينقشع عنها هذا الكابوس فلا تستطيع.. ولا أن تعمل أى سبب من الأسباب.

إن وحشة الخلوة.. وسكون الصحراء جعلها تتخيل أموراً من المخاوف مزعجة.. وتتصور أشكالاً مخيفة.. فتستعيذ بالله من الشيطان الرجيم وتتقلب على جنبها الآخر فلا تزداد الهواجس إلا الحاحاً.. ولا المخاوف إلا شدة.. ولا مجال لها لكى تهرب من هذا الوضع الذى وضعتها فيه الأقدار.. وأسلم الأحوال فى مثل وضعها الحاضر أن تلزم الهدوء.. وأن تلجأ إلى الأرض تندس فيها إلى أن ينقشع كابوس الليل فتستطيع رؤية الأرض وأعلامها.. فلعلها تهتدى إلى المدينة بجبل تراه.. أو علامة تهديها إلى سواء السبيل.

بقيت الفتاة على حالتها تلك.. فى جحيم من الأفكار السوداء تأتى فكرة وتذهب فكرة.. وقلبها يدق دقات متوالية؛ فلا يكاد يدعها تهدأ.. ولا يترك لأعصابها فرصة للراحة.. وهكذا أخذت ساعات الليل تمتد.. وتمتد.. والفتاة المسكينة لا يهدأ لها بال.. ولا تستطيع أن تستقر على جنب واحد لتنام.. وعندما جاء منتصف.. سمعت ضجيجاً وجلبة.. وأصواتاً مختلطة؛ هى مزيج من حركة مندفعة وأصوات وحوش كاسرة.. وظنت بادئ ذى بدأ أن هذا من تصورات خيالها المرعوب!.. وتصوير خاطرها المكدود..

وفركت عينيها.. وأصغت بأذنيها إلى هذه الأصوات!.. وإذا هى حقيقة لا مجال للشك فيها.. وواقع تحسه.. بسمعها.. وتحسه بجسمها.. وتحسه بعقلها.. وتحسه بخيالها.. ولكنها مع هذا تحاول أن تغالط نفسها.. تريد أن تكذب هذه الهواجس كلها.. تريد أن تتيح لنفسها ولو قليلاً من الراحة وهدوء البال.

ولكن لا مجال!.. فقد بدأت الأصوات تقترب!.. وبدأ صوتها يرج الأرض رجاً من تحتها!.. ولم تشعر الفتاة وهى داخل زنبيلها إلا وجسم كبير غريب يقف عند رأسها! والجلبة والضوضاء كلها من خلفه!.. وإذا هو يوجه الكلام إلى من تحت الزنبيل: «من هنا» فتكلمت الفتاة بكلمات متقطعة مرعوبة.. وأنفاس مبهورة.. قائلة أنا يا عميمى!.. فقال لها: هل تعرفيننى؟ فقالت نعم!.. فقال من أنا؟.. قالت الفتاة أنت ملك الوحوش وسيد الصحراء.. ومصدر الخير.. ومصدر البلاء.. فقال كيف ترين جمالى.. قالت ياله من جمال باهر.. كالقمر الزاهر والضياء الغامر.. قال وكيف ترين جنودى قالت إنهم نعم الجند قوة.. ونعم الجند كثرة.. ونعم الجند شجاعة.

قال ما اسم بلدك قالت هى كذا.. فأمر بأن تحمل إلى أقرب نقطة من بلدها.. وأن يملأ زنبيلها ذهباً وفضة.. وجواهر..

وهكذا فلم يشعر أهل الفتاة آخر الليل إلا بابنتهم تقرع عليهم الباب.. وهى محملة بتلك الثروة الطائلة.. التى لا تحلم بها الأسرة فى المنام.. ولا تخطر على بالها فى الخيال.. ووجدت والدها لا تكاد تحمله قدماه من التعب والاجهاد والهم القائم!! ووجدت أمها قد انعقد لسانها فهى لا تستطيع أن تتكلم.. وإنما وسيلتها للمفاهمة بالاشارة.

جاءت بتلك الثروة الطائلة وصبتها بين أيديهم.. فهالتهم هذه الثروة العظيمة، التى هبطت على ابنتهم من السماء.. وقال الأب لابنته ما هى القصة؟! فأخبرته بما جرى منذ أن خرجت من البيت إلى أن عادت إليه.. فقال الأب لقد وفقت فى الجواب كل التوفيق إن هذا وحش كاسر يسمى «قاط قاط».. وهو يعمل هكذا بكل من ينفرد به فى الصحراء.. فيمتحنه بهذه الأسئلة؛ فإن وفق إلى مثل جوابك نجا وإن لم يوفق.. كان مصيره الدمار والهلاك.

حمدت الفتاة ربها على أن وفقها للجواب الحكيم، والطريق السليم، للخلاص من ذلك الوحش المخيف.. وأعطت الأموال والدها يتصرف فيها بما يرى فيه

المصلحة للأسرة فى حاضرها ومستقبلها.. وظهرت آثار النعمة على هذه الأسرة فقد ضمدت جراحها.. وارتفعت مكانتها ورغد عيشها وصارت تنفق المال بسخاء.. وتظهر بمظاهر الأثرياء، فغبطها قوم وحسدها آخرون..

أخذ الناس كلهم يبحثون ويتكهنون عن أسباب هذا الغنى المفاجئ؛ الذى سقط على هذه الأسرة.. فبعضهم يقول أنه كنز رآه أحدهم فى النوم وحفروا عنه فى الأرض فوجدوه.. وكان كنزاً عظيماً فيه ثروة طائلة؛ من ذهب وفضة وجواهر.. وبعضهم يقول: إن غنى هذه الأسرة بسبب قريب لها كان مسافراً إلى الهند وعمل فى التجارة حتى كون ثروة عظيمة فمات ولم يخلف أولاداً ولا بنات فتحولت معظم هذه الثروة لهذه الأسرة.

وبعضهم يقول: إن الله إذا رزق العبد رزقه من حيث لا يحتسب فالله يرزق من يشاء بغير حساب.. والله هو الرزاق ذو القوة المتين..! والمهم أن الناس ذهبوا مذاهب شتى فى هذه الثروة المفاجئة وسبب حصول هذه الأسرة عليها.. وكان من جيران هذه الأسرة عائلة غنية بعض الغنى.. وكانت أرفع مكانة فى الثروة والمجتمع من أسرة فاطمة.. فلما جاءتهم هذه الثروة صاروا، أغنى من هذه الأسرة، وأكثر مالا، وأرفع منزلة فحسدوا أفرادها.. وكانت لهم ابنة فى سن فاطمة لاتزال فى مقتبل الشباب.. وهى تنظر إلى الثروة والجواهر بشوق لا حد له..

لذلك جعلت تغدو وتروح على عائلة فاطمة.. وتجتمع بفاطمة كثيراً.. وتسألها فى مناسبات عديدة، عن مصدر هذه الثروة.. فكانت فاطمة تتخلص من سؤالها فلا تعطيها عليه جواباً واضحاً محدداً.. وفى ذات يوم الحت بنت الجيران هذه على فاطمة.. بأن تخبرها عن مصدر هذه الثروة.. ولم تجد فاطمة بداً من أن تخبرها بالخبر.. مقلوباً لتتخلص منها.

أخذتها فاطمة بيدها وخلت بها فى إحدى الحجرات.. وقالت لها إن سبب هذه الثروة؛ التى خرجت ذات يوم لأحتطب فى الصحراء.. فتوغلت فيها ولم أجد شيئاً مما أردت فزاد توغلى وكان النهار على وشك الانتهاء.. فجاء الليل ولم

؛ستطع أن أهتدى إلى الطريق؛ فنمت فى المكان الفلانى وجعلت زنبيلى على رأسى فلما توسط الليل.. لم أشعر إلا بضوضاء وجلبة عظيمة.. وبعد وقت قليل وصل إلى وحش عظيم تمشى من ورائه وحوش الصحراء على مختلف أنواعها.. فسألنى عن نفسه فقلت أنت الوحش الكاسر والعدو الغادر.. وسألنى عن لباسه ومظهره فقلت لباسك الصوف ومظهرك مظهر الخروف وسألنى عن جنده.. فقلت جندك وحوش أنذال.. وهم ملفقون من السهول والجبال..

أخذت بنت الجيران هذه المعلومات المقلوبة رأساً على عقب قضيه مسلمة.. وفى ليلة من الليالى سلت نفسها من بين أفراد عائلتها وكانت قد أعدت زنبيلاً خفية عن أهلها.. فأخذته وسارت فى جنح الظلام فلما أوغلت فى الصحراء.. وأخذ منها التعب.. وأحست بوحشة العزلة والانفراد.. كفأت الزنبيل على رأسها.. وجلست تحته؛ مبهورة الانفاس.. تلوم نفسها تارة على هذه المجازفة التى لا تعلم عواقبها.. وتارة تمنى نفسها بالثروة العظيمة التى سوف تنالها فى هذه الليلة.. وبقيت تحت زنبيلها وقلبها يخفق وجسمها يرتعش ونفسها الجشعة تذهب بها فى آمال طوال.

وعندما صار الليل ليلين.. سمعت ضجيجاً وجلبة عظيمة آنية من ناحية الجبال.. وأخذت هذه الأصوات والجلبة ترتفع شيئاً فشيئاً.. إلى أن اهتزت الأرض من تحت الفتاة.. فعلمت بقرب الوحش وجنوده وأعدت الأجوبة التى كانت حفظتها حرفياً.. وجعلت تعيد الأسئلة والأجوبة فيما بينها وبين نفسها.. وتستعد للأخذ والرد مع هذا الوحش الكاسر.. وبينما كانت على هذه الحالة، وإذا بالوحش يقف على رأسها ويوجه إليها السؤال الروتينى المعروف.

من أنت؟ قالت أنا فلانة.. فقال لها ومن أنا؟! قالت أنت الوحش الكاسر والعدو الغادر.. ثم جعل يلقى عليها بقية الأسئلة فتجيبه بنفس الأجوبة المثيرة التى لقنتها إياها فاطمة.. وكان الوحش ينخر من الغضب بعد سماع كل جواب.. فلما تكاملت أجوبتها كان الوحش قد نفد صبره.. واحتدم غيظه.. وتعطش إلى رؤية دمها.. مراقاً على أرض الصحراء فقال لجنوده مزقوها.. فانقضت عليها الوحوش

من كل جانب ومزقتها شر ممزق.. ولم يبق فى مكان المعركة إلا أشياء من زنبيلها وملابسها.. أما جسمها.. أما عظامها.. أما دمها.. فقد ذهبت ذلك كله فى بطون تلك الوحوش الكاسرة..

وأصبح الصباح وبحثت العائلة عن ابنتها فلم تجدها.. وسألت عنها الجيران فلم يدلوا عنها بخير.. وشاع فى المدينة هروب هذه الفتاة.. وكثرت الاشاعات والأقاويل حول هذا الهرب.. فمنها ما يقول لعلها هربت مع حبيب لها كانت تحبه فى السر ويمنعها أهلها من الزواج أو الاجتماع به جهراً وبعضهم يقول لعلها سئمت القيود العائلية المتزمتة التى كانت تعيش فى وسطها بين أهلها.. الذين قد يكونون متزمتين أكثر مما يطاق.. وبعضهم يقول لعلها نكبت فى حب لها مع شاب غرر بها.. ثم غدر وتخلى عنها فى منتصف الطريق فلم تر وسيلة للخروج من هذا المأزق إلا بالهرب إلى إحدى المدن المجاورة.

هذا بعض ما يقوله الناس ويتناقلونه عن فقدان هذه الفتاة، التى ذهبت حياتها بسبب الطمع والجرى وراء الثروة.. والركض وراء الآمال الكاذبة.. التى يتساقط ضحاياها بين البشر بالعشرات بل بالمئات فى كل يوم من أيام هذه الحياة.

لقد ذهبت هذه الفتاة ضحية للطمع.. ضحية الجشع.. فقد كان أهلها من طبقة متوسطة.. تعيش فى رغد وعز ومكانة مرموقة.. ولكن اثراء جيرانهم جعلها بدافع المنافسة تقوم بهذه المغامرة الفاشلة.. وبحث أهل الفتاة عنها.. سألوا عنها صديقاتها فلم يجدوا على سؤالهم جواباً.. واستمروا فى البحث والتحرى وسؤال الغادى والرائح.. فلم يظفروا بأى نبأ عنها.

وخرجوا إلى الصحراء، من عدة جهات.. يبحثون لعلهم يجدون.. أو لعلهم يسمعون شيئاً عنها واستمر البحث عدة أيام بدون جدوى.. ولكن اليأس لم يدب إلى نفوسهم، فمازال لديهم أمل فى العثور عليها أو على أخبارها.. واستمر البحث.. وفى ذات يوم كان أحد الذين يبحثون عنها حول مكانها.. ورأى سواداً

فقصد إليه.. وعندما وصله.. وجد ثيابها الممزقة.. ووجد ساعتها المحطمة.. ووجد بعض خواتمها وحليتها.

أخذ الجميع وذهب به إلى أهل الفتاة وقال إنى وجدت هذه الأشياء فى مكان كذا من الصحراء.. ولا أدرى هل هذه لابنتكم أم لغيرها.. فحصوا هذه الأشياء، وتأكدوا أنها ملابس ابنتهم.. وحليها.. وعلا البكاء والنحيب.. وعم الحزن والأسى على هذه الشابة التى ماتت فى مقتبل شبابها.. لأسباب لا يعلمون عنها شيئاً.. وعادت الاشاعات والأقاويل بين الناس عن الأسباب والمسببات.. فى وفاة هذه الفتاة.. ولكن هذه الأقاويل كلها كانت ظنوناً وتكهنات.

إلا أن تلك المجتمعات تملأ بمثل هذه الأحاديث أوقات فراغها.. وتزجى بها فتراة من ساعاتها اليومية لا مجال إلى ازجائها إلا بأمثال هذه الأحاديث والظنون والتخرصات!!

وكملت وحملت وفى أصبيع الصغير دملت!!

■ ■ ■

النباقات سبع بنيات

وجاءت ليلة أخرى وتجمع الصبية فى مكانهم المعتاد منتظرين جدتهم.. لتسبحن عليهم.. كعادتها.. وجاءت الجدة بعد أن فرغت من صلاتها.. وجلست بين الصبية وقال لها أحدهم نريد ياجدتى أن تسبحنى علينا سبحونة النباقات سبع بنيات.. فسوت العجوز نفسها واستندت على حائط كان خلف ظهرها ومدت رجليها بين الأطفال وتلك عادة عرفها الأطفال منها فصاروا يتركون مكاناً خالياً لرجلى جدتهم التى طالما شكت إليهم آلام المفاصل فى قدميها وركبتيها.. وبدأت الجدة فى القصة قائلة:

هنا هاك الواحد والواحد الله فى سماه العالى وإلى النباقات سبع بنيات راحوا ينبقون أى يجنون النبق من شجرة الصحراوى السدر.. فخرجن من البلد وصرن يمشين فى الصحراء.. ريمشين.. ويمشين.. إلى أن وصلن إلى إحدى الشجرات فقلن لها:

ياشجيرة البر هو فيك نبيقة.. فقالت لهن:

فى أختى اللى وراى..

وصرن يمشين.. ويمشين.. ويمشين.. إلى أن وصلن إلى شجرة أخرى.. فقلن لها:

ياشجيرة البر هل فيك نبيقة؟! فقالت: فى أختى اللى وراى

فصرن يمشين.. ويمشين ويمشين.. فى قلب الصحراء إلى أن وصلن إلى شجرة ثالثة.. فقلن لها..

ياشجيرة البر هل فيك نبيقة؟! فقالت نعم.. وكانت الأشياء فى الزمان الماضى كلها تتكلم الشجر والحجر والطير والحيوانات ولذلك فلا غرابة فى أن تتكلم السدرة وتجيب السائل بالنفى أو الإيجاب.

فوقف البنات السبع عند تلك السدرة - وطبعاً لابد من أن تصعد إحدى البنات لتقطف النبق من أعلا السدره وترميه على زميلاتها.. ومن المعروف أن

السدر كثير الشوك.. متشابك الاغصان فلابد أن يكون الصاعد إليه نبيهاً شديد الحذر لتسلم ملابسه من التشقق.. وليسلم جسمه من الجروح وقد تكون الجروح سهلة بالنسبة إلى تشقق الملابس.. فتشقق الملابس يكلف ثمناً.. أما الجراح فتندمل مع الزمن.. وبلا ثمن! ولذلك فإن كل واحدة تخشى على جسمها من الجروح وتخشى على ثيابها من التشقق.. أما جروح الجسم فقد تندمل بلا مشقة.. والصعوبة كل الصعوبة فى تمزيق الملابس ولذلك فإن كل واحدة من البنات السبع تخشى على ملابسها وتريد أن يصعد غيرها.. وأن يتعرض لهذه الخسارة المادية سواها.

وقالت رئيستهن: اصعدى السدرة يا أم عبية فقالت أخاف تتشق عبيتى وتهاوشى أمى.. ومعنى تهاوشى أى تخاصمنى وتعاتبنى على المجازفة والتعرض لخطر تشقيق الملابس فقالت الرئيسة: أرقى يام سريويل قالت أخاف ينشق سريويلى وتهاوشى أمى.

قالت الرئيسة أرقى يام شييله.. وهى تصغير شيله لباس خفيف يغطى به الرأس والوجه فقالت أخاف تتشق شييلتى وتهاوشى أمى.. كما يقولون فى الامثال طق الفقير.. ولا تشق خلقه.

قالت الرئيسة أرقى يام ثويب قالت أخاف ينشق ثوبى وتهاوشى أمى.. قالت الرئيس أرقى يام جويعد تصغير جاعد وهو لباس يصنع من جلود الأغنام ويكن كثير الصبر والتحمل للوخز والخشونة.

فصعدت أم جويعد.. وأخذت تبطبط.. وتبطبط.. وتبطبط أى تقذف عليهن من ثمرة السدرة وهى النبق. ثم قالت لهن هل ملأتن قفافكن والقفاف جمع قفة وهى وعاء يصنع من حوض النخيل يكون أسفله واسعاً وأعلاه ضيقاً بحيث يوضع عليه غطاء محكم لا يتمكن ما دخل فيه أن يخرج منه إلا إذا كشف غطاؤه.. فقلن لها حتى الآن.. فأخذت.. تبطبط.. وتبطبط.. وتبطبطبط.. ثم قالت هل ملأتن قفاكن فقلن لها نعم.. فقالت وهل ملأتن قفتى فقلن لا فقالت املأنها ثم صارت تبطبط.. وتبطبط.. وتبطبط وقالت هل امتلأت قفتى فقلن لها نعم فانزلى فنزلت.

أخذت كل واحدة من البنات قفتها وحملتها على رأسها.. وتوجهن إلى قريتهن

يمشين الهوينا ويتحدثن فيما بينهن.. بأحاديث مسلية يقطعن بها الطريق وعندما أشرفن على القرية.. قالت إحداهن: يابنات تعالين لنرى أينا أكثر وأطيب.. فصادفت هذه الدعوة هوى فى نفوسهن فقد اجهدهن التعب.. وفى هذ الجلسة يأخذن شيئاً من الراحة.. وفيها مفاخرة والبنات طبعن على حب المفاخرات فكون حلقة.. على إحدى كثبان الرمل وجلسن.. وافرغت كل واحدة منهن قفتها فى حجرها.. ولم يرع البنات إلا صياح واحدة منهن.. فأنها عندما أفرغت قفتها وجدت كل ما فيها حشرات ضارة من حيات وعقارب وخنافس وذباب وما إلى ذلك من أنواع الحشرات المؤذية.. وصارت تلك الحشرات تدب على جسمها.. منها الصاعد إلى فوق ومنها الهابط إلى أسفل فقامت الفتاة بطول جسمها وصرخت بأعلى صوتها وجعلت تحاول التخلص من تلك الحشرات الضارة وتنفض ثوبها وجسمها.. وتنتقل من مكان إلى مكان إلى أن تخلصت تماماً من هذه الحشرات..

ورجعت إلى قفتها.. أنها فارغة لا شىء فيها.. فامتلأت نفسها حسرة! كيف يرجع البنات إلى أهلهن وكل واحدة معها قفة ملأى بالنبق.. وهى ترجع هكذا بدون شىء.. أن هذا أمر لا يمكن أن يكون فصممت على الرجوع إلى الصحراء.. إلى تلك الشجرة التى أخذت منها سابقاً وهى تعرف الطريق إليها.. وهو طريق طويل وشاق.. ولكن لابد من الصبر.. وقالت لزميلاتها.. أننى لا يمكن أعود إلى أهلى بدون شىء فإما أن تعطينى كل واحدة قليلاً.. حتى يكون ما معى يماثل ما معكن وإما أن ترجعن معى إلى الشجرة لأملأ قفتى.. فقلت لها بلسان واحدة لا هذه ولا تلك فلن نعطيك نبقاً ولن نرجع معك فإن كل واحدة منا ينتظرها أهلها بفارغ الصبر.. ويترقبون عودتها فى كل لحظة.. ولهذا فلو تأخرت إحدانا لانشغل بال أهلها.. ولظنوا بها شتى الظنون السيئة.

قالت هذه الفتاة التعسة الحظ: إننى لا يمكن أن أعود إلى أهلى هكذا بدون شىء ولابد من العودة إلى الشجرة لملء قفتى.. فقلن لها اذهبى وحدك.. فأخذت قفتها وتوجهت إلى الشجرة بينما توجه زميلاتها إلى القرية.. وهن فرحات مستبشرات.. وجعلت تمشى والهواجس تملأ خاطرها.. وكل حركة فى الصحراء تخفيها.. وكل صوت يرعبها.. واستمرت فى المشى إلى الشجرة أنها مصممة على الرجوع إلى الشجرة مهما كانت النتائج.. ومصممة على الرجوع إلى أهلها إما جثة

هامدة.. أو بقفة ملأى بالنبق الذى هو الثمرة الوحيدة الموجودة فى شجيرات تلك الصحراء.. ووصلت إلى الشجرة بعد جهد جهيد.. وتفكير مضن.. ومخاوف وهواجس لا حد لها..

صعدت الشجرة وجعلت تجنى من النبق أحسنه وأكبره حتى ملأت قفتها وعندما همت بالهبوط رأت جسماً عظيماً ومنظراً بشعاً مخيفاً قد أقبل إلى الشجرة يمشى مشياً متثاقلاً فقبعت بين الأغصان لعله لا يراها فيمضى فى طريقه وتنزل هى فتمضى فى طريقها.. وصار يتحرك متجهاً إلى الشجرة ببطء وقلب الفتاة يدق بسرعة.. وهى تشجع نفسها وتحاول أن تطرد الخوف والفزع الذى سيطر على نفسها وجسمها.. ولكنها لم تستطع.. وجاء هذا الوحش المخيف يمشى رويداً رويداً إلى أن وقف عند جذع السدرة، ورفع رأسه قائلاً: من هاللى فى السدرة وعلمت الفتاة أنه رآها.. وأن سؤاله هذا سؤال العارف معرفة اليقين بوجودها فأجابته قائلة أنا ياعمى..

وكلمة عمى هذه فيها الكثير من التملق والمداراة والتواضع فقال لها ذلك الوحش بطبطى علىّ فقالت مرحباً ياعمى وزال عنها بعض الخوف.. وقالت لعلها إذا اشبعته نبقاً أن يتركها وشأنها فتسير إلى أهلها سالمة من شروره فائزة بما جمعته من أطايب النبق وكباره..

وجعلت تبطبط على هذا الوحش وهو يلتهم كلما يقع فى الأرض وتبطبط! ثم تبطبط! فقالت هل شبعت ياعمى فقال: «بطن شبعان وبطن جوعان وبطن تطارد فيه الطليان» فعلمت أنه لم يشبع فصارت تبطبط.. وتبطبط.. وتبطبط فقالت هل شبعت ياعمى فأجابها بجواب مثل جوابه الأول فصارت تبطبط.. وتبطبط.. وتبطبط فقالت هل شبعت ياعمى فقال نعم فانزلى..

فنزلت الفتاة من الشجرة وجسمها كله يرتعش وقلبها يخفق وهى لا تدرى بماذا سيفاجئها به هذا الوحش العظيم الذى لم تر مثله فى حياتها.. ولا تدرى ماذا يسمى.. وعندما استقرت على الأرض نظرت إليه وكأن لسان حالها يقول: هل تأذن لى بالانصراف إلى أهلى فنظر إليها الوحش بدوره وقال لها اجمعى لى حطباً يابنية.. فذهبت تجمع الحطب بينما هو أخذ يحفر حفرة عظيمة طلب منها أن تملأها حطباً.. ولم تدر الفتاة ماذا يراد بالحطب ولا ماذا يراد بالحفرة..

واستمرت فى جمع الحطب إلى أن امتلأت الجفرة.

وعندئذ قرب الوحش من الحفرة وأشعل النار فى الحطب وأيقنت الفتاة بالهلاك.. وعلمت أنها لا شك هى المقصودة بهذه النار العظيمة واشتد خوفها وارتعشت أطرافها.. ولكن اليأس يعطى النفوس قوة عظيمة قد لا يشعر بها المرء مادام فى أمان وفكرت فى حيلة تقضى بها على هذا الوحش قبل أن يقضى عليها.. وجعلت تفكر فى شتى الحيل والطرق.. التى تنقذها من هذا الموت المحقق.. وفى لحظة من اللحظات عندما كان هذا الوحش يوقد النار.. ويجمع أعواد الحطب المتناثرة.. ويجعلها فى وسط الحفرة.

فى هذه اللحظة انتهزت الفرصة.. وقالت اصبر ياعمى أن فى رأسك قملة أريد أن أخذها.. فأسلم العفريت رأسه إلى الفتاة وجاءته من الخلف فدفعت جسمه الضخم فى وسط الحفرة وبين ألسنة اللهب وتدحرج العفريت إلى وسط الحفرة وأحاطت به ألسنة اللهب من كل جانب وحاول الخروج فلم يستطع..

وتعجبت الفتاة من هذه القوة الخارقة التى منحها الله إياها كيف استطاعت أن تقذف بهذا الجسم العظيم فى وسط الجحيم أنها قوة اليأس قوة حب البقاء.

وصار هذا الوحش يدعو الفتاة لإنقاذه ويغريها بأنه سوف يقدم لها مكافأة سخية إذا هى فعلت.. وجعل يقول لها: أخرجينى وأعطيك الذى تحت الحصاة البيضاء فتقول له لا فيعيد القول بإغراء أكثر فيقول: أخرجينى وأعطيك الذى تحت الحصاة الحمراء.. فتجيبه بلا.. فيعود ويقول مبالغاً فى الإغراء أخرجينى وأعطيك الذى تحت الحصاة الخضراء فتجيبه بلا.. فيقول متعلقاً بأهداب الأمل الذى لا يفارق الأحياء مادام فيهم نفس يتردد أخرجينى وأعطيك الذى تحت الحصاة السوداء فتجيبه بلا..

عندئذ كانت النار قد أحرقت جسمه وفارقت روحه البدن.. فتنفست الفتاة الصعداء.. وأحست بالامان.. وصحب احساسها بالأمان تخاذل عظيم فى جسمها؛ فقد بذلت جهوداً جبارة من آثار الجهد والمجازفة فى القاء هذا الوحش فى وسط الجحيم.. فجلست على الأرض ولسانها يلهج بالثناء على الله وشكره على ما منحها من القوة وعلى ما يسر لها من الفرصة فى القضاء على عدوها قبل أن

يقضى عليها.

بعد أن هدأ خفقان قلبها وارتاح جسمها قليلاً نهضت متجهة إلى حيث كان يشير العفريت وبحثت عن الحصيات الأربع فوجدتهن وكشفت الحصاة الحمراء فوجدت الذى تحتها كله ذهب.. ثم كشفت الحصاة البيضاء.. فوجدت الذى تحتها كله فضه.. وكشفت الحصاة الزرقاء فوجدت الذى تحتها كله فصوص من اللؤلؤ والمرجان.. والمجوهرات.. وكشفت الحصاة السوداء.. فوجدت الذى تحتها زباد وأنواع من الطيب الزكى الرائحة.. وجاءت بقفتها وأفرغت ما فيها فوق التراب.. وفكرت قليلاً من أى هذه الكنوز تملأ قفتها.

وأخيراً فضلت أن تملأها ذهباً ولؤلؤاً ومرجاناً.. ثم أعادت كل حجر إلى ما كان عليه.. وتوجهت إلى القرية وهى تفكر فى أهلها.. ماذا ظنوا فى غيابها وماذا صنعوا.. وفكرت فى والدتها.. أن والدتها رقيقة القلب كثيرة الحساسية تتأثر من أقل حادث فكيف سيكون وقع الخبر عليها؟ ووصلت إلى القرية ليلاً وقرعت الباب ففتح لها والدها وعندما رآها ضمها إلى صدره واجهش بالبكاء من شدة الفرح وقال أين أنت يابنيتى.. لقد أزعجنا غيابك ولم نترك مكاناً لم نبحث عنك فيه فلم نجدك..

اذهبى يابنيتى إلى والدتك بها لا تحملها قدماها من شدة الفزع فذهبت الفتاة إلى والدتها وأكبت على رأسها تقبله.. ثم جلست إلى جانبها وجاء الوالد فانضم إليهن وقصت عليهما قصتها من أولها إلى آخرها فحمدوا الله الذى أنجاها من هذا الخطر الداهم وجاءت الفتاة بالقفة.. فنثرت ما فيها من الذهب والجواهر فاندهش الوالد واندهشت الوالدة وكادا أن يصعقا من شدة الفرح..

أخذوا يعدون تلك الجنيهات الذهبية.. ويجعلون كل كمية محدودة منها فى كيس.. وبدأ الوالد أول ما بدأ بشراء قصر جديد وكبير.. واثثه أحسن أثاث ثم انتقلت الأسرة إليه.. ثم اشترى بستاناً فى إحدى ضواحى البلد فيه من كل شجرة.. واشترى عربة وحصاناً ينقل الأسرة من القصر إلى البستان ومن البستان إلى القصر.. وعاشت الأسرة فى رغد من العيش لا عهد لها به وجاء الراوى من عندهم لم يعطوه مما لديهم جنيهاً ولا جوهرة.

وحملت وكملت وفى أصيبع الصغير دملت.

المصادر والمراجع

١ـ فراس السواح: موسوعة تاريخ الأديان، الكتاب الثانى، مصر ـ سوريا ـ بلاد الرافدين ـ العرب قبل الإسلام، منشورات دار علاء الدين، دمشق ـ سوريا، ٢٠٠٧.

٢ـ محمد عبدالمعيد خان: الأساطير والخرافات عند العرب، دار الحداثة، بيروت ـ لبنان، ١٩٨٠.

٣ـ سيد مظفر الدين نادفى: التاريخ الجغرافى للقرآن، ترجمة: دكتور عبدالشافى غنيم عبدالقادر، راجعه: حسن محمد جوهر، سلسلة الألف كتاب، لجنة البيان العربى، ١٩٥٦.

٤ـ شوقى عبدالحكيم: موسوعة الفولكلور والأساطير العربية، مكتبة مدبولى، ١٩٩٥.

٥ـ محمد عبدالواحد حجازى: الأساطير العربية، مكتبة الإيمان، المنصورة ـ مصر، ٢٠٠٨.

٦ـ حمزة على لقمان: أساطير من تاريخ اليمن، دار المسيرة، بيروت، ١٩٨٨.

٧ـ إبراهيم سراج: موسوعة الأساطير والخرافات، العالمية للكتب والنشر، ٢٠٠٨.

٨ـ لطفى حسين سليم: الأسطورة والإسرائيليات فى التراث العربى القديم، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مكتبة الدراسات الشعبية، القاهرة، ٢٠٠٠.

٩ـ عبدالكريم الجهيمان: أساطير شعبية من قلب جزيرة العرب، جزءان، مكتبة المعارف، الرياض، ١٩٧٧.

١٠ـ محمد بيومى مهران: دراسة حول الديانة العربية القديمة، بدون ناشر، ١٩٧٨.

١١- محمد عجينة: موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، الجزء الأول، العربية للنشر والتوزيع، تونس، دار الفارابى، بيروت ـ لبنان، ١٩٩٤.

١٢ـ محمد عجينة: موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، الجزء الثانى، العربية النشر والتوزيع، تونس، دار الفارابى، بيروت ـ لبنان، ١٩٩٤.

ـ مواقع عربية وأجنبية على شبكة الإنترنت الدولية.

فهرس المحتويات



قصص الآلهة العربية القديمة - أولاد الجن -
الحمار والثور وصاحب الزرع - مزنة مع العفريت -
أبو سالم مع الساحر - كليب ومهلهل - قاط قاط -
الغولة والمسافر الوحيد - النباقات سبع بنايات

عاش العرب قبل الإسلام تحت تأثير المظلة الأسطورية. فعرف العرب الجاهليون تعدد الآلهة والارباب، ونسجوا حولها الخرافات والأساطير. كانت الأسطورة عند عرب الجاهلية تمثل علاقتهم بالكائنات، وآراءهم فى الحياة، ومشاهداتهم، وكانت مصدر أفكارهم، ألهمتهم الشعر والادب، وكانت الدين والفلسفة معاً. لم يستطع العربى الجاهلى أن يتصور ما وراء الطبيعة، ولم يتخيل حياة بعد الممات، فقدس الحجر، والحيوان، والأشجار، ومن ثم أمن بالدهرية.

فالأساطير العربية هى عبارة عن قصص وحكايات نقلها العرب جيلاً بعد جيل بواسطة الرواية. كانت تدور حول موضوعات شتى منها الآلهة والأحداث الخارقة.

فلاشك أن العرب يمتلكون تراثاً أسطورياً يعكس رؤيتهم وموقفهم من الكون والعالم والوجود.وهذه بعض الأساطير العربية أقدمها للقارئ عسى أن تنال إعجابه.

W.Salama 010 15 17 873

كنوز
للنشر والتوزيع